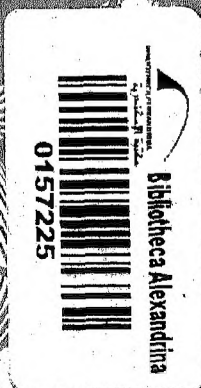


شخصية مصر

دكتورة نعات أحمد فؤاد



اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الامراء للنشر والتوزيع

القاهرة

• د. نعمات أحمد فؤاد

شخصية مصر

الطبعة الخامسة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

شخصية قاهرة
وروح أسيرة
وعطاء لا يضمن
ووفاء لا يمن
ورجاء لا يخيب
تمضي الدول
ويذهب أصحابها
وتظل مصر الباقية
شخصيتها هي .. هي
لا تتبدل
ولا تتبدد
ولا تحول .

إهداء

الى مصر التي يعمر حبها قلبي

ويبقى تاريخها دليلاً

ويشرف باسمها اسمي

مصرية من مصر

وبمصر

ولمصر

د . نعبات احمد فؤاد

مقدمة

في سنة ١٩٦٨ والنفس المصرية يمزقها العذاب والألم وفقدان الثقة كتبت كتابي (شخصية مصر) يقول للهزيمة : لا ... يقولها من منطلق عطاء مصر للانسان والاديان والقيم على مسار تاريخها كله .

و « لا » من طبيعتها أن تكون صرخة رفض تخرج لساعاتها والا ضعف تأثيرها اذا تأخر توقيتها . ومن أجل هذا كان كتابي ١٩٦٨ خطوطا عريضة .. نتائج مركزة لدراسة مكثفة دون تطبيق أو شرح لأن الانسان المصري في محنته وقتله ، كانت روحه المطحونة بحاجة الى مدد من ثقة ينتعها من العسر والقسر والقهر ، ويرفعها من الحضيض الى جديد من الأمل يردها الى الحياة ، ويمدها بالعزم .

وهنا تتوخى الكتابة والكتب أن تكون جرعة ناجعة لا دراسة موسعة .

واليوم وقد عبر الانسان المصري الهزيمة ، وقرعينا ووجدانا ، واستقر مكانا وكيانا ، وارتفع روحا وانسانا ، أعيد كتاب شخصية مصر في صورة أخرى تتمسك بكل معنى في الكتاب الأول ، ومع هذا كتبه من جديد من حيث المنهج واسلوب تناول الكم والكيف .

كأنني أكتبه لأول مرة من انتفاضة واقاضة وتغميق لخطوط معينة ، وتطبيق لحادثات دالة ، وتحقيق لرؤى جديدة في تسع سنوات عشتها في هذا الموضوع وعاشها الموضوع داخلي حتى ملأ على كياني وكيف كتاباني كلها منذ ذلك اليوم الذي مادت بنا ، فيه ، الأرض ، وخاصة

كتابي (اعيدوا كتابة التاريخ) الذى حرصت على تضمين بعض فصوله ،
لتفاده ، ولاهميتها هنا كاهميتها هناك مثل فصل (الاقباط والمسلمون) .

ان الأمم بعامة والأمم العربية بخاصة ، فى أوج مجدها أو تازم
محنتها ، بحاجة من وقت الى آخر ان تتمهل قليلا لتتبين حقيقة موقفها
على هدى من ماضيها ، وواقع من حاضرها حتى لا يصيبها الفسور
فتهورى أو يتركها الأسى أو اليأس فتفنى أو تنطفئ أو تنزائل شخصيتها
وهنا يكمن الخطر الأكبر .. لهذا يتحتم التعرف الى شخصية الأمة فى
انعقاب كل مرحلة من مراحل تاريخها وبعد كل اضافة جديدة الى
مذخورها .. ولا يتحتم ان تكون الاضافة كسبا أو انتصارا فقد تضيف
الحنة الى الأمة العربية ما لا تضيفه الانتصارات ، من تماسك وصلابة،
واصرار ، ووقدة شعور ، ورغبة استملاء ، وقدرة على العمل ، وبصر
ببواطن الضعف ، ونفاذ الى مواطن القوة .

والماضى فى الأمم العربية ليس للنسيان أو العدم أو حتى التشدد
الاجوف به ، ولكنه سجل للتجارب والانتصارات أصلح ما يمكن ان
يكون قاعدة انطلاق اشد قوة ومضاء .

وقد فطن الشعب المصرى الى وجوب استيعان ذاته من حين الى
آخر ، وخاصة فى هذا القرن ، فكتب الأستاذ صبحى وحيدة ، كتابه
(فى اصول المسألة المصرية) ، وكتب الأستاذ حافظ رمضان كتابه :
(ابو الهول قال لى) ، وكتب الدكتور حسين فوزى كتابه (سنبداد
مصر) .. وكلها تحكى قصة الشعب المصرى مع اعدائه وموقفه منهم
فى صفحات مليئة روية من تاريخ هذا الشعب ومقاومته الموصولة ..
كما كتب الدكتور جمال حمدان عن شخصية مصر (دراسة فى عبقرية
الكان .)

ولكنى اقف هذا الكتاب على «شخصية» الشعب المصرى ..
شخصية مصر) وعطائها الحضارى الباقي على طول العصور .. كل
العصور .. عصور القوة وعصور الضعف السياسى بما لا يترك مجالا
للشك فى ان مصر اكدت شخصيتها من خلال الفن والعلم والروح والطابع
مثما اكدتها من خلال المقاومة السافرة . وكثيرا ما فاق صنعها فى الأولى
عملها فى الثانية .

ومن عجيب أمر الشعب المصرى أن شخصيته القادرة عملت عملها
فى ازماته ونكباته مالم تعمله شخصية اخرى لأمة من الأمم .

وهذا بعض الجديد في الكتاب .

ونحن حين نعيش قصة مصر وما أدت فاننا لانأى جديداً من كتابة الكاتبين فقد سبقتنا الامم الواعية الى بلورة شخصيتها بالقلم . فعلت هذا من الشرق الهند والصين ، ومن الغرب انجلترا وفرنسا والمانيا بل فعلته امريكا على يد «لنجفلو» و «أمرسن» على حداثة عهدها بالتاريخ والحضارة .

Portrait of England وبين يدي الآن من كتب الشخصية كتاب
وهو مختارات من اقوال الكتاب والشعراء فيها
(An anthology) by Christian Mawson

The Story of England by Arthur Bryant وكتاب

D.W. Brogan وكتاب (الشخصية الامريكية) ألفه د. و . بروجان
الذى كتب في هذا الاتجاه كتابين آخرين هما :
The English People (1943)

French Personalities and Problems وكتاب

ومن كتب الشخصية كتاب فاليرى Valari عن فرنسا في ترجمته الانجليزية : Reflections on the World Today الذى تكلم فيه ، في حب ، عن فرنسا محلا الشخصية الفرنسية وعمل البيئة في الامة وظاهرة التكامل في فرنسا والهارموني في الطبيعة الفرنسية بين السهول والجبال . . كما تكلم عن سيادة اللغة الفرنسية وعن باريس وكيف تمثل الروح الفرنسية والطابع الفرنسى والدوق الفرنسى .

وتحت عيني من بين الكتب التى عالجت شخصية اقوامها كتاب The German Mind and Outlook الذى يحلل الشخصية الالمانية متناولا بيئة المانيا الجغرافية والعهود السياسية في المانيا ومزايا اللغة الالمانية ونعرة الجنس الأرى وامتيازه وافكار نيتشه وفلسفة شبلنجر وفلسفة توماس مان وكاستنر وفلسفة النازية . وحين تحدث هذا الكتاب عن المانيا تحدث لودفيج Ludwig عن (الالمان) في كتابه : The German ففى هذا الكتاب كتب لودفيج تاريخ الالمان في ألفى سنة مفسرا الاعمال والاحداث من خلال الشخصية الالمانية واسلوبها في الشعور ، والروح الالمانية التى تعرضت بقسوة للتصدع والشقاق وظلت كما هى خلال العصور .

وكتاب Krishnalal Schridharani مؤلف My India My West
تحدث فيه مؤلفه عن الهند قديما وحديثا .. تحدث فيه عن غاندى
ونهرى وتاجور .. تحدث عن معركة الهند .. عن جيرانها .. وعن
اصدقائها .

ومن اعمق الكتب واكثرها متعة في موضوع الشخصية كتاب
My Country and My People تحدث فيه الكاتب الصينى عن العقلية
الصينية من حيث الذكاء والمنطق والخيال . وتكلم عن الخلق الصينى بما
فيه من صفات الصبر والرضا والفكاهة .
تكلم عن ايدولوجية الحياة وانسانية الصين والدين عندهم ..
وتكلم عن المرأة ، والبيت والزواج ، ومثالية الانوثة وتعليم البنات،
والحب والمائة .

تكلم عن الحياة الاجتماعية والسياسية .. عن الحياة الاسرية ..
عن الطبقات الاجتماعية .. عن عالم المرأة وعالم الرجل .
تكلم عن الحياة الادبية والحياة الجامعية والحياة الفنية .
تكلم في اصالة ومدوبة عن فن الحياة .. نعمة الحياة .
لم تكلم في نهاية الكتاب عن الحرب اليابانية الصينية وعن مستقبل
الصين .

هذا مع نقد للحياة الامريكية وايدولوجيتها وعاداتها بالقياس الى
الحياة الشرقية في لمحية وحكمة وتعاطف الصينى الذى استقى من
ثقافة العنصرين .

وهكذا يكتبون عن اوطانهم بلا عقد ولا خوف او اتهام بالاقليمية
كان الاقليمية في حد ذاتها جريمة .. او كان الانسان لا يستطيع ان يتعاون
مع جيرانه الا اذا انكر نفسه او افناها مجاملة او مسايرة او غير هذا من
مقاصد بقصد او غير قصد .

ونحن بعد المحن بحاجة الى : اعادة بناء الشخصية المصرية عن
طريق :

اعادة تفسير التاريخ فان الشعبية والذيلية في فهم التاريخ اسر
علينا ان نتحرر منه .. لابد من تفسير جديد من اجل أمل .. من اجل
مستقبل جديد .

ان التاريخ داخلنا لانه نسيج شخصيتنا ونحن حين نقرؤه ، انما نتعرف الى شخصياته داخلنا او نتعرف الى انفسنا ذاتها .. ومن هنا يجب أن يكون تدريس التاريخ (فنا) ويكون تلقينه رحلة في الحياة ماضيها وانجازاتها .. لا نقف عند مآسيه وحدها التي هي فشل الانسان ولكن عند افراحه ايضا فهي حصاد السنين .

كان فرويد يرى في الحلم دلالة على الماضى .

حين كان يونج يرى في الحلم دلالة على المستقبل .

ورؤية المضى في التاريخ دلالة على المستقبل ونوعيته من خلال الماضى ..

ان وعى التاريخ ليس اجترار الماضى .. انها معاصرة واستجماع لانطلاق .

ان العالم في معمله الذى يقاوم المجاعة التى تهدد العالم يؤدى صلاة استسقاء عصرية .

ليست معاصرة معقدة ان يعى الانسان التاريخ ؟

يجب أن ندرس مع العلوم ، تاريخ العلوم ونربطها بالانسان ... اثرها فيه ، وخلفيتها وراءه ... وهو ما لم نفعله في المدرسة المصرية والعربية الى اليوم .

هل هناك مسئول واحد عن الصدع الذى حدث فى الشخصية المصرية ؟

المدرسة المصرية آفة من آفات الشخصية المصرية .

والمرأة المصرية مسئولة بالدرجة الاولى مما نحن فيه ، انها مسئولة حتى عن اخطاء الرجل المصرى لانه كان ابنا لها يوما ما ، فلم تشكله الا على هذه الصورة .

كيف تعلم المدرسة المصرية اليوم ، التاريخ ؟ ماذا تقول ؟ مدائح ملوكية كالادب العربى هل نعرف او يعرف اولادنا شيئا عن دور الشعب فى صنع التاريخ : اعفيكم من الجواب فاني اعرفه .. لقد حدثونا وافاضوا عن ابطال الحروب اى الذين قتلوا اكثر ... ، والملوك الكرام الذين رعوا العلم والعلماء ... رعاة العلم هؤلاء صادروا ايضا

الراى الحر ، ورموا اصحابه فى غيايات السجون .. بل حرقوا قسرى
بأكملها لتنزل على رأيهم .

لا تأتمنوا القاب التاريخ فكم من « مامون » فيه غير مامون ...
ولامر ما فضل أرسطو ، الشعر ، على التاريخ .. ان كذبه
التخيلى ، هو على الأقل رؤية بعيدة ولا يقصد بها التحريف والتحييف .
ولأننا نلقن تاريخ مصر ولا نقرؤه ، اضعنا المفتاح .

هل نعرف ونحس ضمير مصر ؟

مصر الجغرافيا : الأرض والنيل والصحراء .

مصر التاريخ : الزمن والاحداث والناس .

أما مصر المعنى فازوريس واختاتون وأنطونيوس وذو النون وابن
الفارض .

هؤلاء هم ضمير مصر .. معالم من معالمها ...

والمدرسة المصرية تبثدى وتعيد فى الفخر والمدح .. فى الحفريات
وعندما ثرنا على الأزهر فى فترة تجمده ، أخذنا بالتعليم الحديث تاركين
الجذور فطلع لنا ومنا جيل (زينه) جيل زهرية يدبل سريعا لأنه
لا يضرب فى باطن الأرض .

الآن نروم تكاملا بين جيلين أى ارتباطا بين الثقافة القديمة
والحديث فى محاولة اعادة بناء الشخصية المصرية فى صورة جديدة
قديمة عفية وفتية .. ثرية وسرية .

ان التحرير المعنوى غير احياء التراث فان مجهود العلماء على
اختلاف جنسياتهم اكبر من جهود أصحاب التراث أنفسهم .

التحرير المعنوى مع استيعاب التراث يعين على اعادة بناء
الشخصية وحمل امانة التاريخ والمضى بالمضى خطوة الى الامام . فمصر
الحضارة + مصر المسيحية + مصر الاسلامية + الحرية جهاد يستضىء
بوحى هذه القيم الأربعة ليولد الجديد فى عملية نزوع الى المثل
الأعلى ...

يتمثل هذا فى السلة والمثدنة . فالسلة استقامة صريحة حين
خلصت لهم الحياة فى واديهم . فلما ولدت المثدنة القاهرية فى ظلال سيوف

الحروب الصليبية بدت للعين في عمارتها مجاهده من المربع الى المثلث
الى الاسطوانة الى الخلوص الاخير الذى ينتهى بالهلال ورمز الأمل والنماء
والميلاد .

ما احوجتنا الى قراءة التراث قراءة جديدة .

كان جيته يقول (انت لا تترك حقاً ميراثك الا إذا كسبته من
جديد)

السنا فقراء مع اننا نملك اغنى تراث فى الدنيا لاننا لانعرفه ...
لا نعيشه ؟

ليس عندنا حلم ثقافى على الرغم من وجود الجامعات وتعددتها .
فالتراث ، حفظه في مظهرنا ، معناه تجميعه وتشوينه مع أن الحفاظ
عليه يعنى تفهمه وذكره واستلهامه . ان حياة العلم مذكرته ... يروى
الغزالي أن أحد الصحابه قال يوم مات عمر .. اليوم مات العلم ولم
يكتب عمر كتابا ولم يكن استاذاً في جامعة ولكن العلم سكن قلبه حين
كانت عنده الرؤية الاسلامية الحقيقية .

وبعض التراث ، التقاليد .

والتقاليد ليست التقليد ولا هى منه . وليست الجيود كما
يفهمها العامة ... والعامة هنا هم فقراء الفكر . ولكن التقاليد عند
الخاصة ، وهم هنا اثرياء الفكر لا المال ، وثبات الاجيال وعلاؤها ... انها
منطلق لكل جديد متطور نام .

ان الشخصية ان لم تكن متجددة نامية غدت قاعدة وقيدا .

والدكى والوطنى معا من يعرف كيف يتواصل مع التقاليد الاصيلية
.. مع التراث الحقيقى في جوهره ... ثم الانطلاق منها عفا قويا ...
مصريا جديرا بهذا الاسم الكريم .

تكوين مصر

- التثليل
- الإنسان والمكان "مصر والزراعة"
- علمت الزراعة المصري كيف يصنع

النيل

مصر ذات البحرين وبنت القارتين فهي صدر إفريقيا ، وهي بسينا
طرف في آسيا . وهي بساحلها الشمالي تطل على أوروبا . حين تتلمس
روسيا منفدا على البحر ، يقف البحر الأحمر على يمين مصر ويقف البحر
الابيض في شمالها ويتربع النيل في قلبها حبها الكبير وحبنا الكبير .
« فلتة جغرافية » .

هذه مصر قلب العالم جغرافيا ، وقيلته تاريخيا وحضاريا .
وتجاوب الانسان المصرى مع المكان والزمان .
كان عليه الكثير ليفعله .
وأدرك هذا منذ البداية بدكاء فطرى ونظرة ملهمه .
بدأ .

قبل التاريخ .
وكانت رحلة طويلة مثيرة .
أكثر من مقدة وأكثر من يطل فيها .
وتعمددت الفصول ومازالت أحداثها تجرى وتؤثر في العالم
كله ...

الآن كالأمس .
والى آخر الزمان .
إن رحلة مصر الطويلة بدأت قبل بناء الأهرام بألف السنين .
نستطيع في المتحف المصرى أن نتابع هذه الرحلة خطوة خطوة . .

شخصية مصر - ١٧

هناك في المتحف ، لا في الكتب ، نستطيع أن نرى تاريخ مصر وهو
بنسج خيطا خيطا . هذا التاريخ يبدأ من قاعة العصر الحجري حيث
نجد الأواني الجميلة المتعددة دليل تعدد وجوه الاستعمال وهى دلالة
حضارية .

ونجد وسائل الحياة اليومية مصنوعة فى دقة وجمال . نجد إبره
الخيطة . . ونجد الودع يستعمل نقودا ونجد الخرز ألوانا وعقودا .
... نجد وسائل الزينه . . نجد المشط ينتهى أعلاه على شكل غزاله !
اذن ارتفعت مصر فى هذا العصر السحيق ، على الضرورة
ظوتجاوزتها الى مرحلة البرف والتائق الحضارى .

وسبق هذا بالطبع ألوف السنين فى عملية تحضير وسعى . ان
السعى الحضارى المحسوب لمصر أو الذى يجب أن يحسب لها يبلغ
عشرين ألف سنة .

بدأت رحلة مصر الحضارية فى الصحراء قبل العصر الحجري حين
كانت الصحراء مسقط الأمطار . . . ثم انتقل العمار الى الوادى بعد ان
جفت الصحراء . . . فشب الصراع بين سيت وأوزوريس . أى بين
الجدب والخصب أو بين الحق والباطل .

على هذا المكان ، نشأت ، قبل مينا ، ملحمة تاريخية من الجهاد
الحضارى رائعة . لقد تضافر النيل والانسان المصرى على اخراج هذه
المحلمة . فهناك دالات أنهار ولكن الأنهار ودالاتها فى غير مصر لم تخلق
الحضارة بمستوى هذا الخلق .

وأهم من هذا لم تتواصل فيها الحضارة بغير انقطاع كما حدث فى
مصر .

حضر النيل ، المسرح ، للحضارة .

وهى الانسان المصرى الدرس ومضمونه قيمتان كبيرتان :

✳ الكلى فى واحد أى التعاون

✳✳ العمل أى الكفاح لدرء خطر الفيضان .

هنا فى هذا المكان جمع الانسان المصرى نفسه فى وحدة حضارية
مستمعا الى نداء النيل الذى جمع نفسه من أنهار .

ومن هنا ندرك سر مصر الذى يكمن فى الإدارة والتوحد . الإدارة

التي ضببطت النهر ، والتوحد الذي صنع من امة تزرع وتبنى وتخلق الحضارة .

ولهذا تتأخر مصر عندما تتفرق أو تسوء الادارة فيها .

واستمع المصرى الى نداء النيل مرة أخرى حين رآه يكون الدلتا عاما بعد عام . كان أمامه البحر فأخذ يرسب فيه ، وفي أصرار ، فيتراجع البحر كل عام حتى وقف عند موقعه الحالى .

واستوعب المصرى الدرس ووعاه .

وأصبح العمل الدؤوب ، علامة عليه .

وأصبح الصبر قدرة لديه .

والإيمان الراسخ رصيد فى قلبه ، وكنز مكنون .

وهذا سر امتصاصه للمحن .

وقهره للصعب

واستعملته على الاحداث .

ووثوقه بالله .

ويقينته فى النصر .. فى النهاية .

قبل الهرم بل قبل مينا ، كانت مصر تشبه منطقة بحر الجبل وبحر الزراف اللتين حدثونا عنهما فى الجغرافيا .

حولت مصر المستنقعات وأحراش البردى الى جنة خضراء . وهو منجز حضارى لا يقل عن بناء الأهرام فى دلالاته على طاقة القدرة والارادة والبناء .. ولكن مصر من كثرة معجزاتها ، غدت المعجزات فيها بلا علامة .. بلا مفاجأة .

« مصر هبة النيل » .

ثلاث كلمات تتردد كثيرا على الألسنه ، وعلى صفحات الكتب منذ قالها هيرودوت .

لقد أعطى النيل لمصر الكثير .. وعلمها الكثير ولكن مصر هبة النيل وهبة الإنسان المصرى وثمرة جهوده الموصولة الطموح . فهناك أنهار

أخرى لم تتم في وديانها ما قام في مصر من حضارة متفوقة متآلقه باقية على الأيام . أقولها وأكررها .

لقد استجاب الإنسان المصرى لصرامة التحدى .. تلك الاستجابة التى أضفت على تاريخ مصر وشخصيتها دلالتها الحقيقية حتى قال الدارسون فى أكابر :

(اذن البيئة ليست السبب الوحيد الذى تتولد عنه الحضارة) .
انها هبة الإنسان المصرى .

النيل والأرض .

لقد ملأ النهر العظيم دنيا المصريين .. عرفوه منعما يحيى الأنفس والثمرات ... راوه فضة مذابة بين الجانبين ، وراوه جنات خضراء على الضفتين ، وراوه ذهباً براقاً فى حقولهم قمحا وشعيراً وخيرات أخرى .

تمثلوه فى الزهر ، وسمموه فى الطير فجنوا بحبه حتى عبده ، أو عبدوا الآله من خلاله فكانت صلاة اخناتون حمداً عميقاً لله يحدث ينعمة النيل .

لقد ازدهى أحد الفراعنة الإعجاب . والعجب فهتف مزهوا يعلن فى كهنته حدود مصر ، وقد رسمها متصوراً النيل فالأرض المشمولة بفيضه هى مصر . وكل انسان يشرب منه تحت جزر الفنتين انما هو مصرى .

وأحبوا حياتهم معه فكروا الموت . وأنكروا أن يحول بينهم وبين النيل فقالوا بالبعث والخلود والحياة الأخرى . ورسخت هذه العقيدة فى نفوسهم فراحوا ينقشون على جدران مقابرهم صور العيش فى واديه من مناظر الزرع والحصاد والرعى والصيد والمراكب والأزهار والعطور وكل ما وهبه النيل الوهوب ، مصر .

واقترن فى أذهانهم عقيدة الحياة الأخرى بالثواب والعقاب والجنة والنار ... والخير والشر

والاحساس بهذا كله هو بعينه الضمير .

علمهم النيل ، الدين . فالمصرى يتضرع يوم الحساب فتكون وسيلته الشافعة أنه لم يقطع (قناة) فى ممرها ، ولم يخالف نظام الرى ، ولم يتلف الاراضى الزراعية . ويعد نفسه سعيداً لأنه قاس الفيضان الذى يجعل مصر مخصبة بمحض الهبة الالهية .

ركزنا النيل حوله فعلمنا جمع الشمل . ان مصر (نيلية التركيز والاستقطاب) .

ولعل شعورنا العميق بوجوب التجمع والتوحد عند خطر فيضان النيل هو سر الحيوية المصرية التى تستيقظ فجأة عند الخطر حين لا تدل الدلائل على هذه اليقظة قبل وقوعها .

علمهم النيل القياس والحساب ففى سبيل تقسيم الحقول على جابى النيل بالقنوات ، اخترعوا القدم والذراع بل اخترعوا النظام العشرى .

ومن أجل النيل أقاموا المراسد والحواجز والسدود بل كتبوا .
ولما علمهم النيل الكتابة ، تعلموا التلوين .

وفرين النيل قام منه أول بناء كان أساسا لفن العمارة الذى تطور مع العصور واستبدل بالفرين ، الحجر والمواد الأخرى .

ومن غرير النيل قامت صناعة الفخار الذى تطور مع الزمن واتخذ مكانه بين التحف الجميلة .

واتخذ النمل المصرى ، النيل ، وسيلة لنقل الأحجار الضخمة وبخاصة الجرانيت الذى شيدت منه آثار ضخمة .

وعلى النيل قامت الأساطير المصرية القديمة وأهمها أسطورة إيزيس وأوزوريس .

وأثر النيل فى الأدب المصرى قديمه وحديثه فعليه ومنه وحوله دار الكثير من الحكم والأمثال والأغاني والمواويل والتقصص بل أوحى النيل الى غير المصريين فى اللغات الأخرى .

لقد ذكر النيل فى القرآن وحده فى مقام الفخر وذكر وحده بلفظة الجمع (الأنهار) ولم يطلق على نهر اسم البحر غيره . وهو تكريم وتشريف . (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) .

علمهم التطلع الى السماء ومراقبة الأفلاك وإذ قرنوا بشائر الفضاء بظهور لجمه الشعرى اليمانية فى غرب السماء المصرية ، كان هذا نواة علمهم بالنلك .

من أجله قسموا الزمن الى أيام وشهور .

وقسموا السنة الى ثلاثة فصول : **الجمال** وهو الفيضان ولهذا كانت بداية السنة عندهم ١١ سبتمبر والنيل من الفيضان ملك ..
والخير والعطاء وهو البذر والحياة **أى الحصاد** الجنى .. ووضعوا **التقويم الشمسى** وأهدوه للعالم . ولا تزال تشير عليه الى اليوم .

وتعلمت مصر من النيل الكرماء حين رآته يقبل عليها كل عام محملا بالخير في موعد رسدته . ومنذ ذلك التاريخ ووقاؤها الأكبر للنيل حتى اذا اضطرت سنوحى ظروفه ظلالى الرحيل عنه . ووافته ، فى البعد ، الدنيا بحلاها وغناها فلم تغن عنه شيئا . ويترك فى سهمه اذا يغشاها ذكرى حبيبة ، ويهرق قلبه اذا يتجسم له الحرمان منها فى الحياة وبعد الحياة (فهو يخشى) أن يموت بعيدا عن مصر فيدفن فى غير ترابها ، ويفسل بغير مائها ، ويكفن فى غير نسيجها فباب الجنة لا يفتح له الا عند ضفاف النهر ، ورفاته مصيرها التلف والبلى اذا لم يفصل بماء النهر ، وكفانه لن تكون من لباس أهل الجنة الا اذا كان نسيجها من الكتان الذى ينبت على ماء النهر .)

حتى البحر لا يرقى فى عين مصر ، عند المفارقة ، الى مقام النيل ... وهى لا تفعل هذا من باب الشعر وخيال العاطفة ولكن شاعرها القديم يقوله عالما بما فى أعماق البحر من كنوز .

(انه النيل قوام العدل الذى يحبه الناس) .

يغطيه من يقرنه بالبحر الذى لا ينبت قمحا ، وبالصحراء التى لا تؤوى طيرا ...

(وما دام الناس لا يأكلون اللازورد الحر ، فالشعر أحسن) .

فى بساطة وعمق .. فى صدق وحق أحبه ونحبه من بعدهم ...

أحب المصريون مصر النيل الى الحد الذى سموها (عين الله) ونحن نسميها (كنانة الله) . وكان المصريون القدماء يعتقدون أنها فى اعزاز الله لها ، فى كفة ، وسائر العالم فى الكفة الأخرى ولهذا **خلق نيلها** وحدها . ثم خلق نيل آخر لسائر البلاد الأجنبية كما جاء فى نشيد اخناتون :

انت الذى يعطى الحياة (ايضا) لكل البلاد الأجنبية البعيدة .

لأنك خلقت نيلاً فى السماء (المقصود المطر)

لينزل من أجلكم ويحدث أمواجا فوق الجبال ،

مثل امواج البحر .
 لتروى حقولهم التى فى قراهم .
 ما اجمل اعمالك يارب الابدية .
 فالنيل الذى فى السماء خلقتة للأجانب .
 ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام .
 اما النيل (الحقيقى) فانه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر .
 بل بلغ اعتدادهم بمصرهم ونيلهم حدا جعل البطل تحوتمس صاحب
 اول امبراطورية فى التاريخ يقول بعد أن انتصر فى موقعة (مجدو) وقد
 رأى دجله والفرات عند منبعيهما فى الشمال :
 (المياه التى تجرى فى اتجاه خاطئ)
 ان البطل يجرى نيله من الجنوب الى الشمال فكل ما عداه
 خاطئ .
 انه زهو البطولة ومن الانتماء .
 حتى الشمس فى عين المصريين لا تكون دائما فى غير مصر ، مثلها
 فى مصر توهجا ووضاءة كما حكوا عن الرحالة المصريين .
 ومن الطريف أننا اليوم ، فى حياتنا اليومية ، اذا أردنا تهوين شئ
 او تُصغره قلنا على سبيل السخرية (يعنى هو البحر هيجرى مقبل)
 لان النيل يجرى شمالا .
 فتغيير النيل مجراه هو الوحيد ، الحادث الذى يهزنا . أما ماعداه
 فأمره سهل .
 انه تفكيرنا او احساسنا به منذ عهد تحوتمس الى يومنا هذا .
 وتعلمت مصر من النيل **التعاون والنظام** عندما انتظمنا على شاطئه
 لاقامة الجسور عليه او تكاتفنا فى الفيضانات العالية لدرء الخطر عن
 الوادى . والفلاحون يسمون (السخرة) من أجله (العونة) . والتشريع
 المصرى ينص على أن النيل اذا بلغ أربعة وعشرين ذراعا أصبح لزاما على
 كل مصرى من أى طبقة العمل على حماية البلاد من قيضه .
 وتعلمت مصر من النيل **نظام الحكم** فان وجوده تطلب حوكمه قويه
 لتنظيم الرى .
 لقد **كيف النيل تخطيط المدينة المصرية** فاذا تتبعنا الخرائط

التفصيلية للمدن المصرية النهرية ، وجدنا اغلبها كما يقول الدكتور جمال حمدان (ينجح الى الاستطالة ، أحيانا الى حد الانسياح والتفطع ، لكي تفيد الى اقصى حد من الجبهة المائية على النيل . وهذا امر يديهي ، ولا شذوذ عنه الا نادرا ولظروف محلية خاصة ، غير ان الذى ليس ملحوظا بنفس الدرجة ان محور تلك الاستطالة يوجه في معظم الاحيان بحسب اتجاه النهر في موضع المدينة المعنية . وبعبارة اخرى فان توجيه امتداد مدننا يتحدد بموقعها من زهرة اللوتس الكبيرة التى هى شكل النهر ، حتى يمكننا ان نتنبأ باتجاه امتداد أى منها بمجرد موقعها عليه) .

ولم يعط النيل ، مصر ، الماء ، فحسب بل اعطاها الارض ايضا بما يحمله معه من الطمي كل عام ويرسبه على جانبيه .

واذ فتح الانسان المصرى عينه وعقله على النهر المتدفق والارض السمرء ، لاح له خاطر ظل يخأبله طيلة اشهر الفيضان حتى اذا انحسر الماء ، بدأ يزرع . . فبدأت صفحة جديدة .

الانسان والمكان مصر والزراعة

فى بداية العصر الحجري الحديث عرف أهالى مرمدة بنى سلامة
والفيوم الزراعة فكانوا أول ذراع فى التاريخ .

زرع الانسان المصرى فمر بتجربة .

بذر وسقى .. ثم جنى المحصول فحقق الوفرة .
وتعلم من هذا الكثير :

عرف ان الجزء على قدر الكفاح والعمل لا الكسل .

وتعلم من الزراعة ، التركيز . ان التجدير فى عالم النبات اى
نبات الجذر وتمكينه لنفسه فى مكانه فيستوى على سوقه ويعجب
الزراع .

اشارة لمحتها النفس المصرية الى ضرورة الثبات والتركيز . ان
التقلبات لا تثير المصرى كثيرا . انه هو الباقي وكل العواصف تزول ..
وسرعان ما غدا النبات استاذ النفس المصرية ..

رأت مصر النبات متجددا ابدا فالهمها فكرة الاستمرار لماذا
لا تتجدد النفس المصرية هى الأخرى ؟ وانفوس فى طبع مصر استهزاء
العمل فى اتصال ووصال .

رأت مصر النبات لا يرد اذى .. تجرحه فيداوى جرحه وينمو ..
تقطعه فينمو من جديد وكأنه غفر الاساءة فتعلمت السباحة والطبقة
والودادة والاستعلاء على المحنة ، لتحيا ، ...

قد تشقى مصر ولكن تشفى .

وقد تمرض ولكن لا تموت .

تعلمت مصر من الزراعة **الصبر** .

وتعلمت **النضج المشغول** على مهل من البدر والسقى وانتظار
الثمرة .

تعلمت مصر من الزراعة **الرسم والتلوين** .

وتعلمت مصر من الزراعة **الحرية** لان الزراعة معناها الفائض
الذى يحرر الانسان من معدته ليتفرغ لأعمال أخرى . فهى مرحلة بعد
الصيد الذى يطفى يوما واحدا فحسب .

تعلمت مصر من الزراعة ، بمراحلها الشاقة ، **العمل** .

اقتحمت مصر بالزراعة **العقبة** .

تحررت مصر من الخوف .. ومن الحاجة حين منحها النيل
والوادي ، الرخاء المادى فطمع المصريون واطعموا ..

اكتسبوا **الرخاء النفسى** .. **اقتحموا العقبة** والعقبة هى الحائل
بين الانسان والسعادة أى **العمل** .. وفى اللفظ الذى استخدمته الآية
الكريمة (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو
اطعام فى يوم ذى مسغبة) .

فى اللفظ (اقتحم) معاناة ومجاهدة ومعركة ومن هنا نقدر السفر
الطويل الذى قام به القلب المصرى فى عملية خلق الحضارة بما يتطلبه
هذا الخلق من حسن مرهف وومى نبيل ورغبة حميمة فى الانتصار ،
وحنين الى النمو والارتقاء يقدو طبعها وطابعا .

وتتألق شخصية مصر .

شخصية ولوع بالولادة والتوليد .

شخصية فيها نزوع الى الملاسة والسلاسة فى همس يبلع
بالخفوت قوة التوثيق .

شخصية فيها حنان فى حنايا الأعمدة وعروق النبات ، ونميمة فى
الفن الاسلامى المصرى فاذا بالشبابه والتشابك ليس بينهما فراق أو
شقاق .

شخصية فى قلبها سعة يوحىها التقسيم .

ودعة يهديها صبر طويل ورحيم .

شخصية فيها ثراء البساطة وزهد الفنى وجلال التواضع من
طول العهد بالوفرة والكثرة ..

وسكينة من مسالة وسلام .

وبالعمل والنجو والسلامية والسماحة تهيأت مصر لأفق المعنى .

أعطتها الوفرة نعيم الاحساس وطمأنينة الرضا فشكرت ...
وأعطتها الوقت فتأملت ..

ومن احساس الشكر ومداومة التأمل اهتضت الى النعم خطوة
خطوة ، من خلال المحسوسات شهدت الصانع فى أعماله .. ثم وصل
بها النضج الى التجريد كما فعل العظيم اخناتون .. بل أن مصر ، قبل
اخناتون ، تصورت الاله فى روعة فائقة ..

واذ تطلعت مصر الى الله ، أشرق عليها نوره وبارك لها فى الرزق
وازدهر الوادى وطابت فيه جنات وعيون فتفتيات مصر الظلال واستأففت
العير ، وطربت للحرير ففنت وترنمت بل استوحش الشعر ، وانطبع
على النغم اذاغنت أو تكلمت . ومن هنا حبها للطرب والتطريب . ومن
هنا عذوبة اللهجة المصرية .

هنا على هذه الأرض نضج الإنسان

والنضج وعى

والوعى سعى

انه تحريك القوى فى كل مجال .

وهذا بعينه ما حدث فى مصر .

من الناس من يتهمون الزراعة بأنها لا تدقق فى الوقت . ولكن
مصر الزراعية لو كانت لا تدقق فى الزمن لما أثمرت حضارة مصر هذا
الطرح المختلف الألوان من الانجازات الرائعة مما لا يمكن تحقيقه فى
استرخاء ووقت ضائع .

عرفت مصر القيم .

ان همس النبات فى نشأته الأولى وما يبثه حوله من أمان ، كان
له اثره فى الانس الرفيق فى الإنسان المصرى الذى يصفه الدكتور أحمد

أمين من خلال وصفه لابن البلد في كتابه (قاموس العادات والتقاليد
والتعابير المصرية) .

الانسان المصرى الذى يحب الزينة والمتعة والجمال ... يعيشه ،
ويؤخره لنفسه ما استطاع .. حتى القلة فيها نعان أخضر .

حتى ماء الشرب فيه ورد .. فهو ماء ورد أو ماء بالورد .

الانسان المصرى يحب الطرب والسماع .. من النعيم الطويل في
الحضارة .

انسان لطيف أنيس كالنبات

خصيب كالوادي الأخضر

انسان ابن طبيعته ..

والطبيعة المصرية ليس فيها قسوة .

الطبيعة المصرية لا تعرف الزلازل والبراكين والعواصف .

حتى الصحراء المصرية فيها وداعة تبدد الوحشة .

وسرى لطف الطبيعة المصرية ورفقها الى الانسان المصرى فكان
عذبا ودودا كريما لأنه ابن خير يأتى المصريين غدقا ، وهم بما عندهم ،
يفقدون .

ان **الحنو والتراحم** في النفس المصرية يتبدى في الحديث رقة ،
وفي الشعر المصرى القديم دماثة وسلاسة ، وفي النمنمة المصرية
الاسلامية دقة ، وفي الأسطورة المصرية وفاء وعطاء .. فنجد فيها
(القرية) التى يسقى منها صاحبها ولا تفرغ كما تحكى لنا جداتنا .

وابن البلد هذا يسمى (الدوق) وأحيانا يسمونه (ابن الدوق) .

وقد عرف المرحوم قاسم أمين الدوق السليم بأنه الشماع
اللطيف الذى يهدى صاحبه الى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ،
ويتجنب مالا يناسبه . والمصريون يعتقدون ان مصر أم الدنيا وأم
الدوق أيضا ولهذا يقولون :

دا الى عمل مصر كان في الأصل حلوانى .

ويقولون : الدوق ما فاتش باب النصر .

ويرودن في هذا قصة طريفة يرويها بدوره الدكتور أحمد أمين -

تقول القصة ان رجلا كان اسمه « الدوق » كان في منتهى الظرف والكماسة واللباقة .. كريما رقيق الحس والشعور .. غاضبه يوما بعض الناس فعزم على الرحلة من مصر . فلما وصل الى «باب الفتوح» مات هناك وما يزال قبره في هذا المكان الى الآن .. ويعرف ضريحه « بسيدى الدوق » .

ومن أجل هذا قالوا : الدوق لم يخرج من مصر .
كان يموت فيها حيا
وقدر له ان يموت بها راحلا ..
غلاب هواك يا حبيبته .
ياسر القلب والروح معا .
غلاب .

علم النبات الانسان المصرى صناعة **الحصير** فقد ادرك ان النبات عندما يجف يستطيع ان يقيم منه جدارا أو واثرا
فالحصير نسيج نباتى عرفته مصر قبل التاريخ ويبدو انه منذ ذلك اليوم البعيد ومصر لها (نفس) فى النسيج الذى يعد صناعتها الكبرى اليوم .
علمت الزراعة مصر ، **الامتداد** والاستشراق الى اعلى كنخلة النيل .

وعندما زرعوا استقروا .. وعندما شعروا بالاستقرار صبروا عنه معماريا فى الأعمدة الضخمة الثابتة فى الأرض الممتدة فى السماء كالنخيل حولهم .

ان الفن المصرى فيه رؤية نباتية

فالفنان يجعل أعلى العمود حراما وكأنه يحزم ادراك المشاهد فى عملية تركيز للتأمل وكأنه يحزم سعف النخلة لتفسيخ للرؤية رحابة السماء . أما السقف العريض للعمود فهو يمثل شواشى البوص .

وهذا هو الفرق بين الفن والبدعة . فالخلق الرصين **امتداد واع** لأصل عزيز يراعى الفنان الحفاظ عليه فى شعور حساس بالتواصل والتلاحم فى عملية صيانة للنفس وسلامة نموها .. أما البدعة فهوس مفاجيء .

وعلمت الزراعة مصر ، **الفصيلة** فبدون الوفرة يتهدد الجوع الأخلاق .

ان المجاعة الحديثة مؤشر الى ان الزراعة هى موضوع المستقبل كما كانت موضوع الماضى .

لقد ظمئ الانسان منذ بدء الخليقة الى اثنين :

الحب والرى (اى الماء والطعام) .

وعلى هذا الظما ولد الفن خطوطا فى الكهوف ، وتعاويد للسحر .
ونما الفن ينمو الزراعة فتألق فى الاناء ، وتألق فى الحلى ثم فى وسائل الحياة اليومية .

والأواني المصرية ما قبل الأسرات فيها حسن له روعة خاصة . .
فيها العطاء الناضج لفن الاناء . فيها القلب البشرى ينبض لم يلحقه بعد ، سام آخر الحضارات .

الاناء المصرى من باكورة معطيات الزراعة المصرية . وهو مستودع الصمت . . ولهذا يعرف الأدب الشعبى المصرى ، الایجاز مع وفاء المعنى بقوله : (**كلمة وود غطاها**) مستوحيا الاناء وغطاءه المحكم الذى يرد على القاعدة فى تمام أنيق .

وهذا ابلغ من البلاغة المدرسية التى تعرف البلاغة بأنها (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) . . وهذا عمل مخبرين لا فن فيه .

يكفى على الخبر ماجور

غطاء آخر محكم من عالم الاناء .

وتعلمت مصر من وادى النباتات ، **البثل والعطاء**

— اللقمة الهنية تكفى ميه

— لاقينى ولا تغدينى

عطاء الطعام وعطاء الوجه

وكلاهما يؤلف القلوب ويزرع الحب وينميه لهذا عاشت مصر عائلة متحابه .

لا يقول شعب مثل هذين المثليين الا اذا كان يستشعر جو الأسرة ..
يستنشقه هواء يعيش عليه .

هذا هو الشعب المصرى او هذه هى طبيعة البلد ...

اناء واسع للماء الكل يشرب منه هو : النيل

ومائده واحده الكل يطعم منها هى : الوادى

— يا نعيش سوا يا نموت سوا

من تعلقنا بالركب تعلقا شديدا ، قلنا هذا المثل . والركب فى مصر محبة بما تربط بينها وبين النيل . والركب لا تتحرك براكب واحد .. ان ركبها جمع يلتقون فى الرحلة والمصر . يصلون سالين الى الشاطئ او يغرقون .

وانتقل المثل من الركب الى الحياة ففهموا معنى الوحدة وروح

الفريق ..

وتواصلوا وتواصلوا فاستمرت الحضارة المصرية بغير انقطاع لان العمل كان امانة تربط جيلا بجيل وكان مصر أسرة واحدة وان تعددت اسرات .

حتى الاناء المصرى يمثل الوحدة . فحين نجد الاباء الفارسي عبارة عن صور على الاناء نجد الاناء المصرى هو اللون والرسم . وحدة صفة مصر التقليدية .

الاناء والنسيج هواية مصر وفنها منذ العصر الحجري .

ان الاعجاز معجزته جمع النفس حول مركز

والمصريون القدماء عرفوا ان يجمعوا أنفسهم جميعا حول مركز لا فرد فحسب .

ان الزعامة للممة الشتات ..

تعلمت مصر من الزراعة : الحب

فالمصريون احبوا كل شئء حولهم : النيل والركب والارض والسماء .. النبات والحيوان فغنى لهم الشجر ، وسهر معهم القمر ، واعطاهم النيل الخير كله .. فعاشوا اى عرفوا كيف الحياة لا كمها .. وابدعوا الفن واعطوا بدورهم الحضارة .

أحب المصري القديم الأرض حبا جما حتى جعلت أغانيه شجرة
الجميز تنادى المحبين :

(تعالوا الى قانا لا أقول ما أرى ولا أحب الثروة) هل سمعها
حقيقة أو أحبا فشبها له .

وكم في مصر القديمة من أغان للزراعة والحصاد .

على كل حال لقد علمت شجرة الجميز ، المصري القديم **الصمت**
والهدوء لأن الشجر يعمل وينمو ويعطى عطاءه في غير ضجيج .

وأقول علمت الزراعة ، **الصمت** ، المصري القديم . .

حتى في الفول يصف الحب حبيته بقوله : (حلوة الشفتين عندما
تنطق بهما لا تنبس بكلمة فضول) .

بينما المصري الحديث يحدث ضجة كبيرة اذا عمل عملا أو حتى
اذا صمت . . ومن الناس من يصمتون بصوت عال .

ان الصمت درس مصر الكبير . ومن الأدب المصري في مخاطبة
الاله :

انه أنت الينبوع العذب

الذي يروي الظما في الصحراء

مفرح ابن يلوذ بالصمت

لقد جعل الله الصمت في المسيحية برهانا على رسالته ومعجزة
لعيسى عليه السلام اذ قال (رب اجعل لى آية ، قال آيتك الا تكلم
الناس ثلاث ليال سويا) .

ان الالهام الفطري مدد من روح الله .

أحببت مصر الأرض حب من يفالى بحبه ويعزو اليها الخير كله .

حين حضر المأمون الى مصر أصرت سيدة في إحدى قرى صعيد
مصر أن يزورها فلما فعل قدمت اليه الطعام في صحاف من الذهب
غطاؤها من الذهب أيضا . . فذهل الخليفة وقال لها :

— من أين لك هذا ؟

فحنت على الأرض وقبست حفنة من ترابها وقالت : هذا من هذا .

لا أدري ان كان ضيفها فهم عنها اشارتها الدكية أم لا ولكنها أدت .

— انه تراب مصر الذي يورك فيه .

وحين زرعت مصر أحبت الطبيعة ووصلت بين الإنسان المصرى وبينها . أحبت أرض الخير فأغلت ثمنها وسجلتها . وفى سقارة حجة مسجلة للأرض من الدولة القديمة .

وفى الدولة الحديثة نسختين من حجة واحدة .

والوصف عندهم يحدد القبلى والبحرى والغربى والشرقى .

ان أرضية الهرم مستوية استواء تاما دليل معرفتهم بالمناسيب .

ويتجلى علمهم بعلوم الأرض فى مقاييس النيل .

وتوجد بين قفط والقصر اقدم خريطة جيولوجية ومعنوية معروفة فى العالم تبين الوديان ومواقع الآبار ومواقع مناجم الذهب .

ومن الحب ، العلم .

ان الهتاف وطنية البسطاء ، ولكن الوطنية الحققة علم بالوطن ،
واضافة اليه ، ووعى به ، وتجاوب معه فى الشدة والرخاء على السواء .

ان تمثال خفرع المنحوت من الديوريت مأخوذ من منطقة تبعد عن
(ابو سمبل) فى الصحراء الغربية عدة كيلو مترات .

ما دلالة هذا ؟

علم بطبقات الأرض وأبعاد المكان ثم طاقة الإرادة على بلوغه ،
وطاقة القدرة فى استعماله .

لقد استخرج المصريون القدماء البلور الصخرى وعائلته من
عقيق بمانى وعين القط وأمانست ، وصاغوا منها أجمل أنواع الحلى
فى العالم مما يعد نموذجا رفيعا الى الآن يسعى اليه للاقتباس منه ،
صاغة العالم .

لقد انبتت الزراعة فى النفس المصرية من المانى أضعاف ما انبتت
من حبوب .

ان الزراعة هى صناعة العصر القديم .

ومصر الزراعية هى مصر الحضارة . .

وطرحها بعد هذا فى الصناعة والعلم والفن والأدب والدين انما
هو فيوض من عالم النبات وعطاء .

واذ عرفت مصر الزراعة عرفت **الاخضرار والازهار والازدهار** .. عرفت الجسوبة والنض والقلق الخصب والانتظار لموعود والصبر الوائق .. من نشأة النبت من البذرة الصغيرة بمراحل نموها في رفق وهودة ، فأثر هذا الأسلوب في فهم الحياة ورعاية ادراكه لها ، وامرى ذلك الاسلوب : **البساطة .. والاكتمال .. والعمق** .. عرفت **النضارة** والغضارة والفندرة .. عرفت **التفتح والمطاء** .. عرفت العمق كالجذور الضاربة في الأرض ، **والارتفاع** كالجذوع الصاعدة في السماء .. عرفت **الاعمق والأشواق** فارتفعت المسلات ثم المآذن استشرافا طموحا مايلبت ان يتجسد على الأرض عمائر ومناظر وعلوم وفنون وحكمة حتى **الصخر تحول في يد مصر الى حجر كريم** اذ نقشته ولونته وشحذته بالمعنى والرؤى فخف وشف وكاد يبين .

اتاحت الزراعة لمصر ان تتلمى رقة **الفجر وطلعة النهار وفروحه النور** .. واذا تلو الشمس في السموت ، ويمعق الصمت ، تتعلم النفس المصرية ارتفاع العظيم على اللغو ، وابداع الجميل في الوهج ، وامتناع الغنى بالقيمة ، واتراع السخى بالمطاء .

اتاحت الزراعة لمصر ان تتلمى رقة **الفجر** يغسل القلب من اتراحه ، ويغمره بأفراحه وبهبه النقاء كقطرة ندى ، والهففة كنسمة شدا ، والرفرفة كمصفور هم بالتحليق ..

اتاحت الزراعة لمصر ان تتعلم **الكثير** واباحت الزراعة لمصر ان تشهد الصبح اذا تنفس فتسعد بيوم جديد وأمل وليد ورزق ونعمة .. وتتعلم **الحمد على المنة ، والشكر على العطية** . والشكر يستجلب الزيادة وما أكثر ما شكرت مصر بالعمل والصلاة وما أكثر ما زادها الله فضلا وفيوضا وتوفيقا وصدقا وتصديقا .

علمت الزراعة مصر **التلوين بالنور والظلال** ، والميل كالشمس نحو المغرب ، **والاعتدال** كالشمس في رابعة النهار ووهج الظهيرة ..

علمت الزراعة مصر **مزج الألوان** كزهر الرياض وأفراح الاصيل .. علمتها **الديب** كالنبنة تخرج من الأرض ، **والوجيب** كالحفلة تخرج في القلب .

علمتها **الهمس** كوشوشة الربيع للآزهار ، **واللمس** كبسمة العين للنوار ...

علمتها **الراحة** بعد التعب كما يستريح النهار وبريح بعد يوم

مكدود وعمل مجهود ، **والاسترواحه** بعد الجد كما يستريح الليل
والسمار واهل الهوى نسوا مواجعهم وفاتوا مضاجعهم ..

ويأتى الفن المصرى فيعبر عن الحركة والسكون .. ويستقيم
الخط ويستدير ويتأفق ويتراس . وينساب ويتحفظ وهو فى هذا
كله يعبر عن اصحابه صناع النهار كما عبرت عنهم القصة والاسطورة ،
والقصيدة والترتيلة .. ويمسك تراث مصر رواقه .. ويوسع آفاقه
حتى تغدو الحضارة له طبعاً وطابعاً .

وتمر السنين وتتعاقب الفصول الزراعية فيعرف الناس
منها العدد يتلقين مصر التى ابتدعت **التقويم** وتغيب عنهم حكمة التغيير
والتحوير والبقاء والفناء والعارض والدائم ... ويحكم الناس بالكم
وتحتكم مصر الى الكيف .

وبعد الحضارة المصرية يرفع الغرب ناطحات السحاب فاذا بالكم
فيها وله تأثيره ، لا يحظى بسحر الدقة الدقيقة فى الترسيع المصرى
وحساسية **الاتجاه** فى الهرم وابى الهول ، وانس العمارة فى معابد
المنحوت ومساجد مصر الاسلامية بقدر محسوب لانه اسلوب حياة
طويلة **روية بالدين والتقنين والمعنى .**

علمت الزراعة مصر بالمراقبة بدءاً من الحبة وانتهاء بالثمرة ان
الحياة الخصبه خط صاعد وصاعد ... عميق وموجب ... نشيط ومتفاعل
... حى ودؤوب ... مترابط واصيل ... آخذ ومعطاء ... ودود
وولود ... عامل بنفسه ومتحد مع الكل فى ايقاع متناسق متكامل
وبديع .

علمت الزراعة مصر ان كل هذا يتم فى صمت مستقر وقريب من
احساس كبير بالرضا والمقابل فى النهاية ، بقدر العمل محسوباً وعادلاً،
بل كريماً مجزياً ومجدلاً كسنا بل القمح أو عيدان القصب .

لم تعد النفس المصرية **ريكة** تتوسل بالبدائيات بل رقيقة
تنشد الزينة وتحلى وتتعطر .

ان الزراعة علم كبير . كثير من المحاصيل التى نعيش عليها من
الفصيلة النجيلية ثم ثقفت واستؤنست .

لقد عرف المصرى الكتان وفى وقت سحيق حين اكتشف اليافا

في بعض النباتات .. ولكن اغنيتنا المسطحة لا تعطى شيئا لأنها مع الشاطر تروح القناطر ثم لا ترى شيئا لان المدرسة عندنا هوائتها التعليب .. مدرستنا تحشد المعلومات وتحشر القضايا في العقول الصغيرة بالتلقين المجرد المكرور كما تملب المصانع السردين بعد ان عزلته عن الحياة في عرض البحر ...

ان تفتح المدرسة على الحياة وتوصل النظر بالتفكير والنظرية بالتطبيق ، تعرف بهجة الكشف وصفاء المنبع وخبرة التجريب .

ان تخلص المدرسة من التلقين ، والحكومة من الروتين ، والمجتمع من السلبية والانتهازية والغيبية ، يثبت الامل في الاصلاح ويكون انبائه الزراعة الجديدة التي نفتح بها على عالم رحيب كما كانت الزراعة القديمة منطلقا وعمارة في الحقل والعقل معا .

ولكننا افقرنا الفلاح مرتين :

ماديا حين افقرنا الأرض .

ومعنويا حين افقرناه هو بالغبين والتحقير فان النظرة الاجتماعية اليه الموروثة من الأتراك تصمه بالتأخر كما تسم الريف كله بالتخلف والانتكالية .. ولا سبيل الى رفع الفلاح أى رفعا الا برفع حياته البيئية ليرفع تفكيره ويرفع تصرفه بالتالى .

ان المدينة تصرخ من هجرة الريف اليها .. ليس هذا دليلا على انه اكثر ذكاء واكثر نشاطا واكثر طموحا .. حتى طفله نجح طفولته فلا ملاعب ولا مدارس حضانة ولا عناية صحية كاملة ... مع أن أى نقص في النمو الفكرى أو الجسمى يندر تعويضه بعد هذا .

لقد ركزنا الاصلاح فى المدينة ونسينا ان الاصلاح يبدأ من الريف .. لأن الاصلاحات اذا بدأت بالمدينة جذبت الناس خارجها اليها فيزداد الضغط عليها حتى تنسوء الاصلاحات المتحدثة ثم تنهار ..

ولكن تحسين الريف يستبقى أهله فيه بل يجتذب أهل المدينة اليه بعض الوقت على الأقل ..

لا سبيل الى رفع الريف الا بعقد صلات حميمة معه بدلا من مراكز الخدمة التى تبني على حافة القرية ومن واجبها ان تنغمس فيها، معه ، من الداخل .

لقد عقدنا الفلاح حتى أصبح يربى ابنه ليبعده عن الزراعة . وكان من الطبيعي أن يعلمه ليعطى الأرض أكثر بوساطة العلم . وكم في علم الزراعة الحديث من فتوحات .

نحن جملنا من ريفنا موضوعا للشعر لا للدراسة والعمل .
ان حضارتنا زراعية والزراعة اصل الايمان والفضيلة . **ولامر ما كانت حضارة مصر الزراعية حضارة ديئية** نقلت الى المجرى من عدل وحق ومعروف وتوجت هذا كله بالنفاذ الى الوحدة لان الموفور عنده الوقت للتفكير وللقيم العليا .

ومن هنا كانت الزراعة نماء وبناء واملا محققا .

ولكننا تجاهلنا معنى الزراعة وقيمة الزارع وغطينا هذا كله باغنية خادعة او مخدوعة ثم **لحنا الخضاع ..** وقلنا (ما حلاها عيشة الفلاح) !!

علمت الزراعة المصرى كيف يصنع

زرع المصرى فابتكر القاس ، والمنجل ، والمدراة لفصل التبن عن الحب ، والشادوف للرى ورفع الماء الى الأرض العالية ، والبلطة لتنظيف الأرض من الحشائش ، والسكين ، ومجارف ، والجبال لمسح الأرض ، ومكايل خشبية ، ومضارب ، وآلات النحاس ، والجرار .

كل هذا عثر عليه فى آثار الدولة القديمة .

زرع المصرى فمرف الطهى وتحضير الطعام .

عرف الطحن وصناعة الخبز بل الحولى .

عرف البناء من الطمى ثم تطور فأصبح من الاجر (الطوب الأحمر) ثم الحجر .

من سعف النخيل صنع السلال والفراثيل ، والحصير ، والشباك للصيد والنعال والفراجين .

جفف الفاكهة وعصرها واستخرج الجعة (البيرة) والنبيذ . واستوحاها مع الأزهار فى الزخارف والرسوم .

عرف الصباغة والدباغة .

عرف التجارة والحرف .

صنع القوارب .

وصنع الأثاث من شجر التوت والبندق والجوز والخروب .

ومن الصفصاف صنعوا (المشن) التى نسميها اليوم (المشنة) .

أما شجرة الجميز فهى عندهم ظل وثمر وخشب ومادة لبنية استخرجوها من لحائها واستخدموها فى علاج بعض الأمراض الجلدية .

ومن الجعيزة صنع تمثال شيخ البلد الهوى كتب عنه (مسبرو)
يقول :

(لو ان معرضا فتح في مكان ما لتعرض فيه روائع الفن في العالم
كله لكان هذا التمثال واحدا من التماثيل التي ابعث بها اليه تمجيذا
للفن المصري) .

زرع المصري فاستخرج الزيت من الكتان منذ عصر ما قبل
الاسرات لأغراض الغذاء والتدليك ومركبات الروائح العطرية ، وللأضاءة
ولزوم الطقوس الدينية في المعابد .

واستخرج زيت الزيتون واستخدمه علاجاً للكبد ودهانا لتقوية
الشعر وكذلك في الأضاءة .

واستخدم زيت الخروع في الطب والتدليك وعلاج الاورام والبثور
وزيت الخس في الطعام والتدليك والطب وعرف خواصه في تقوية
الجسم .

واستخرج المصري من ازهار الحناء زيتا رائحته نفاذة استخدمه
في صناعة العطور وفي التحنيط كما استخدم الحناء في تخضيب الأيدي
والأظفار والأقدام وصبغ الشعر .

وقلد اليونان والرومان مصر فاتخذوا اكاليلهم الجنائزية من
الحصان الحناء المزهرة .

عرف المصري الدباغة والصباغة .

استخرج العصفور من القرطم واستخدمه في صباغة المنسوجات
الحمراء والصفراء .

واستخدم بدور شجر السنط في تثبيت الالوان وفي الدباغة .

واستخدم نبات النيلة في صباغة المنسوجات الزرقاء وفي الحبر .

زرع المصري فعرف النسيج منذ عهد بعيد فمن مأثورهم ان
ابريس نسجت وغزلت وبيضت .

وحين تطلع الى النسيج اخترع المفلول والمشط والنول والبكرة
والمكوك .

وبرع المصرى فى النسيج براعة فائقة فقد عثر فى أحد قبور الأسرة الحادية عشرة على اقمشة كتانية ذات طيات (بلسيه) .

وفى أحد قبور طيبة من الأسرة الثامنة عشرة ثلاثة نماذج كتان ذى طيات متعامدة فى غاية الدقة والابداع .

وكان النسيج المصرى يصنع النسجة موشاة بصور ملونة .

وقد وجد كتان موسى بأسلاك الذهب فى قبر تحتمس الرابع بطيبة . كما وجد كتان عليه شغل ابرة وتطريز فى قبر توت، عنخ آمون .

وكتان يشبه الحرير فى الدير البحرى .

وعثر فى سقارة على رداء من الكتان مذهب محلى بمنظر من الأساطير الدينية .

بل عثر فى الصحراء عام ١٩٤٧ على مخلفات من منسوجات و سلال وحبال واثار نباتية يرجع تاريخها الى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد .

وتبين من فحص المنسوجات أن بعضها **مصنوع من القطن** .

ولم يكنف المصرى بالزراعة على خيرها بل طمعه الى غيرها . أن ارض مصر المعطاء عندها أشياء أخرى غير النبات .

شكل المصرى القديم ، الشظية وعرف النحاس واستخرجه من سيناء .

وابتكر الأسس كلها التى تقوم عليها صناعة التعدين .

و متحف العلوم فى لندن ، يشير الى أن **جميع الصناعات تبدأ بقدماء المصريين** : النسيج .. الفخار .. الزجاج .

لقد أرسل الملك أمنحتب الرابع آخر الأسرة الحادية عشرة ، بعثة من عشرة آلاف نفس للبحث عن المعادن .. ما دلالة هذا ؟

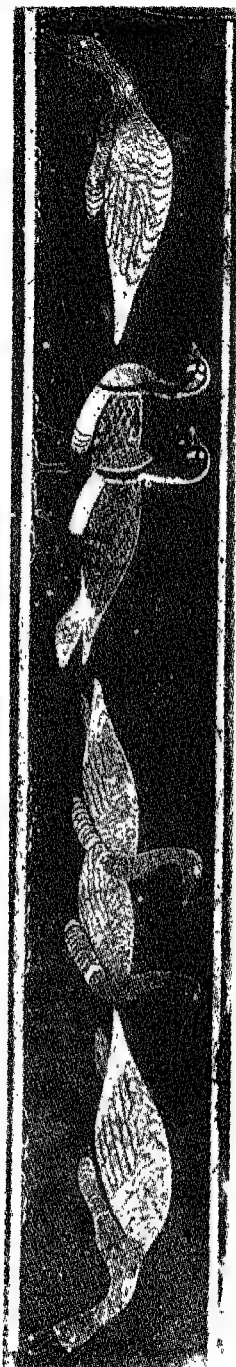
أى ادارة وراء هذا العمل خططت وسيرت ووفرت المؤن والماء والوسائل .

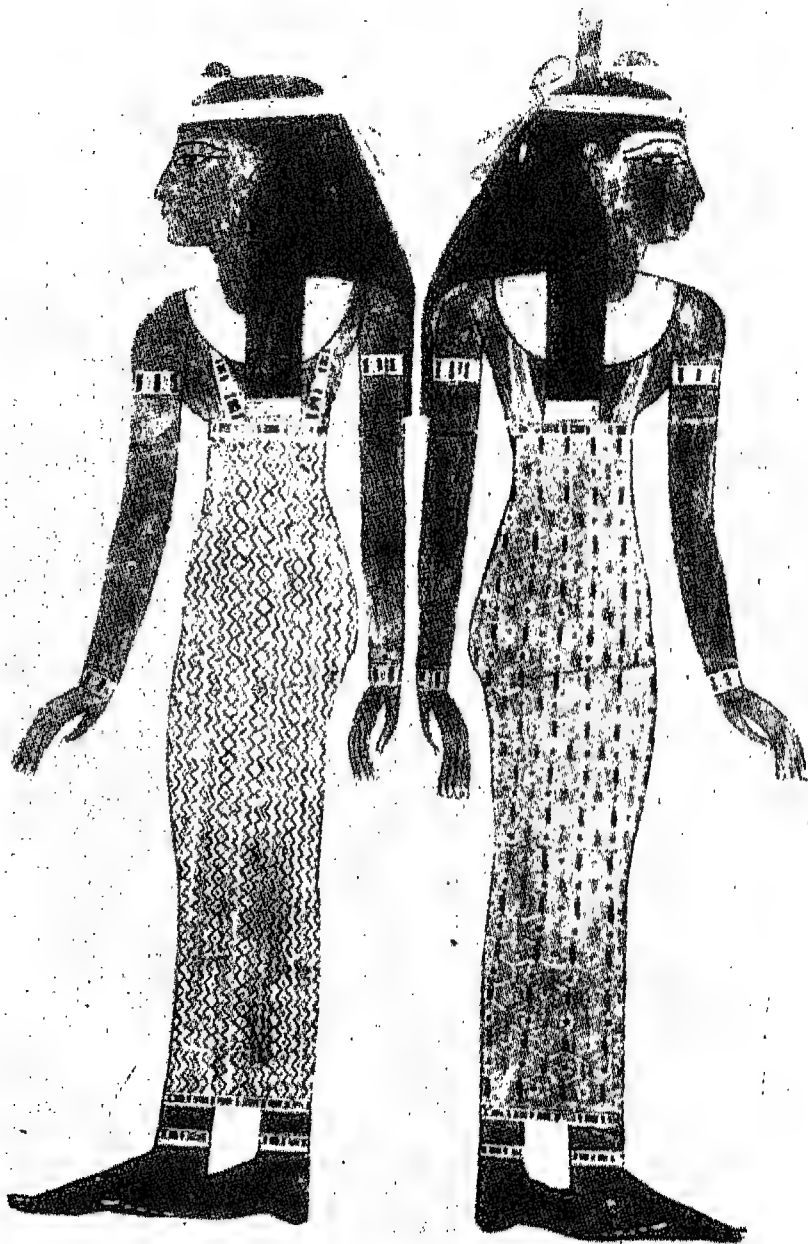
واستخدم الجيش المصرى أقدم سلاح مصنوع من المعدن (النصل العريض المثلث الشكل ، ثم نصل رفيع فى وسطه خط غائر .

استخدم المضرب على هيئة قرص ثم أصبح على هيئة الكنثرى استخدم الحرية المصنوعة من النحاس .

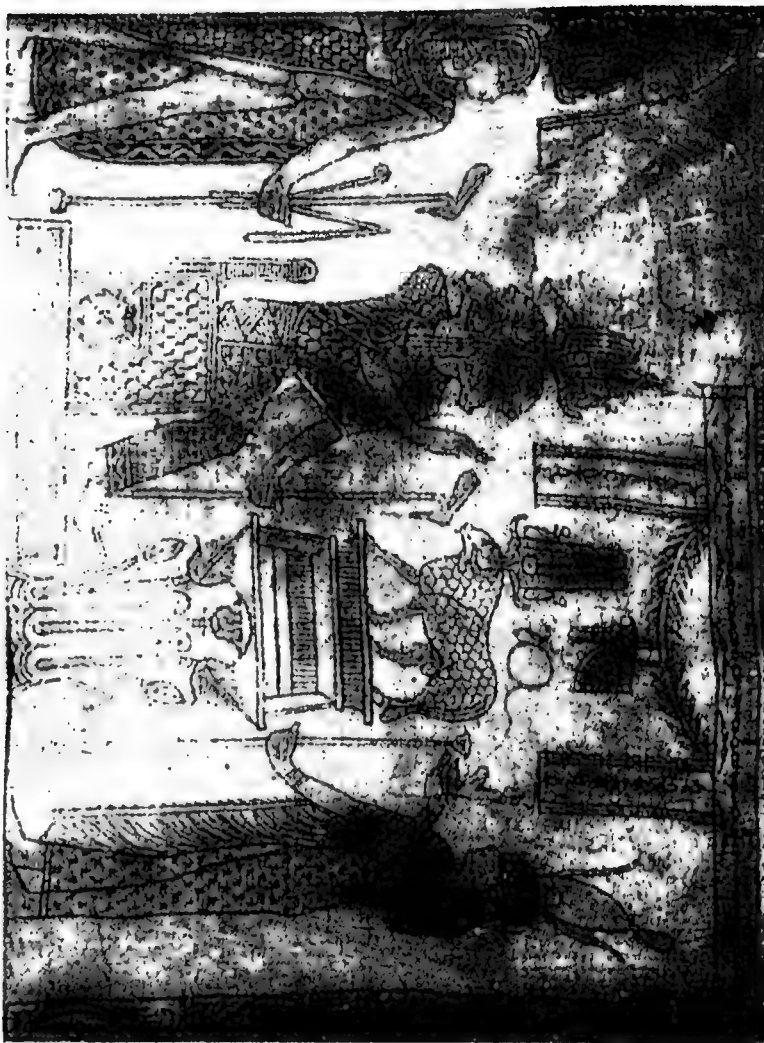
والدبوس المذهب الطرفين .

وز منجوم ، وهو عبارة عن ثقبين كان منيلا بأحدى طائير منجوم -
الأكبره الأربعة





نوبان من الخزف



لوحة تصور في شكل الزينة



سيدة من الدولة الحديثة ومن خلال
التمثال يرى الزي وتسريحة الشعر التي
كانت سائدة في ذلك الوقت

والقوس والسهم وعصا الرماية .
ومتى ؟ فى مستهل الأسرة الأولى أى منذ عهد مينا .
واستخدم الجيش المصرى النغير (البوق) لاصدار الاوامر
وتوجيه سير القتال .
وابتدع المصريون انواطاً وشعارات من الذهب لتكريم اصحاب
الاممال البطولية كما ابتدع المصريون بلطة صغيرة من الذهب تهدى لكبار
القواد وهى تقابل سيف الشرف فى العصور الحديثة .



زرع المصرى فعلمته الرامة صناعات حضارية مثل صناعة
الورق .
وصناعة الطب الذى بلغ فيه شأوا بعيدا حتى بلغ من أمر المصريين
فى الطب أن حتموا على الطبيب أن يكون قوى الإيمان ، طاهر القلب ،
حسن السيرة .
ولا يمارس الطب الا الحاصل على شهادة علمية تثبت كفاءته .
وكان الطبيب يعلق على منزله شعار الطب (الكوبرا المقدسة
رمز القوة والتمكن .

يقول وادن داوسن .
(ان المصريين يتمتعون بأعلى سمعة فى كفاءتهم الطبية ، ان حكمة
المصريين تتمثل فى «الامثال» ، ولكنهم أيضا ذوو مقدرة فى الفلسفة
الحقة والعلوم النظرية ، والتجريدات . وبقينا انهم اناس موهوبون لهم
مقدرة فذة فى الانجازات العلمية . ان أسس علوم الطب وضعت فى
مصر منذ أكثر من خمسين قرنا بما لا يدع مجالا للشك) .

ويقول ر . و . سلولى :
(لم يعد خافيا ان علوم الافريق التى عرفتها الدنيا ليست من
ابتداعهم ولكن أولئك الذين كان بهم ظمأ الى المعرفة والرحلة فى سبيلها
اتوا الى مصر . وعلى هذه الأرض راوا المصريين فى مواقع العمل وراهم
ما راوا .

هنا على هذه الأرض وجدوا القواعد الأولى فى الرياضيات والعلوم
التي قاموا بنشرها اخذا منهم .
فمن خلال الافريق وصل تراث مصر الى باقى العالم .

شخصية مصر - ١

دخلت مصر على الصناعة ، بقيم الزراعة الروم فديت الروح في الآلة ، هنا لانفد صماء جامدة تعدى صاحبها بالجلود والتجمد وجفاف العاطفة فيخرج العمل مرقوما بلا احساس .

اذا دبت الروح في الآلة رف وترهف عطاؤها من استجابة للقلب رهيف بحركها ويستمنحها وهنا يكون العمل منحة منها ومنحة لها .

اذا استطاع العامل أن ينفث في الآلة من روحه خرج العمل يحمل بصمته هو وسره كما تتجاوز المشربيات والمرقشات في الفن الاسلامي ولكل شخصية وهوية وذوق خاص ..

هنا لا تضيق انسانية العامل بين التروس ولا تهدر آدميته كلبية حين تغنى عنه الأزرار والميكنة .

ان تدب الروح في الآلة معناه أن ترتقى في استعمالها فلا نغلظ معها ولا نعنف في تشغيلها ولا نطوحها اذا فرغنا منها ولا نطرحها في امتهان أو تحطيم ..

حين توفر الآلة وقت الانسان وتكفيه الجهد الشاق أو تعينه على الضبط والقياس لى صديق من حته الامواز ..

المجتمعات المتقدمة تعمل على (تحجير) هذه النظرة الى الجماد ولعلنا نراها بعد أن نرتفع بالانسان كيانا وكرامة .. ثم بالحيوان كائنا وحياة . كانت مصر قديما تعطى ميدالية للحيوان الممتاز وتصنع عجينة غدائية لتلقيه .

الصناعة في مفهومنا الانتاج والرقم ولكن ان نصنع ما يصنعه العالم المتقدم معناه أن نتحور ونستغنى ونغنى .. فالكرامة أن تكفى نفسك بنفسك بدون التطلع الى الغير اشتهاؤ أو استجداء أو احتذاء . ان الصناعة بعض قيمنا القديمة وهل فنون البناء والبناء والكساء والأثاث والزجاج والحلى والسفن ، الا ، صناعات ابتدعناها وتطورنا بها تطورات هى اضافات رائدة على مسار التاريخ فلا أقل من أن تكون روادا فيها اليوم أو اصحاب شخصية متميزة تأبى المحاكاة او (النسنة) التى تحدث في اقفاص القروء ..

الف « الفريد لو كاس » كتابا عن (المواد والصناعات عند قدماء المصريين) فخرج في ٨٣٦ صفحة كبيرة !

كانت زراعة مصر صناعة عصرها .

وكانت صناعة مصر ، انبثاقا من عالم الزراعة .

مَصْرٌ الْأَلَوْبُ مَضَارِي

- مجتمع متحضّر متسام
- العمل
- أُحِبَّتْ مَصْرُ الْحَيَاة
- إحساس مَصْرُ بِالْكَوْنِ الشَّامِل

مجتمع متعصر متسام

كان المصري القديم يتطلع الى النيل والحقول . ولما جاء الاسلام
اصبح المصري المسلم يتطلع الى :
الكوثر .. والجنة .

مستمعا الى نداء الآلة الكريمة (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها
أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر
لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى . ولهم فيها من كل الثمرات،
ومغفرة من ربهم) .

النهر والوادي

النيل والنبات مرة أخرى .

لقد شكلت الزرامة فلسفة مصر .

ليست نظريات ولكن :

أسلوب تصرف

وروح تصوف

وفن حياة

ولذكاء شخصية .

ان الايمان الصفة الاولى لمصر فحضراتها منذ البداية دينية ولهذا،
حقى وواجب ان يفرد له الحديث .
ما هى فلسفة مصر ؟

الحجر

الماء

السماء

النور

هذه الأربعة هى عناصر الحضارة المصرية وهى فى الوقت نفسه
عناصر الشخصية المصرية والفلسفة المصرية مع ولع بالرائع ، وتعاقب

بالأعلى ، واستمرء للعمل الجميل يمرى عليها فترتفع الشوامخ من
أعمالها معابد ومساجد وفنوننا وعلومنا وحكمة .

تعلمت مصر من الحجر الصبر ، ومن النور البهجة ، ومن الماء
الرقّة والعدوية ، ومن السماء الرحمة والسعة .

تقطع مصر الحجر فينتفى عنها الضعف ويتأكد العزم ، ويستعلن
الجسم ، وتولد القيمة .

وحين المولد ينبثق الحنان .

وتحتضن مصر العمل الفنى بالزينة والتحلية والتنمية فى لس
يقارب الهمس وهو على رفته توثيق وتحقيق ..

وتترعه بالراح والراحة فيفيض الرى على الحنايا والمنحنيات
تبدو معه الأعمدة فى الهيان كأنها سيقان حية مملوءة بالمصارة
النباتية .

ويخصر كل شىء فى وادى النبسات .. حتى الحجر وكأنه نوع
جديد من الشجر .

وحين تشرع مصر فى التقسيم يسرى التنعيم فتغنى القباب
والايوانات بالنقوش والتمنمة .. ويحلو الشدو على الترديد والتجويد .

ويتسع الصحن فى المسجد كالبهو فى المعبد فى دعوة للنور الخارجى
أن يغمر المكان ، ونداء للنور الداخلى أن يعمر النفس ، فيشف الحس
وتشوّهج الروح .

روح الوجدان المصرى : البناء . ولهذا نجد ابن البلد عندما
يرضى يقول : الله يعمر بيتك .. وعندما يفضب يقول العكس (الله
يخرّب) .

البناء الذى يتمثل فى :

الإناء : انه بناء له جدار واحد يلف ليلتقى أوله بآخره . انه
بيت الزهر .

النسيج : فيه روح البناء .. خيط له طول ويكاد لا يكون له
عرض فتأتى اليد النساجة أى البناء وتعمل من هذا
الخيط بناء له طول وعرض .

الخيط رمز الفرد

- فمن مجموع الأفراد يتكون النسيج الاجتماعى .
- النبيل :** يبنى التربة طبقة فوق طبقة .
- النبات :** يبنى نفسه بالنمو يوما بعد يوم .
- تجفيف المستنقعات :** بناء أو تمهيد له .
- الحكومة :** بناء للقانون . . ان العدالة اذا وجدت بناء كبير .
- العقد :** صفوف صفوف من الخرز . . بناء مرصوص .
- وتشتد الالفة فى مصر بين فنون العمارة والنحت والتصوير والحرف من نجارة وسبك وتزجيج كما تتواصل فى الحضارة المصرية لعصور ، ويتوحد فى المجتمع المصرى الجيران ويلتقى الأحباب .
- وتقوم فى مصر اقدم مدنية فى الدنيا (طيبة) الطيبة لتجمع البساطة من فراء النفس المصرية .
- والى بساطة الثرى السرى ، زهد الفنى ، وقوة الأانس بالحق .
- وطمأنينة النفس على الطريق ، وثقة ليس من الغرور ولكن من الايمان بنور النور .
- فى طيبة امتناع عن السهل من وثوق القدرة وعشق للصعب من قدرة اليقين .
- ان فن المشرييات الذى ابتدعه العصر القبطى كان سببه قلة الخشب فى مصر فأحال الانسان المصرى فقر الكم الى غنى الكيف .
- ما أروع ابن البلد وأصدقته حين يعبر عن ذروة ادراك القيمة بالتكيف .
- يقول : انا اتكيفت . ويقصد بالكيف ، ارتفاعه على الكم .
- من الكيف ان تجوهر الأشياء فتغلو .
- ان الكيف هو تلقى رقائق المعانى ومصاحبته حتى تطرح فى النفس وردا .
- وهكذا مصر كما وكيفها .
- لقد شكلت مصر الخشب ، وهو قليل عندها ، أروع ما يكون التشكيل فى تمثال ابن البلد .

وقد عرفت مصر (الكاويلا) وهو مسمار الخشب وهو أحدث ما يعرف الآن في صناعة الأثاث .

وتوسع مصر في العمل من سعة الصدر ، ورحابة الصبر ، وطاقة الخلق والتشكيل ، والإيمان بالجزاء في النفس والمال يتهدى في لغتنا الشعبية في قولنا للمجود : الله يبارك لك .

ليس أسلوب تعبير فحسب ولكنه أيضا أسلوب تفكير من حس بعيد بالثواب والعقاب يحكم الحياة المصرية إذا تكلمت أو عملت .
ففي المعبد والمسجد يخفت الضوء في المدخل لتتنبه مشاعر الرهبة والحساب ويشتد الصمت لترتفع عقود البناء ، وترتفع معها النفس الى قمة .

ان فنون مصر تحقيق لآمال الضمير المصرى فى عصوره الأولى .
ان التاريخ المصرى بكل ما نسيه وكل معاليه .. بمقابلاته وبمناقضاته كاللحن تتفاوت الأصوات فيه ويظل وحدة فنية .
ويجرى النيل .

وتتواصل الحضارة على أرضه ، وتتراسل العطايا من فيضه حتى بعد أن ينتقل الحكم الى غيره فاذا الذى انتقل الصولجان لا الهيلمان ، والحكم لا الحكمة .

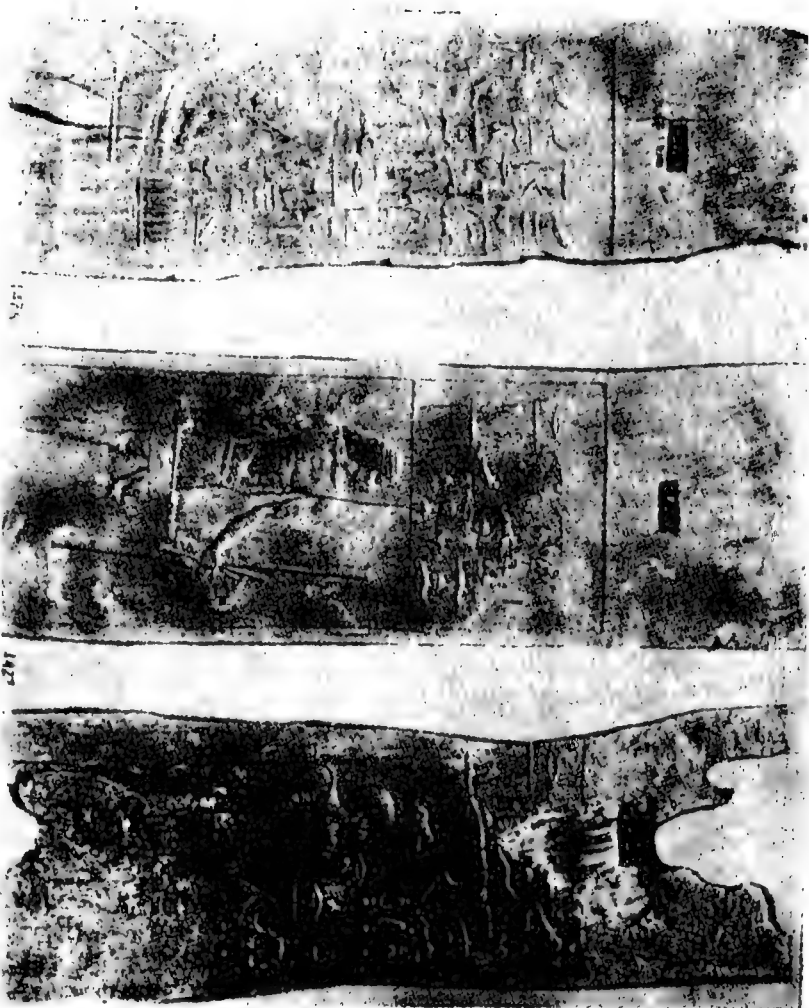
ان نداء هذا المكان يرد على رجاء الزمان ليشفيه من داء العصر وهو جذب الروح . .

داء لا يداويه الا البلد الذى عرف الزراعة تحفيرا للأرض وزراعة للنفس .. زراعة للأثر والحجر ، زراعة للمعنى فى الفكر وزراعة للحب فى القلب ، وزراعة للرحمة تلف الانسان والحيوان والنبات والحياة فى وحدة .

من اثر الزراعة فى مصر ان فلسفتها غير منفصلة وغير مكتسوبة لانها ليست جزئية .. ليست من عمل الدهن وحده بل هى من عمل الانسان الكيان كاملا ومجتمعا بحواسه ومقله وقلبه ودمه وأعصابه على مثال من عالم الزراعة الذى لا تنفصل فيه البادرة عن الأرض أو عن الساق أو الفرع أو الورق أو الثمر .. الكل متكامل .

فلسفة مصر لهذا وبه تألف من عطايا العقل وهدايا القلب وومضات الشعور ويقتطعات الضمير .

انها أسلوب حياة وروح انسان .



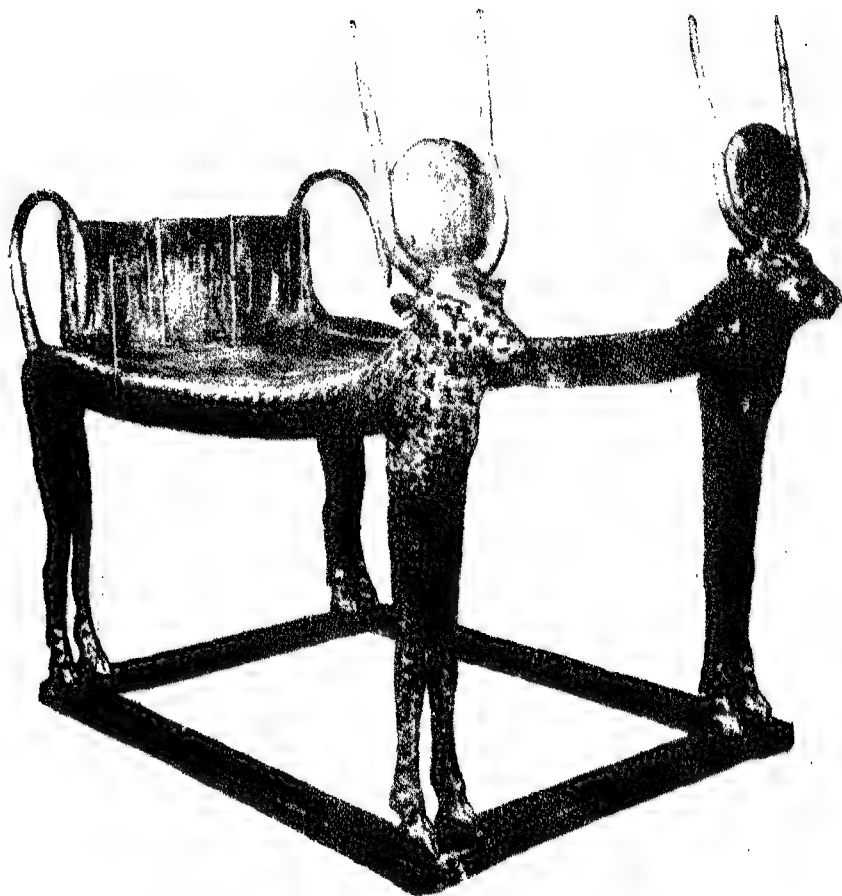
لوحات خشبية من مقبرة حسي رع ومن القبة انه شبل وقلبة طيسا اسنان
وتتيز اللوحات مقدار النماذج بالهوية الهيرغليفية - الأسرة الثالثة



١١٠. من الالهة - الأسرة الثالثة



تمثال شيخ البلد وهو مصنوع من الخشب يكاد ينفس بالحياة



سرير جنائزى من مجموعة توت عنخ آمون بالمتحف المصرى - أسرة ١٨

فلسفة مصر كعصارة النبات لا تتبدى ولكنها موجودة ، ولا تتحدى
لأنها مشهودة فيوضا وطوبيا وارزاقا تجرى بفرد حينها وانتيانا بغير
حساب .

فلسفة مصر سرها خاف لاتصالها بالكون المحيط بنجد به وتتوحد
معه في اتجاهات والتقاءات وتقابلات وتشابهات يحار فيها العقل وحده
فينسجها تارة الى السحر وتارة الى الكهانة ثم يتراءى له من طول
انشغاله بها ان يسقط عليها ألوانا من اشعته . وفي نهاية المطاف يسلم
بأنه ما أوتي من العلم الا قليلا . . وهنا ينشط خيال الانسان ليربح
ويستريح فبنسج الأساطير من عالم جلالة اخاذ ، وذكاؤه نفاذ ، وسره
ناتع .

دريجيء عصر الصناعة ونحن في حاجة الى ان نواكبها للمعاصرة
وللمحافظة على سبل الزراعة **من ثمرات ومن قيم** اهدبا حب الكون
واستلهامه لاننا بزراعتنا وصناعتنا وعلمنا المحدود جزء منه لا ينفصل
عنه بل حياته كامنة في الاتصال والوصل ليفتح لنا ، بالبحث والتفكير .
كنوزه ودخائره .

عرفت مصر الفيم . . كانت مصر القديمة تسمى المدرسة (بيت
الحياة) في ارتفاع على أسلوب التألقين الذي تسير عليه كثير من المدارس
في عصرنا هذا بعد آلاف السنين .

ومن ماثورات الأدب المصري القديم : (ان كتابا واحدا لاكثر
نفعاً من بيت مؤث ومقبرة في الغرب وأجمل منظرا من قصر منيف) .
ومن حكم امينموبى (لا تقولن لا احتمل خطيئة فليس بين يدي
الله ، انسان كامل) .

(قل الصدق وافعل ما يقتضيه فهو العظيم القوي) .

ومن ادبهم النفسى انهم كانوا يسمون اوزوريس امير السلام وهم
يعلمون انه ضحية سبت الذي لم يكتف بقتله بل قطعه اربا .

وفي المعبد المصري حورس يشترك مع سيت قاتل ابيه في رفع
رمز الوحدة !!

انه شعور الشعب المصرى بالأسرية وهو شعور يتسع فيصبح
وحدة امام الملأ ، **وتفقد مصر كلها أسرة** .

وترتفع في عين المصريين على الاشخاص والمداوات . وتصبح وحدة .

امام مصر ، الأعداء والأصدقاء أسرة وهي وحدها الأم والأب .
واعلم هذا في افتقاد أدب الدراما عندنا . لم تتفوق القصة عندنا كأوربا على الرغم من أننا نحب الحكايات . . لأن طبيعة تفكيرنا التكامل لا التصارع الذي هو أساس الدراما .

الملحمة مجلى بطولات يبرزها الصراع الثنائي ولكن مصر حتى حين تنصارع تفتى الى الوحدة . فحروب الشمال والجنوب انتهت بوحدة البلادى ولبس مينا تاج الوجهين .
وصراع أوزوريس رسمت انتهى الى تحكيم القضاء ونصب ميزان العدل .

وهذا الادراك العميق للأمور هو في صميمه بطولة فكرية .
التكامل والوحدة سمة من سمات الشخصية المصرية ذلك التكامل الذى تفتقده الشخصية الأوربية ولهذا تهوى التقسيم والتصنيف .
حتى عصور تاريخها وحركاتها الفنية تتراوح من النقيض الى النقيض كالواقعية والسريرية .
ليس في أوربا تكامل .
عندها الصراع .

وعند مصر التكامل الذى تسميه **اللمة** . . **الغزوة** ومثلها الشعى
شول : (البركة في كثر الأيادي) أى في التجميع .
تاريخ مصر بروى هذا التكامل .

كان فرعون أى البيت العظيم رجل سيف أى دولة
+ رجل قانون أى حضارة
+ رجل بناء أى ثقافة

ومجموع الثلاثة معناه **أمة** .

وهذا هو الفرق بين الأمة والدولة . فالسيف يصنع دولة ، ولكن القانون والحق والخير أى (معات) يصنع أمة .

وهذا تفسير قول شوقي للعثمانيين مع كل بريق الغزو والفتح
(يا دولة السيف كونى دولة القلم .)

وشعور الشعب المصرى بالأسرية ، تنبع منه اخلاقياته وتصرفاته ونظراته في الحياة والناس . وينعكس هذا على آداب وفنونه .

إذا عمل سمي استاذ الصنعة (معلما) والصبي يناديه (يا عمى) ان العمل قرابة ونسب . كل شيء في مصر أسرة .

والأب المصرى يقول لابنه الذى يحمل الكتاب (حافظ عليه كاملا) . في ادراك عال سبيل للام والكتاب معا .

واللغة الشعبية تسمى الرحم : بيت الولد في احساس موروث براحة البيت ودفته وحنائه .

ان الأسرة بمفهومها المصرى الحريق ، بؤرة حضارية يشرب المرء فيها شعورا قويا ومقوما . . رحيمًا ومنعما .

يستشعر الثمانيئة والسكينة والوفاء، اذ يشهد تجربة مثمرة .
أبو بن متفاهمين .

وفي مثل هذه الأسرة يولد الشعور بالالتزام نحو المجتمع الأم .
انها مدرسة لتوسيع حدود الذات ، واكتشاف شقى الوجود . .
يكتشفه كل من الرجل والمرأة في الجانب الآخر .

لا يدل على حنارة شعب من الشعوب أو بلد من البلاد مثل احترامه للمرأة واعزازها . وقد اعزت مصر المرأة واحترمتها بل رفعتها الى قمة حين جعلتها الهة ، وحين جعلتها في معبد سيسى (نقيسة الأطباء) .

وأكبر تكريم قدمته مصر للمرأة :

الدير البحرى في الأقصر

✽ معبد نفر تارى في « أبو سمبل » .

ان من علامات الحضارة المصرية فنون الزينة عند المرأة المصرية .
اراد الدز هكسلى ان يصف العصر الفيكتورى بسيادة الرجل فقال ان البيت الانجليزى كان يضم دائما كرسيًا واحدا ذا مسندين . .
وهذا الكرسي طبعًا للاب .

نظرة واحدة الى حجرة (حنب حورس) ام خوفو نجد سريرا فخما ضخمًا به مكان خاص لراحة قدميها . وفى الحجرة كرسي ضخم ذو مسندين لها اذا جلست ، ومحفة تضاهيه وتزيد عليه في طول المقعد لتجلس وتسترخى اذا ارادت الانتقال من مكان الى مكان . .

ان حتب حرس كانت تتمتع بما لم يحلم به رجل العصر الفيكتوري
الذى يحسده بدوره رجال العصر الحاضر .

حتب حرس هى المرأة المصرية التى ينتقل من خلالها العرش .

وليست لأنها الملكة . فان المتحف المصرى يضم عائلة القزم
التواضع (سنبل) حيث ترى حنان زوجته عليه كحسان الملكة على
زوجها (من كاورع) لا منقرع كما نقول .

حنان المرأة فى الحالين ليس سنادة بل سنبل . انها فكرة المرأة
فى مصر . . انها رؤية مصر للمرأة كشعاع من الرحمة وحفظ لتمام
معنى الانسان مهما بلغ ولو كان ملكا له ملك مصر والانهار تجري من
تحتة .

أنها (تمام) يكتمل به كل من الرجل والمرأة على السواء . لقد
اكرمت حضارة مصر المرأة ولعل هذا سر الحضارة المصرية وتواصلها -
من دون الحضارات .

لم تكرم حضارة فى الدنيا المرأة كما كرمتها مصر حين جعلت :

سشات ربة للانشاء الهندسى والقلم والسجلات .

ومعات ربة للعدل وللحق .

وحاتحور ربة للفن والرحمة اى للجمال والحنان .

وايزيس المثل الاعلى للامومة والوفاء .

وفى المسيحية ركزت مصر على الام لا الصلب .

وفى الاسلام تعلقت مصر بالسيدات الكريمتين زينب ونفيسة
وضمت اليهما سكينه وفاطمة النبوة .

والمرأة بعد هذا كله ربة البيت الذى هو اصل الحضارة ثم هو
غايته بمعناه الواسع ومعناها الرفيع .

فى الأسرة يلمس الانسان الوعى الحى الساهر ، والعزم اليقظان .
يلمس الوحدة بين نفوس متعددة .

الوحدة اكبر من المحبة لان المحبة فى قمته ، ان تتوحد مع من
تحب .

وقد ورثنا هذه الوحدة حتى ليعد قمة التأدب ، قولنا فى المجاملة

(مغيث فرق) . والدم عندنا القول (ابو وشين) فلو الوجهين زائف
لا وحدة في سلوكه .

والنحت المصرى لا فاصل ولا فاصم بينه وبين الجدار . وهكذا
النفس المصرية عندما تتوحد وتتماسك .

والفكر المصرى من طبيعه الحفاظ . . فهو يحافظ على قديمه مهما
كان جديده . لقد ظلوا يقولون ملك الوجهين حتى بعد ان توحدت مصر
وصارت كلا واحدا . وفى المعبد المصرى ، مقاصير الشمال يقابلها فى
الجانب الآخر مقاصير الجنوب .

انها الوحدة المصرية عبروا عنها بالحجر متساويا ومتساويا
كالشعر .
وانه **الوعى الاجتماعى .**

والوعى الاجتماعى تعلمته مصر من النحت . ان المثل الذى يقول
(التعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر) مثل مصرى لا يقوله غير فنان
نحات .

والتذكر صفة مصرية قديمة . رهي التى ولدت الحاجة الى
الكتابة ، والنقش فى الحجر ، كى لا ينسى المصرى . وفى لفنا اليومية
لفظ (قيد) بمعنى اكتب واحصر حتى لا يهرب المعنى .

لقد أدرك المصريون برؤية داخلية بصيرة ان الحضارة تحتاج الى
زمن . . استمرار . . حفاظ .

ان الحضارة لا تبنى فى جيل . هنا **اخترعوا الكتابة** حفاظا على
الفكر من الضياع والنسيان ، **والعمارة** حفاظا على التاريخ من الاندثار ،
والتحنيط حفاظا على الجسم من البلى .

ومع هذا الحفاظ كله ، مصر قادرة على التطور .

لقد **احبت مصر القديمة الحياة** حتى فكرت فى الخلود ، وآمنت
بالبعث ، وجعلت المقابر والمعابد حافلة بصور الحياة ، وكرهت الموت
حتى عبرت عنه بالرمز والكتابة .

ولكن مصر المسيحية حين وجب الفداء ، احبت الموت حتى انكرت
الحياة ، واستشهد فى سبيل المسيحية ابرار ستهبى شهادتهم رمزا
للايمان .

فمصر قادرة على التكيف والتطور حتى تبلغ به الى اقصى المدى الذي يبدو للظاهر : مناصفا وهي في الحالين تبع عن اصل واحد هو طبيعتها السمجة العابلة للتطور . .

ان المصري الاسـبل دائما يعطى نفسه للمية . فهو عندما يكون غالبا مستقرا يعطى نفسه للفن . وعندما يكون جريحا مهيبا يعطى نفسه للنصر أو الشهادة .

ان شهداء المسحجة قد اعطوا انفسهم لمعى . . وقد ادركوا هذا جيدا ، وفقدوه ومن لم غنوا وهم في طريقهم الى المفصلة .

وفي الاسلام عذب ذو النون والبويطري فيمن عذب من رجالنا في الدولة العباسية .

لقد ادركت مصر حكمة تفتيح عن كثير من المربين وهي ان الانسان لا تستقيم حياته ما لم يكن في طريقه الى شيء . . أو يشارك في عمل رائع . . **اي هدف يشير الانبهار** . هذه فلسفة مصر ثم المكنونة .



ومصر تحب الحب . . تحب الوفاق .

ان افوال الرامب المصري (اصطلاح مع نفسك بصطلاح معك العالم .) يؤكد جنوح مصر الى السلم ، وميلها الحميم الى **الوفاق** . فالصالح مع النفس هو التوحيد فلا اقسام ولا تشتت ولا عراك داخلى ولا خوف ينعكس على الخارج فيسورث صاحبه الخوف من الآخرين لانه ، قبله ، خائف في نفسه . . خائف من نفسه . . خائف من الناس .

اصطلاح مع نفسك

كلمة عميقة من الصحراء المصرية .

تشكيل التمثال سلج بين كلمة وكنية .

الوزن في الشعر انسجام بين شطرى البيت ووفاق .

الباليه انفاق في الحركة واتساق .

ار السور الذي سكن في زهرة اللوتس ، سكن في كيان المصري الحقيقي ، فغمره بسكينة عندما يصل في نضجه الى قمة الشرف والترف .

ان السكينة المصرية غير الجبل الروافى . انها شئ اكبر .. بفضل مدد علوى .. هو اطمئنان وتواصل وتقبل لفيض هناءات تهون امامها الخطوب وتتجدد الرؤى وتشرف النفس من علية عزها الجديد امام احتدام الامور .

انها ميلاد للنفس يعود به الانسان من غربته .. بخروج من عذابه او بعلو عليه ..

ولعل هذا يفسر الآية الكريمة (يا نار كونى بردا وسلاما)
ان الآية الكريمة دعاء لابراهيم بالسكينة تصير معها النار نفحة نور ، لا لفحة سحر .

النيل والمقطم يرمزان الى شخصية مصر .. انها حوار بين الصخر والماء .. حوار بدور في النور .. من يلائنها تعذب وترق كماء النيل .. ومن يتحداهما تصلب كالصخر .. كصخر المقطم .. فلسفة مصر كالعمود في العمارة المصرية الاسلامية . فاستقامة العمود يترجم عن الحظ الصامر الصامد ثم يلين في انحناءة يستجمع بها نفسه ويستمد العزم في طريقه الى قمة .

وقد حققت مصر-السكينة ثلاث مرات . وبصور متعددة ورائعة :
و العصر القديم ثم في المسيحية ثم في الاسلام

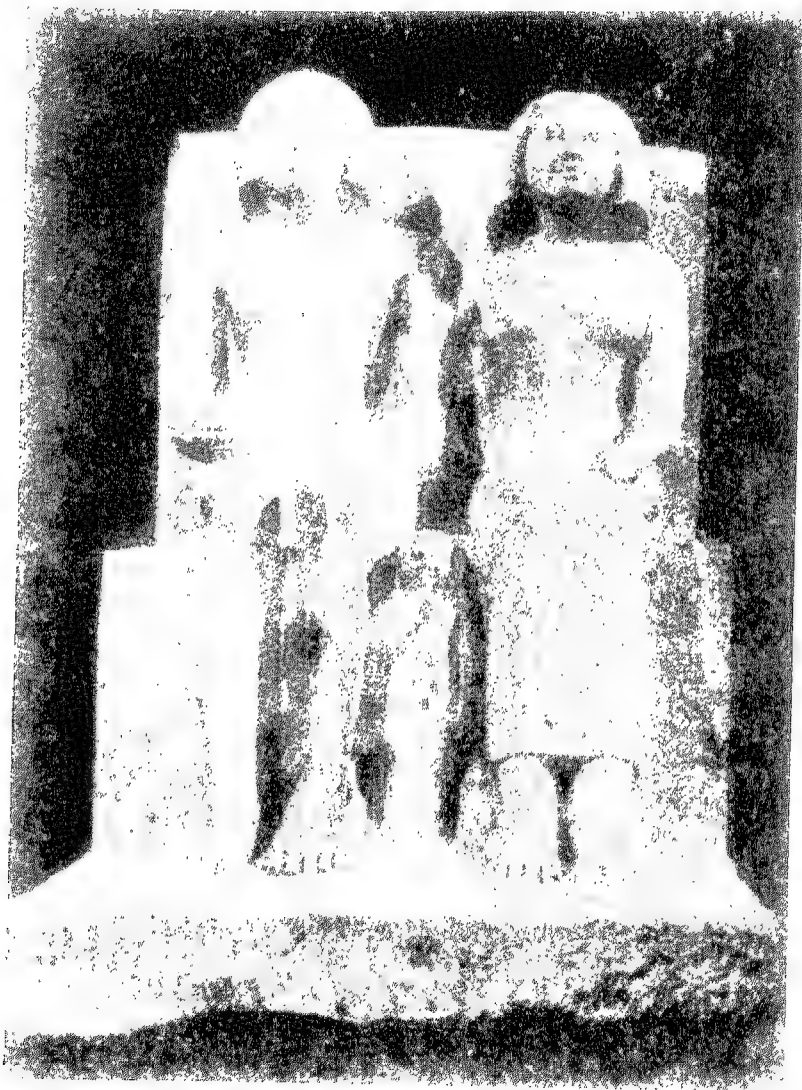
ولم يحقق بلد السكينة في انجازاته بالكيف والكم الذى حققته مصر . ولا يستثنى من هذا الهند والصين على عظم ما حققناه .

ان مصر تشع السكينة من قرار سحيق .

وعلموها النظرية وتجريديها دليل شاهد .

ان تواصل الحضارة في مصر بغير انقطاع دليل بر وخير ومجتمع متسام . مجتمع مستقر وفير . ولهذا جسدت الحضارة المصرية « السكينة » .

انها حضارة النفس المطمئنة لانها في هذا الكون تحس انها غنية بلديها ، واثقة بنفسها ، سعيدة بانتمائها الى « مصر » .



كا - م - حست وزوجه وطفلهما - الأسرة الخامسة



تمثال الكاتبة المصرية



نوت منقح امون يفرج من اللولس رمزا للبهت - الأسرة ١٨



کامن بصل

العمل

يقولون ان اسلوب الشرق : التأمل

واسلوب الغرب : العمل

اما مصر فاسلوبها تأمل وعمل اى همة ..

ان منجزات مصر الحضارية عمل دالب موصول ومضبوط .
متعدد الاشكال والأفراض ولكنه مترابط يشده خيط حرير غير منظور ،
ولكنه لا يخفى على العين البصيرة لانه هو الذى يعطيه طابعه .

عطاء مصر فى الحضارة وليد عمل متقن من حب اصحابه فيه
ونشوتهم بادائه فى فرحة غنائية هى نوع من الجلال الأنيق ..
ولأمر ما ، لا يجد المشاهد ، على المعابد المصرية نما مثابا أو خطوة
متخاذلة ، أو جسما قميئا مع ان المصريين القدماء سجلوا دقائق
حياتهم اليومية لأنهم كلهم كانوا يعملون فى جد ولم يكن بينهم من
ينشأب أو يتلهى أو يتمطى فى الظل .

ومن اقوالهم المأثورة :

(كن مجتهدا دائما ، وزد على ما تؤمر به من العمل ، ولا تضع
وقتا لا تعمل فيه ، فانه ممقوت ذلك الذى يسوء استخدام وقته ،
ولا تفلت فرصة يوما فى زيادة ثروة بيتك ، فان العمل مجلبة للثراء .
ولا يدوم الثراء اذا أهمل العمل) .
وأحسب العمل هو الذى حفظهم من الترهل - وآفته الركود ..
على أن الخير موفور والحصب شامل .

العمل الموصول حتى ليتساءل علماء الآثار كيف غطت مصر الأسطح
الهائلة من الصوان وغيره من الحجارة الصلدة بالكتابة الهرغليفية
والنقوش الدقيقة فى عهد ملك واحد ؟

إنها الصحة النفسية قبل البدنية فليس هناك اجسام متهافنة .
أو متهاوية إنما جلود مشدودة وأطراف مفرودة تعبر عن جسارة
الروح قبل جسارة المادة .

حتى الصلاة وقفتهم فيها مشدودة مشوقة من جسم سليم ونفس
أشد سلامة فجاءت الحركة تعبيرا راقيا عن رغبة الفكك من أسر
المحدود ، شكرا للقوة الأعظم التي بلا حدود .

كانت مصر عزيزة بالحرية ، وعزيزة بالريادة ، وعزيزة بالخلق
والإبداع ، وعزيزة بالغنى .

وانعكس هذا كله على حياتها ، وأعمالها ، وحضارتها ، بل على
تدينها وتقواها .

أسلوب مصر الواحد والوحيد هو العمل حتى في عصور الضعف
لسياسى وهى في مصر عصور كمون واستجماع لوثية محسوبة فان
فلسفة الشعب المصرى، فيها، ان يتوقع على نفسه النفيسة ، ويصوغ
من دموعه في محارته أو عزلته ، لؤلؤة . فنا وصناعة وطرفا . يتوارث
مهاراتها خالفا عن سالف ويمتز بمعطياته في هذا المجال فيجعل لكل
صنعة (خيا) و (معلما) .

ان السلطان الحقيقى في عين مصر هو الفنان الذى لا سلطان لأحد
عليه ولو كان من أهل الحرف . ان الواحد من هؤلاء اليدويين (معلم)
ولمعليته أصول وتقاليده وله احترام خاص وسمت معين .

وليس الفن وحده .. حتى رهبانية آباء الصحراء فيها مفتاح من
مفاتيح النفس المصرية . فحين يعكف الصانع المصرى على عمل ، وحين
يعكف الفلاح المصرى على حقل .. يعكف الراهب المصرى على نفسه
يزرعها ويصنعها .. الصانع والزارع والراهب عملية خلوص الى شيء
وعكوف على شيء ..

عملية بناء برعت فيه مصر منذ القدم قد يكون بالحجر في الصروح
المشيدة ، وقد يكون بالكلمة في القيم المجسدة ، وقد يكون بالخلق الفنى
في الأعمال المجدودة والمجيدة .

حتى أعمالهم العظيمة على روعتها ليست كل ما عندهم ..
مازال فيها (حنة) لم تفسرها الأعمال العظيمة تفسيرا كاملا .. فروح
مصر لها أبعاد غير محدودة .

ليس الفن وحده فالتصوف المصرى لم يكن سلبا بل ايجابا فقد كان ثورة روحية دل عليها « ذو النون » بأعماله ، كما دل عليها « ابن الفارض » فى شعره وسمت حياته بما فيه من مصر من الرقة والعدوبة والصفاء وحيوية العاطفة ، والومض حتى شغلت تائيته الشراح فكثرت شروحيها وتشمعت .

العمل لا غيره كان طريق مصر الى القوة ، وسبيلها الى عصور الازدهار والانتصار .

لقد ترجموا حبه لمصر ، الى عمل . فالمحبة كما يقول المتصوفة ، « بل المجهود » .

ليس عند مصر فلسفة مكتوبة بل محققة ومعاشة . ان الفلسفة طريقة حياة . قد يكتب شئ ويعاش شئ آخر . ولكن مصر عاشت رأيا بصديق وان لم تكتبه هى التى ابتدعت الكتابة .

وكان عند المصريين القدماء ثقافة جماعية فالكلى يشترك فى اخراج العمل الفنى بينما ثقافة العصور الأخرى ممثلة فى افراد معدودين فى كل عصر وفى كل بلد .

وعرف المصريون منذ القدم ، تنظيم العمل الفنى ، واستخدام المساعدين والانتفاع بهم بطرق متنوعة **والتخصص** فى القدرات الفردية ، والجمع بينها وبلغوا فى ذلك شأوا رفيعا .

وكانوا مهرة فى التربية الفنية يدل على هذا ما وجدته الكشوف من المواد التعليمية المحفوظة ومن أمثلتها قوالب الجص من الطبيعة ، والنماذج التشريحية المختلفة المعروضة التى تبين للتلاميذ تطور العمل الفنى فى مختلف مراحل انتاجه .

لماذا كانت حضارة مصر دينية ؟

لأنها عملت فذاقت حلوة العمل فارتبطت بمعنى السكون ولهذا تجد اشد الناس ايمانا ، الزارع ، حتى ولو كان اشداهم تخلفا أو فقرا لأن الزارع يخنو على الأرض ويحنتها ويستولدها فتطرح فى نفسه من المعانى أضعاف ما تطرحه من الغلات والثمار .

يقول ديورانت (حسينا أن نذكر من معالم حضارتها (مصر) نهوشها بالزراعة ، والتعدين ، والصناعة ، والهندسة العملية ، وانها فى أغلب الظن هى التى اخترعت الزجاج ، ونسيج الكتان ، وانها هى

التي احسنت صنع الملابس والحلى والاثاث والمساكن واصلحت احوال المجتمع وشئون الحياة . وان المصريين اول من اقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والامن في البلاد . وأنهم اول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائي والثانوى ، بل انهم هم اول من اوجد نظام التعليم الفنى لاعداد الموظفين ورجال الادارة .

وهم الذين ارتقوا بالكتابة ، ونهضوا بالآداب والعلوم والطب ، والمصريون على ما نعرف اول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردى، والضمير العام وهم اول من نادى بالعدالة الاجتماعية ، وبالاقتصار على زوجة واحدة ، واول من دعا الى التوحيد فى الدين ، واول من كتب فى الفلسفة ، واول من نهض بفن العمارة والنحت، وارتقى بالفنون الصغرى الى درجة من الاتقان والقوة لم يصل اليها فيما نعرف أحد من قبلهم ، وقلما باراهم فيها من جاء بعدهم) .

ومن معجزات الحضارة المصرية انها حققت هذا كله ببسط الوسائل . وهو مؤشر الى عناصر الارادة والعزم والطموح والاصرار ، وراء هذه الحضارة الاصيلية . حتى حين بليت مصر باليونان ومنيت بالرومان فتوارى اسلوبها فى الحياة ، وهبطت الحياة ، اعتزل آباء الكنيسة مجتمع المدينة احتجاجاً عليه وعلى الحاكم الأجنبى . ولكنهم لم يركنوا فى الصحراء الى الراحة أو الخمول ، بل نشروا الاديرة فكان الدير مستعمرة زراعية صناعية لسد جميع حاجات افرادة . بل كانوا يوزعون صدقات كبيرة على الفقراء فى قرب الصحراء كما كانوا يوزعون الصدقات على نزلاء السجون بما فى المسيحية من عطف على المخطيء .

واذ عرفت مصر الخلوة والتأمل فى اعماق الحياة والنفس ، نفذت الى معان كبيرة . ومن طرحها ، الايمان والمحبة والتجرد والتواضع النفسى .

ومع هذا خاضت مصر المسيحية موقعة الشهادة ا

وامتد عطاؤها على مسار التاريخ .

مصر القديمة ابدعت الحضارة .

ومصر المسيحية نشرت الدين .

ومصر الاسلامية خلقت الفن الاسلامى انبثاقاً من فنها القديم .

بهذه الصفات النوايغ شيدت مصر (الشخصية المصرية) وهى

أدوع أعمالها جميعا .. الشخصية المصرية التي استوعبت النصر والهزيمة والازدهار والانحلال والصلابة والتسيب ، والعزة والقهر .. عرفت مصر هذا كله .. واستقطبت مصر هذا كله .. وتحدثت مصر هذا كله .. وتخطت مصر هذا كله .. ولم تكف عن البناء والتشييد والعمل ..

وحين عملت مصر عملا دمويا كبيرا ، لم تكتف بالكم بل احتفلت بالكيف فكانت حضارتها ديانة ، وتدينها حضارة وشفافية وجدان .

وان أزمة الانسان المعاصر أن وجدانه لا يضاهي تقدمه التكنولوجي فملك الآلة ولم يملك السلوك وحسن الاستعمال . انسحقت ذاته يوم أحس أن الآلة تفنى عنه في مواضع كثيرة ، وتلفيه في مواقع عديدة . ويعبر ابن البلد عن طعن السكان أو سحقه بقوله « يعدمه العافية » .

وان قراءة الحضارة المصرية والسياحة الداخلية فيها السياحة المعنوية تعطينا صغارا وكبارا ، العافية .. القوة .. الأمل .. الحلم . الارهاصات أى همس الوجدان ..

لقد عاشت مصر بالعمل وهاشت فيه .. واتصلت حياتها بالبناء والانشاء والخلق والتجدد والتطور والعطاء .

مصر تبنى دائما

في السلم : ترفع البنيان كالانسان .. تنقش على الحجر وتحفر على الخشب ، وتفتن أصابعها المدرية ، في الخلق والابداع ..

وفي الحرب تخوض المعارك ، وتحمل المبادئ ، وتلد البطولات .

وهي في الحاليين تعطي الانسان أغلى القيم .. ولن يتوقف عطاؤها .. قد يتفاوت أو يغير مساره أو نوعيته . ولكنه لا ينضب لأن العمل هو أسلوب مصر في الفن والعلم بل الدين .. في الحرب والسلم .. في الماضي والحاضر يوم خاضت معركة شهداء أخرى في رمضان .

وكما حققت مصر المسيحية عن طريق الاستشهاد والرهينة الجوهر اللازم لكي تتبلور وتتجوهر الشخصية المصرية بعد ان غام عليها اليونان والرومان وغموها ، حققت مصر الاسلامية الحديثة عن

طريق الاستشهاد والعمل تخطيطا وتصميما وتدريباً ، الجوهر اللازم لكي تتبلور وتتجهر الشخصية المصرية بعد أن اتهمها اليهود وحاولوا أن يطفئوها بأفواههم وأبواقهم ويأبى الله ودينه ورسله والحضارات وكرائم الانسان .

حضرت مصر لموقعة الشهداء الجديدة في صمت وصبر . ان الشخصية المصرية انتصار على المحنة ، وصبر على البلاء لأن بلاء المحنة عارض يزول فيتألق الخالد ... تتألق مصر .

لهذا نجد في الراهب والمتصوف والشهيد أحسن مافي الزارع والصانع والفنان المصرى لأن الرهبنه بمعنى زرع النفس واستخلاص الجوهر : حياة .

والشهادة دفاعا من نفيس : حياة .

الزارع والصانع والمجاهد والفنان كل منهم راهب وهب نفسه للقيمة .

والنبي عليه السلام يقول ما معناه : الجهاد رهبانية الاسلام بما فيه من مجاهدة .. وما فيه من جلاء النفس بالشهادة ووهبها للقيمة .

وكم جاهدت مصر .. وكم وهبت .

كم حققت في غير جلبيه او ثرثرة ... وهكذا مصر عندما تملك زمام شخصيتها لا تحب المناقشة والجدل والسفسطة وإنما تحب العمل والتحقيق .

ومن يقرأ تاريخ مصر يلحظ شبيها شديدا بين أيامنا هذه اى القرن الرابع عشر الهجرى وبين القرن السابع الهجرى .

فالدهبى في العبر يقول :

في سنة ٦١٦ هـ حاصر العدو دمياط ووقعت حروب كثيرة .

وفي سنة ٦٢٨ هـ كان غلاء شديد بديار مصر .

وفي سنة ٦٢٩ هـ بلغ النيل ثمانية عشر ذراعا وستة أصابع وتأخر نزوله حتى خاف الناس .

وفي سنة ٦٣٢ هـ كان الوباء العظيم بمصر .

وفي سنة ٦٤٣ هـ كان الغلاء بمصر وقاسى اهلها الشدائد .

وفي سنة ٦٤٧ هـ نزل الفرنج دمياط ثم استنقذت منهم .

واستمر الحال على هذا المنوال الى آخر القرن السابع الهجرى .
فماذا صنعت مصر واهلها على الرغم من الحروب والفلاء والوباء
والشدائد والمغيرين ؟

وفى هذه الفترة بالذات بنت مصر المدرسة الكاملية / والمدارس
الصالحية للمذاهب الأربعة وبنت المدينة الصالحية .

وفى سنة ٦٥٨ هـ وقفت مصر وقفتها فى (عين جالوت) للنتار
الدين اجتاحوا بغداد / وحران / والرها وديار بكر : ثم جاوزوا الفرات
واستولوا على حلب / وعانوا فيها (وجرت الدماء فى الأزقه) كما يقول
المؤرخون .

فالتت مصر التتار دفاعا عن المنطقة كلها وأوقفت زحفهم بل
استولت على ذخائرهم وسحقتهم فحفظت بهذا الحضارة الاسلامية كما
انقذت الحضارة بعد هذا فى حطين .

استقطبت مصر فى القرن السابع الهجرى النصر والهزيمة والعسر
واليسر وانشأت القناطر والأسوار والقلاع والمنارات والدور والمقصور
والخانات والحمامات بل بنت بالشام المساجد والقناطر .

وجددت مصر الجامع الأنور والجامع الأزهر وارتفعت المآذن طموحا
مشتاقا يرتاد آفاقا علوية .. ومن يتأمل المآذن القاهرية التى ولدت فى
ظلال الحروب الصليبية يجد فى عمارتها مجاهدة من المربع الى المشعن
الى الاسطوانة الى الخلوص الأخير الذى ينتهى بالهلال رمزا للامل
والنماء وليلا .

وفى سنة ٦٨٢ هـ بنت مصر البيمارستان .

صنع هذا كله ومن حوله الحروب والأزمات والأوبئة ومع هذا كان
قومنا فى داخلهم (ميتا) ترسو عليها آلامهم وتهدا ، وتنصر الفحة
وتصير جدوة متوهجة يتحول الحجر الصخر فى ضوءها الى حجر كريم ..
ويشرق شارع المعز بالروائع من صنع الصابرين الأقوياء (بالقدرة)
الموهوبين بالوراثة .

بهذا تقف مصر فى مواجهة الاحداث قادرة على الاستعلاء على الالام
مهما جثم وجسم يعسل وجهها النبيل غبرة ، ترهقا فترة ولكن داخلها
سليم لا يقهر .

وتنجلى الغاشية ويروى الشر منها ، ويفنى أعداؤها وتظل هي
الباقية .

لم تعرف مصر حائط المبكى . ان المصرى بطبعه وظيفته ووراثته،
يرتفع بسرعة على حزنه الكبير .. يرتفع عليه وهو يحسه فى داخله
احساسا عميقا .. بل لعله بقدر هذا الاحساس يكون ارتفاعه .

المصرى من وثوقه بالله ، وثقته بنفسه يستفطب اله فى داخله ،
ويستدير هو بعيد البناء ، والشواهد كثيرة من تاريخ مصر .

وفى القرن الرابع عشر الهجرى او العشرين الميلادى واجهت مصر
النار والدمار والحروب والتتار الجدد من كل لون وجنس ولكنها
انتصرت ... ان الصعوبة عندها ايدان بنمو جديد وارتقاء مصرى جديد
لان التغلب على الصعوبة ، ارتفاع فوقها .. فحين تقتحم مصر العقبة ،
وتعلو على المحنة ، وتعبر المشكلة .. تتجدد ولا تتبدد .. ان تحضيرها
لهذا فى صمت وصبر ، وانتصارها فى اصرار وعزم ، نماء واستعلاء فى
شخصنها وشخصيتها .

واذ يزول بلاء المحنة لانه عارض ، يتألق الخالد لانه باق ..
تتألق مصر ويتأرجح الطيب من حرق العود .. وتضوع مصر
ولا تضيع .

ان مصر دائما تواجه الهدم والتخريب بأسلوبها الحضارى ..
تترك للقانون معاقبة الجانى وتترك للزمن من ينجو من العقاب فيتآكل
حين تستدين هي تعيد البناء .. بناء المدن بالعلم ، وبناء الانسان بالدين ،
لان البناء والانشاء والعلم والفن والدين ، قيمها الرفيعة التى عاشت
عليها منذ القدم ..

أحيت مصر الحياة

أحيت مصر الحياة ، فانتصرت على المحنة بالاستعلاء والبقاء بل انتصرت على الموت بالخلود والحضارة .
كانوا من حبهيم للحياة لا ينطقون اسم الموت بحروفه بل يكون عنه فيقولون من الميت :

(عبر الى الضفة الأخرى)
أو (ربط حبال السفينة في المرساة)
أو (جاء معظما في الأفق)
أو (سافر حيا)

والحياة الأخرى عند قدماء المصريين انما تكون في السماء والعالم الآخر عندهم ليس العالم السفلى بل العالم السماوى ، الموت هو الصعود الى السماء على شعاع من نور (ولقد ضرب لنفسه شعاع «رع» ليرعد فيه) .

والمصرى القديم كان يرى في بهاء سماء مصر الصافية ليلا أرواح أمزائه السابقين تتلألا وتطل عليه في شكل نجوم .. فنجوم السماء في عين المصرى أرواح الأحياء .

كان المصرى لا يتصور أحبابه الراحلين موتى في بطن الأرض بل أرواحا مجنحة تحلق كالطيور وترتفع في السماء وترتفع على الأعداء .
فاذا أقبل الليل ، تملأها في الجهة الشمالية من السماء نجوما أبدية أو كما يسميها (غير الفانية) .

وتصوره هذا يفسر بأنه يقصد النجوم القطبية التى لا تغرب ولا تغيب .
شفاف هفاف خيال مصر كروحها .

والفصل ٤٦٧ من متون الاهرام يقول :

انه ليس من أهل الأرض بل هو من أهل السماء .

ان الملك قد طار الى السماء في صورة سحابه مثل طائر الواق .

ان الملك قد قبل السماء كصقر .

ومن متون الاهرام الفصل ٢١٠ سطر ١٣٦ .

« ان فم الملك لظاهر وان التاسوعين قد بخراه

وان لسان الملك الذى في فمه طاهر

وانه يمقت البراز ويعاف البول .

وانتما يا «رع» و «تحوت» خداه اليكما ليكون معكما وطعامه
معكما ايها الالهان وشربته مثل الخمر التى يشربها «رع»

وانه يحيط بالسماء كرع ويخترق القبة الزرقاء مثل تحوت
(القمر) .

ومن الفصل ٤٣٩ سطر ٨١٢ .

ان الملك لاعظم روحانية اكثر من الادواح

وانه لفاخر اكثر من الفاخرين

وانه لثابت اكثر من الثابتين .

الموت في رأى المصريين القدماء نقطة التمام لا النهاية فكانت مصر
القديمة لانتمض عين الميت . والتابوت المصرى تلفه السكينة والسلام
والحضور القدسى . لقد آمنت مصر بخلود الروح قبل أن تانى
الأديان .

التابوت المصرى ، غطاؤه فيه ثوب الهة السماء تنشر ذراعيها
كجنائحين أى دعاء بالرحمة والصعود فى انطلاقه من الاسار الى الرحاب
العليا .

الراحل المصرى تظله السماء وترعاه

الحنان لا يفارق المصرى حيا وميتا .

الموت فى الرؤية الدينية ، رقى ، بالانتقال من حياة الجسد الى
حياة الروح . وقد تكشف القلب المصرى هذه الرؤية قبل الأديان .

فانكر الموت واستعلى عليه حين تحداه بالخلود اعمالا باقية ، وذكرنا
عاليا ، وتاريخا مسطورا .

يموت الناس حين تفيض الرؤية .
ومصر الخالدة برؤاها ... لا تموت .

لا يموت من حقق ذاته ، وعاش حياته ، وأضاف الى الانسانية ،
وأضفى عليها .

ان موضوع متون الاهرام ، الحياة ، لا الموت . الحياة الأبدية
للملك .. حتى كتاب الموتى لم يعرف عندهم بهذا الاسم وان كان طقوسا
جنازية .

الموت نقطة التمام في رأى مصر .
ومن هنا نفهم خطاب الله للرسول عليه السلام :

(اليوم اكملت لكم دينكم وأنممت عليكم نعمتى ، ووضيت لكم
الاسلام ديناً) .

وبكى الرسول وبكى من حوله .
ان التمام ايدان بالرحيل .

ومن هنا أيضا نفهم قولهم (عبر الى الضفة الأخرى) أى حيث
تواصل حياتهم كما عاشوها (بالتمام) .
ان جنة المصريين ، مصر خالدة .

ويصفون جنتهم بأنها (العادلة الحقة التى لا أهوال فيها ، انها
تممت الشجار . وليس هناك انسان يحذر زميله .. هذه الارض التى
لا عدو فيها . وكل أقاربنا ماكنون فيها منذ اول يوم فى الدهر) .

ومن تعلقهم بالحياة ، نبعث فكرة **الخلود** عندهم . وفكرتهم من
الخلود والحياة الأخرى كانت وراء حضارتهم كلها بفنونها وعلومها .
ومن أجلها خدعوا طاقاتهم كلها .. طاقاتهم الفنية ، وطاقاتهم المادية
على السواء ...

أحببت مصر الحياة حيا منتشيا .

مصر من حبها للحياة تجاهلت الموت بعدم الذكر ، أو تحدته
بالارتفاع فوقه ، وبسرعة . ان قصة اوزوريس وست التى كان يمكن

ان تشكل تراجيديا كبرى ، نقلتها مصر الى ساحة المحكمة ، او ميدان الصراع . فالحوادث كلها محاكمة او جهاد في محاولة رهيبه من ايريس لتجميع أشلاء أوزوريس .

لم تقف مصر طويلا عند نقطة الموت . بل عبرتها بسرعة . لقد بكت ايريس وانتحبت ولكن مصر من خلالها لم تقف طويلا عند نقطة القتل لأنها تحيا ... لأنها لاتعترف بالموت نهائية .

مصر تستبعد الاحشاء القابلة للتحلل والغناء ، من الجسم .. وتحفظها أيضا ولكن بعيدا .. أما الجسم فيعنى به عناية كبرى .. وفي سبيل هذا استبدلت الأعضاء التالفة .

والتحنيط ليس من اجل المستقبل وحده بل حفاظ على الماضي أيضا .

ان البسطاء وحدهم ، هم الذين اثر عنهم ، من بين المصريين ، العويل والالطم لأنهم يرون الموت ساحقا يسحقهم وهم الذين يحبون ، كبلدهم ، الحياة ... ومن ثم يعيشون طويلا في الموقف . .

ولكن الانسان المصرى الواصل عندما يحزن ، يستقطب اليه في داخله ويستدير هو يعيد البناء .. والشواهد كثيرة من تاريخ مصر .

وعلى هذا لم تعرف مصر التراجيديا .. حتى المسيحية المصرية ركزت على الأم لا الصلب ... ركزت على الأم بحس بعيد من ايريس وهاتور ...

لقد نشأت التراجيديا في الأدب الغربى ولم تنشأ في الادب المصرى . ولعل مقدمة نيتشه عن مولد التراجيديا ، تعلل هذه الظاهرة . فقد تساءل نيتشه .. لماذا ولد بطل احدى الكائنات الاسطورية ولماذا يعيش ؟ ثم خرج من حيرته بقوله :

انه كان يجب (الا يولد) !

هذه العبارة مفتاح الفكر الاوربي . انها رد على الموت .

على حين ان مصر لم تعترف بالموت أصلا . اذن ليس هناك مأساء .

ان التراجيديا عند مصر تتمثل في ذبح الثور وتقديمه قربانا ثم قال حكيمهم (عملك الطيب احسن عند الاله من القربان) .

الفكر الاوربى يقول ، ان الأفضل الا تكون هناك حياة . والفكر المصرى يقول الحياة سرمد ولا موت .

لقد عنت مصر فى اهراماتها بصالة تجديد الحياة حتى الشيخوخة يرفضونها . وفى معبد أمنحتب بسقارة رسم لزوسر (الشيخ) بعد أن علت سنه ، وهو يجرى عربانا لتجديد نشاطه .

والمصرى فى تصويره ولوع بسن الازهار والتفتح فالمرأة خاصة فى الصور المصرية ، فتاة فى ربيع العمر أو شبابه فى اكتمال النضج فى سن الثلاثين . انه تشبهم بالحياة من فرط ما وفرته لهم مصر من نعيم .

والفن المصرى نغى الموت وتفتح للحياة فى نشوة بها . . . ولهذا يحس فيه متأمله ، انتباهه حقيقية . . كل تمثال فيه انتباهه بالعين أو الصدر أو الجلسه . . فيه السميت المتحضر . . . وفيه النبضة تشيع . . كالصحة فى الجسم السليم .

فى الفن المصرى تفاؤل وايناس .

ان معبد ميراروكا (وهو وزير من الأسرة السادسة) به ثلاثة وثلاثون قاعة مملوءة بالنقش واللون .

المعبد المصرى يضج بالفرح فالاله فى المعبد يفضل ويعطر ويزين ويغنون له ويرقصون .

حتى المقابر مرسوم عليها حلقات الرقص وعصير العنب والطيور الشهية فلا توحى بالحزن .

انها متحف للفن يسعد الرائي . فكل شئ فيها جى مبتهج .

انه حب الحياة دليل طمأنية وسكينه بعد ان زرع وعرف الرعاية والشمس والماء والحيوان . . . اصطليح مع المكان وتحاب مع كل شئ، فيه حتى غدت مصر فى عينه جنة ، وغدت الجنة فى فكره ، مصر خالدة .

وحين اصطلحوا مع الحياة ، اكسبهم التلاقى ، انشراح الصدر ، وانفتاح القلب وقراره وقرته فأعطوا بسخاء من معين فياض .

وانشراح الصدر سر الوسامة النفسية فى التمثال المصرى . . وفى الروح المصرية التى نسميها خفة دم .

ان البشر سر من اسرار الشخصية المصرية فهو يفسل بحرا من
الهموم .

الشعب المصرى يطرب ويضحك ويتفكه فيحسبه الجاهل به ،
سهلا وهو صعب يستطيع حين يريد أن يأتى بالمعجزات ويركب الصعب
حين لا تدل الدلائل من وجهة نظر المراقبين ، عليها ..

ومن القداسة ، الفرع .

ومن البشر ، البشرية .

انشرح الصدر يتبدى فى الكتابة الهيروغليفية .. حروفها كائنات:
ناس وحيوان ونبات . ولا يجلو جمال الهيروغليفية كالمقارنة بينها وبين
المسمارية .

انشرح الصدر يتبدى فى الاحتفاء بالانسان

والاحتفال بصور البورتريه دليل ادراك قيمة الفرد ..

ان فن البورتريه المصرى أقدم وأعمق فن بورتريه فى العالم .

انشرح الصدر يتبدى فى العمل كمفتاح للحياة ..

صبره غسل ، ورهقه راحة هائلة ...

انشرح الصدر يتبدى فى التفتح للانوثة .

لم ينضج قلب كالقلب المصرى لمعانى الانوثة .

فإلفن المصرى مزاج من الانوثة والذكورة ولهذا فيه وداعة القوة ،
وقوة الوداعة ...

الرجل المصرى رحيم حساس وقوته فى رحمته .

والمرأة المصرية قوية بالوداعة .. والوداعة فيها لفرط حنان الذى
يجعلها كإيزيس رمزا للغذاء والوفاء كما هى رمز الاصرار وطاقة العمل.

انشرح الصدر عناق للحياه .

احساس مصر بالكون الشامل

الحضارة المصرية تعكس ما فى النفس المصرية من حنان ورقة .
أحب مصر الحياة فى احساس شامل بالكون . حتى الحيوان أحبه
ومألا بصوره لوحاتهم رمز الطيبة التى تصادق كل شيء حتى ...
رمز ايمانهم بوجوده الوجود قبل الفلاسفه والمتصوفة وأصحاب
النظريات .

ان التعاطف مع الحيوان ليس تدليل قط أو حصان لأن هذا
نوع من حب النفس ، والملكية . ولكن التعاطف مع الحيوان ، تمثيله فى الفن
ووعى حقه فى الحياة ككائن . لقد كان المصريون يعتبرون الخنزير نجسا
.. كما كانوا يكرهونه لاعتقادهم أنه فقا عين حورس بن اوزيريس الههم
المحجوب . ومع هذا صوروه وهم يلاعبونه ويطعمونه وينتظره الساقى
وفى يده اناء جميل ، حتى يفرغ الخنزير من طعامه ليستقيه ا

كانوا قادرين على التجرد الذى يفصل بين رأى الانسان فى العدو،
وبين الواجب له ككائن حتى وهى قمة الانسانية والمثالية .

وفى القرآن الكريم (لا يجرمنكم شئنان قوم على ألا تعدلوا
اعدلوا هو اقرب للتقوى) .

الانسان المصرى فيه حنان حتى فى تصوير (الذبح) فاليد التى
تسند رجل الثور ليستطيع القصاب ذبحه ، تتصل به فى لمسة تريح،
وتنسى العين الدم المسفوح .

الانسان المصرى بحسه الحضارى قادر على أن يحول كل حدث
الى قيمة حضارية .

على الجدران فى المعابد المصرية ، صورة للبقرة تلحس ذيل ابنها ،
والرجل يساعده العجل الصغير على الصعود الى المركب .. ويسحبه من

رجله الامامية ولكن راسه التفت الى الورااء تتكلم بعينها مع الام التى تتقدم القطيع السائر فى الطريق نفسه .

وأخر يحمل معزة كما تحمل اليابانيات اطفالهن على ظهورهن .
الانسان المصرى فيه حساسية مترفة ومفرطة أيضا . فالرسام المصرى لا يكمل ثوب راعى القطيع اذا تلاء فى الصورة حيوان حتى لاتمسه الثياب !

وعندنا فى الريف يكنى عن الجرح يقولهم : (طرف منديك طرف عيني) . فهل رسب الانسان المصرى القديم فى امماقنا أن مجرد اللبس بطرف الثوب ، ليس من اللياقة الحضارية ؟

ان المشتغلين بالأدب يطربون لقول الشاعر فى الغزل او وصف الحبيب :

خطرات التسيم تجرح خديه ولس الحرير يدمى بنائه

وما دروا أن الرسام المصرى سبق ، وفى بلاغة أكثر ، الى القول ، بأن لس الحرير يدمى بنان الحيوان على اطلاقه فكان أرق تعبيرا وأهم من هذا ، إعمق إنسانية .

لقد كان قداماؤنا يحسهم الحضارى الانسانى يعجزون حرمه الحياة ، ويحترمون الكائنات بأنواعها ...

فى الفصل الخامس والعشرين بعد المائة ، من كتاب الموتى ، يقول المتوفى ، عند الحساب :

« لم الحق ضرراً ما بأى انسان

ولم أعمل على اشقاء حيوان »

أسلوب تفكير وأسلوب سلوك .

اسلوب حضارة .

من حبهم للحياة ، كانوا يدللون كل حى حتى الحيوان . فالغزالة لا يملقون فى رقبتها حبلا بل يغطون جيدها بشال أثيق طويل تولع به فى ايامنا هذه ، الأثيقات .

والثور لا يضعون على رقبتة ، مثلنا ، خشبة المحراث مسطحة ، بل يجوفونها على مثال الرقبة حتى لا تحز فى عنق الحيوان .

البقرة عند مصر القديمة ، ودادة ورفق .. وداعة وحنان ..
رعاية ومطاء ولهذا رمزت بها الى الامومة والى الطبيعة وهى الام
الكبرى .

وهذا يعنى **تفاسل** مصر مادامت ترى فى الدنيا حولها هذه
المعانى .

وللبقرة عند مصر دالة خاصة . فالاسطورة المصرية الكبرى ،
ايزيس واوزيريس ، تقول ان ايزيس الالهة المصرية المحبوبة اودعت
ابنها حورس عند الالهة هاتور فى الدلتا فأرضعته البقرة وغذته حتى
نما وترعرع . فحفظت مصر الجميل للبقرة وحننت بدورها على
ابنها .

وككل فكرة يضاف عليها القدم اشياء ، اصبح العجل ولد البقرة ،
له مكانة خاصة او قداسة .

الفكرة فى اصلها وفاء لا شرك .

فى القلب المصرى ابوة وامومة لكل شىء . قلب يرام الحيوان بل
الحجر .

نعم الحجر . انه يرام الحجر حين سواه وحلاه بالنقش
والتشكيل .

ان الثقافة الفنية ، تصرف كريم .. وقد كان عند قدمائنا ثقافة
فنية بالمعنيين : العلمى والانسانى .

وكما احبت مصر الحيوان ، احبت الطيور .

حورس صقر ..

حورس ليس ابن اوزيريس وحده .. انه ابن مصر كلها .

وعرش مصر يحوطه نسر وحية وقرص شمس .

الحية ضد الاعداء

والنسر دعاء بالتحليق

ان السماء تفرد على مصر جناحا وتغمرها بالنور .

نور الشمس

ونور النور .. الله .

مصر والدين

● مصر قبل الأديان

● مصر بعد الأديان

- مصر في المسيحية

- مصر في الاسلام

مصر قبل الأديان

تصورت مصر الاله قديما موفلا في أعراق القدم في روعة فائقة . .
تصورت مصر الاله قبل ميلاد المسيح بأربعة عشر قرنا (منقطع القرنين
في صفاته) أى (لم يكن له كفوا أحد) .

ففى عهد (امنحتب) الثالث ترك لنا رجلا من رجال العمارة في
عهده انشودة سجلها على لوحة توجد الآن في المتحف البريطاني نقبس
منها هذه السطور :

« انك صانع مصور لاهضالك بنفسك .

ومصور دون أن تصور .

منقطع القرنين في صفاته مخترق الأبدية .

مرشد الملايين الى السبل .»

ولامر ما ظهرت الأديان جميعا في المنطقة المحيطة بمصر .

يقول برستد : (ان « ماعت » قد نشأت في أول أمرها بمثابة امر
شخصى خاص بالفرد للدلالة على الخلق العظيم في الاسرة أو في البيئية
التي تحيط بالانسان مباشرة ، ثم انتقلت بالتدريج في سيرها الى ميدان
أوسع فصارت تمثل الروح والنظام للارشاد القومى والاشراف على
شئون البشر بحيث تكون الادارة المنظمة مفعمة بالافتناع الخلقى .

وبتلك الكيفية وجدت لأول مرة بيئة ذات قيم عالمية ، وحينما بدأ
المصريون يتصورون الحكم الالهى لهذه البيئة كانوا في الحقيقة يسرون
فى الطريق المؤدى الى عقيدة التوحيد السامية . وكان ذلك الحاكم الالهى
هو اله الشمس ، وقد تخيل القوم روح حكمه فى شكل شاتق بأن
تصوروا « ماعت » فى هيئة الهه وجعلوها بنت الشمس . وبالسير فى
هذه السبيل وصل المصريون فى النهاية الى عقيدة التوحيد الرفيعة ،

فلم يكن من مجرد المصادفة ان كان ثاني الشعوب اهتداء الى عقيدة التوحيد المذكورة اقرب جيران مصر عبر حدود آسيا في فلسطين .

وقد قال أحد انبياء اليهود : « اليكم يامن تخافون اسمى ستشرق شمس العدالة تحبل الشفاء في جناحيها » ويشير هذا التعبير بداهة الى اله الشمس المصرى القديم الذى يرسم عادة في صورة قرص الشمس المجنح .

وبذلك يتضح لنا على الفور عندما ننظر الى الامام متجهين نحو آسيا ، لماذا اتت حضارة غربى آسيا متأخرة في مثل هذا التطور ؟

فالتصور المصرى للنظام الادارى والخلقى العظيم ، الذى اطلق عليه اسم « مامت » والذى صار اسسمى مظهر للحضارة الشرقية القديمة ، كان كما رأينا نتيجة للتطور الاجتماعى الحكومى مدة الف سننة من حياة أمة عظيمة موحدة ثابتة منظمة كانت تخطو دائما في خلالها نحو الارتقاء والتقدم . .) .

وغير برستند نجد د . هول قد مضى يسجل لمصر ان اليهودية استعارات منها كثيرا من الشعائر ، والمعبودات (ولا ريب في ان نفوذ مصر على اسرائيل كان كبيرا وقت طرد الهكسوس من مصر ، وهو على الأرجح الاصل التاريخى لقصة الخروج كما ظن يوسفوس) .

ومن مدرسة مصر الثقافية طائفة (الاسين) بين اليهود وهى من اقوى الطوائف اليهودية او هى تزيد عليها في القوة والاثر وان كانت اقل عددا . ويرجع الأستاذ العقاد انها نشأت بالاسكندرية في القرن الثانى قبل الميلاد واقتبست من مدارس الاسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثاغورس الذى يحرم ذبيح الحيوان ويدعو الى التثشف والقناعة بالقليل فكانت لا تقدم القرابين من غير النبات .

وطائفة الاسين بما قبسته من الاسكندرية ، تميزت بين طوائف اليهود حتى كادت بآرائها الخاصة ان تستقل عن الهيكل كله في علاقاتها بالدين والقومية .

كما أننا نشاهد نفوذ مصر كما يقول الأستاذ محمد شفيق غربال (في ازدياد مظاهر الملكية عند اليهود . وترجع فخامة العمارة وابهتها في عصر سليمان بعض الشيء الى محاكاته المصريين دون شك ، فشكل المعبد ذاته في جملة بابهائه ومدخله ، والعمودان البارزان القائمان

كالمسلتين أمام المدخل . وكذلك الاسدان القائم على عرش سليمان ، وكل ذلك يحمل الطابع المصرى . وفى الحقيقة كان نظام ملكه منقولا من الامبراطورية المصرية الكبرى) .

ومصر التى فاقت مقاييسها الخلقية الوصايا العشر ومتى ؟ قبل أن تكتب الوصايا العشر بألف سنة .

بل أن مصر بخلفياتها ومجتمعها سبقت العبريين بثلاثة آلاف سنة وكان أدبها ركيزة للتوراة .

بل أن تفكير اخناتون الذى نفذ الى ما وراء المادة (هو الذى مهد الطريق لكثير من التطور الذى ظهر فى الديانة فيما بعد الى عصرنا الحالى) .

بل أن برستد يعد (الاصلاح الذى ادخله اخناتون فى أيامه انقلابا بعيد المدى لا يقل عن الانتقال من الوثنية الى المسيحية وابعد مدى من الانتقال بعدها من المسيحية الى الاسلام) .

ولم يشب أخلاقيات مصر ، كبايل ، ركام الكد فى الحاجيات الالية او زحام الاقتصاد التجارى حتى أن دستور قوانين (حمورابى) يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى او المذنب حين أمحت الفوارق الاجتماعية أمام القانون المصرى القديم .

وكما اعتمدت اليهودية على مصر فى (العهد القديم) اعتمدت المسيحية على مصر فى العهد الجديد . فالاله تحوت حين رد البصر الى حورس ، صورة ظهرت فى العهد الجديد ممثلة فى المسيح يبرىء الأعمى .

وإيمان مصر القديمة بالثالوث ايريس - أوزوريس - حورس - كان قبل قول المسيحية بالآب والابن والروح القدس . يقول المستشرق الفرنسى اميلينو « ان روح الله القدوس فى دستور الإيمان المسيحى ، إنما يقوم مقام « الالهة الام » فى عالم اللاهوت المصرى) .

وجاء عيسى مصر . ومن مصر دعى (من مصر قد ناديت ابنى) هوشع ١ : ١١ حتى ٢ : ١٥ .

ومن الأبياد القبطية هيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفل صغير ، ويوافق هذا العيد أول يونية من كل عام

وتحتفى به بدرجة خاصة كنائس مسطرد والمطرية وأبو سرجه وهى
أماكن الثرية بما حظيت به من زيارة السيد .

جاء المسيح الى أرض مصر ليجد فيها مأوى يقيه غدر هيرودوس .

وفى القرآن الكريم : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآيينهما الى
دعوة ذات قرار ومعين) المؤمنون .

وأقبل على مصر الحواري مرقس وكتب فيها أنجيله الذى يعد
من (أبلغ الأناجيل أسلوبا وأوفرها حكمة) مما يمدده بعض الباحثين اثرا
من آثار مصر فى ذلك الحواري الجليل الذى مات فى بلادنا ودفن فيها .

يقول فلاندرز بيتري (لو أننا حاولنا أن نستعين بخيالنا لإدراك
الحقائق التاريخية فتصورنا أن الإيمان بالثالوث المقدس لم يمحض ،
وأن الرهبنة لم يتم لها اثر وان الطفل يسوع المحمول على ذراع أمه
العدراء ظل مجهولا فى العبادة وفى الفن . . لو تخيلنا هذا كله لأدركنا
ما أحدثته مصر من اثر فى المسيحية وكيف أن هذا الاثر بعيد البعد كله
من التعاليم اليهودية) .

وفكرة (المخلص) عرفتها مصر بعد عصر الاهرام وعنها اخذها
العبرانيون ، فالمسيحيون .

يقول اميلينو (نجد فى كتب مصر المقدسة الاعتراف بالخطيئة . .
الاصلية والوعد بالاله المخلص وتجديد البشرية) .

ويقول اميلينو انه على الرغم من أن الشعب المصرى تعددت فيه
الالهة فان الكهنة والحكماء من بينه كانوا يعلمون علم اليقين ان الله
واحد .

وأقول ليس الكهنة وحدهم بل افراد عاديون ايضا من سواد
الشعب ، يؤيد هذا قصة مرقس مع الاسكافى بالاسكندرية وسواء
اصحت هذه القصة ام لم تصح فان دلالتها باقية .

وعرفت مصر التبتل بل أقدم ما عرف من الزهد والورع الشخصى
فى معناه الروحى العميق .

عرفت مصر ما بين ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م الشعور بالخطيئة وبها
تأثرت اليهودية فالمسيحية .

واتخذت المسيحية علامة الصليب من علامة الحياة (اولخ) أو
(عنخ) عند قدماء المصريين .

حتى البخور أخذت فكرته الكنائس المسيحية عن مصر القديمة
حين كان البخور (رابطة اللفة بين الآلهة) .

وكما رسم قدماء المصريين الآلهة حورس يدوس ست اله الشر
تحت أقدام جواده ، رسم المسيحيون مارجرس ممتطيا جوادا يعطس
الشیطان بشكل تنين .

وكما كان اخناتون رسولا لكل من عالم الطبيعة والحياة الانسانية ،
كان عيسى يستقى دروسه من سوسن الحقل وطيور الهواء وسحب
السماء ، والناس حوله . ودليل هذا قصص المسيحية (الابن المبدى
أو (الطيب السامرى) أو (المرأة التى أضاعت قطعة من نقودها) . .

يقول الأستاذ محمد شفيق غربال فى كتابه (تكوين مصر) فى
حديثه عن بيئة الايمان المصرى الخالص ، والرجاء المصرى الصميم
(كان شغلها اقامة الشعائر التى تطلبها عبادة اوزيريس . وتقوم تلك
العقيدة على توجيه الايمان وتوجيه الطقوس للحصول على البعث بعد
الموت بفضل اوزيريس الذى بعث بها بعد أن ارداه الشر قتيلا ، ولذا
كان هم المؤمن المصرى أن يؤدى الطقوس السحرية التى بها تغلب
اوزيريس على الموت . ولو أن الوازع الخلقى لم ينب عن المؤمنين
المصريين فقد آمنوا أيضا بالحساب والميزان يسبقان نعيم الأخرى .
فلم يكن عجبا أن تلقى المسيحية وقد نادت بالخلص الذى قهر
الموت اذنا صافية ولقاء حسنا) .

ويقول : (ان المسيحية قد لامت فى مصر بين خصائصها وبين
خصائص الدين القديم الأساسية لدى أوسع معا شهدناه فى أى بلد
آخر اللهم اذا استثنينا بلاد اليونان . فاذا كان أكثر المصريين قد
اصبحوا عند منتصف القرن الرابع مسيحيين فمرد ذلك الى أنهم
خلقوا لأنفسهم ديناً قومياً من المسيحية وذلك بأن تحووا هذه الديانة
ببقايا معتقداتهم القديمة وآمالها) .

هذه بعض عطاء مصر لليهودية والمسيحية ، أما الاسلام الذى ردد
اسم مصر كما لم يردد بلد آخر فقد تجاوزت مصر معه لما فيه منها . .
فمصر القديمة قالت بالحساب فى الآخرة كما اشرنا . يقول برستد
(ان ظهور فكرة الحساب فى الآخرة وهو شيء لم يعرف فى آسيا الغربية

قبل « زروستر » ، قد اوجد نظرية قوية أن « زروستر » قد أخذ الكثير من ديانتته من الديانة المصرية القديمة .

وكان الواحد منهم حين يعد قبره يكتب عليه يناشد الأحياء المارين به ، الدعاء له كما نقرأ نحن الفاتحة رسائل رحمة من الأرض الى السماء .

لقد وضعت مصر القديمة القلب في كفة ، وفي الكفة الأخرى علامة الحق (معات) ورمزها ريشة .

ان تركيز مصر على القلب ووزنه بالريشة ، اشارة الى رؤية مصر للقلب .. انه بالصفاء والشفافية ، يؤزن ويقدّر لا باللحم والدم . لا بالكيلو والطن .

الا يذكرنا هذا بالمعنى الذي ورد في القرآن الكريم .

(ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن الى القلوب التي في الصدور) .

وبالآية الكريمة (الا من آتى الله بقلب سليم) .

لا ببناء الجوامع رثاء الناس ، ورياء المجتمع .

اختارت مصر الريشة .

وبهذه الريشة أو بجزئها العلوى العارى من الريش

اقسم الله في الاسلام .

اقسم بالقلم وبما سطر .

وبالقراءة فصل الله بين عهدين : الجاهلية والاسلام .

بداية الرسالة الاسلامية .. وبداية الحضارة الاسلامية .

القراءة .. ليست قراءة الحروف فحسب بل قراءة المعاني وراءها .

وكم قرأت مصر وكم كتبت وسطرت .

تفادت مصر الى معالي الحق والخير والعدل في فجر الزمان قبل

ان تأتى الأديان .

ان بلوغ هذه المعاني واستشعار القداسة هو الشعور بالقانون

الرابط للأشياء ، الرابض وراء الأشياء .

وبما يحسب لمصر ان شوقها الى الحقيقة لم تلغ اليه حاجة

ملحة والحاجة أم الاختراع كما يقولون ولكن مصر استشرفت الى

الكمال والى معرفة الله من خلال اخناتون الملك السيد الذى لم تكن عنده مشكلة . ومع هذا كله الفى الملك الامبراطور ، القابه الملكية كلها ، حين شعر بضالة الانسان مهما بلغ ، الى جانب الله المتفرد بالعظمة والجلال وسمى اخناتون نفسه :

(العائش على الصدق) .

وهنا وصل ، بعد التجريد ، الى التجرد

والتجرد من الأشياء المادية لا يعنى جهلها أو تجاهلها ، وهو الملك الواسع الفنى ، ولكن يعنى التحرر من سيطرتها ، يعنى احتواءها صورة فى داخل النفس ، لا اقتناءها عينيات خارجها .

هنا يصبح الجسم الكثيف ، الجسم الماسى كما يقول الصينيون . هذا القانون أو السر الأكبر ، نفلد اليه اخناتون العظيم ، فى سبحاته ، يرفع صلواته الى الرحبات العليا ويتمتم بلغة عذبة جميلة وصوت سرى عميق تارة ، ومترنما تارة أخرى ، بنشيد الجميل الصافى مما أخذته عنه مزامير داود :

(١٠٤ - ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦) والمزمور ٥٤١

وعندما يصبح الصباح ، وتطلع من الأفق ،

وعندما تضىء كاتون أثناء النهار ،

تطرد الظلمة وتهب أشعتك ،

فالأرضان فى عيد كل يوم ،

ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام ،

لأنك انت الذى أيقظتهم ،

أنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم .

وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،

لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر ،

وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ،

لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط .

انه شعاع من ايمان ولكنه عندما يقول :

« انت خالق الجرثومة فى المرأة

والذى يلدنا من البذرة اناسا
وجاهل الولد يعيش فى بطن أمه
مهدئا اياه حتى لا يبكى
ومرضعا اياه حتى فى الرحم
وانت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل انسان خلقتة
حينما ينزل من الرحم فى يوم ولادته
وانت تفتح فمه تماما
وتمنحه ضروريات الحياة » .

ويقول (انت الذى تنفخ فى الفرخ وهو مضغطة فى بيضته فتبهبه
الحياة انت الذى تتم خلقتة فينقر البيضة وهو فى باطنها .. فاذا خرج
عنها جعل يصى بقوة تامة وهو يجرى على قدميه ساعة يخرج) .
هنا نور النور . انه الله فى هذا النشيد . انه الله فى اناشيد
اخناتون الذى يجعل الشمس تطلع من الأفق ويجعل الفرخ يخرج من
البيضة بعد أن يهب الحياة ، والذى ينزل المطر من السماء نيلا
للأجانب ويرسل الثيل (الحقيقي) من العالم الآخر لأجل مصر .
من علم اخناتون العظيم ، هذه الأسرار ؟
حقا عالم عجيب .. البيضة .
كان احد الفلاسفة يوصى لزائر المتحف أن يتأمل بيضة قبل أن
يدخل فالبيضة تنظم النفس فترى .
وما أبلغ تعبير ابن البلد حين يقول (طلع من البيضة) كناية عن
النمو والانطلاق .
ان الديانة المصرية القديمة يظلمها من يسميها (وثنية) ويحكم
عليها بعد خمود فوريتها الحقيقية حين عاشوا ادراك وجود الله من وراء
المعبود المحسوس .
هل من الوثنية أن تترنم مصر بهذا الدعاء ، الماثور عن مهد
امنحتب الثالث :

(أيها الموجد الذى لا موجد له
أيها الواحد الأحد الذى يطوى الأبد

انت الام البارة للالهة والبشر
والصانع الدموب الخالد في اثاره التي لا يحيط بها حصر
والرامي ذو القوة والبأس يرمى رعيته
ولولا ملاذهم ما تهيات لهم حياة .
وعند الحساب يقول المصري ، كما جاء في كتاب الموتى :
« لم ارتكب ما يفضب الاله
لم اتسبب في بكاء احد
ولم اتسبب في حرمان انسان من حق له
لم انقص المقياس
ولم اطفف في الميزان
لم اختطف اللبن من فم الرضيع
ولم اطرد الماشية من مراعيها
ولم اصد الماء في موسم جريانه
ولم اقم سدا في مجراه
ولم اطفىء شعلة في وقت الحاجة اليها
ولم اعترض على ارادة الله . »
ليت الانسان في كل مكان في شرق او غرب

ليتنا بعد آلاف السنين نلتزم هذا او بعضه . لتقل الحروب ،
وتعود الحقوق ، وتخف امراض القلق والأعصاب ، ويتراجع البشر
وتهدأ حدة الصراع ، وترشد أسباب النزاع . . لتنهأ الحياة .

كانت مصر قبل الأديان أمة وسطا . . الوسط الذهبي كما يقول
الدكتور حمدان . . الوسط الخير النبيل .

إن حضارة مصر أشد الحضارات احتفالا :

بالدين والعمل .

تنزل الدين على مصر أى عرفته بطريقتها هى . . برؤيتها القلبية .
هناك أنبياء لا نعلمهم .

• وفى القرآن الكريم : (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم
نقصص عليك) ٧٨ ك غافر ٤٠ .

وفى القرآن الكريم : (ووسلا قد قصصنا عليك ومنهم من لم
نقصص عليك) ١٦٤ م . النساء ٤

اننا فى سقارة نرى : العمل فى حركة دائبة

والحركة فى همه فائقة

والهمه فى يقظة عجبية

ومع هذا ليس هناك نص دينى الا قليلا .

ولكنك امام الطرح الرائع للعمل الفتان ، تحسن الغائب الموجود

... تحسن الوعى بمعنى الوجود .

هل عبد المصريون التماثيل ؟

فى المصور العظيمة فى عنفوان حضارتهم ، لا .

التمثال فى مفهومهم مساعدة للانسان على التركيز .

ان الصلاة فى الاسلام تصح فى اى مكان ولكن المسجد يجمع

شتات النفس عند الصلاة ، كما لا يستطيع مكان مفتوح خارجه .

لقد اله المصرى : الزهرة .. والنبته .. والحيوان . والتاليه

هنا معناه رؤية وجه من وجوه القداسة فى احساس بالكون كله ..

بوحدة الوجود .

...

...

...

عبد المصرى كل شىء كلون من الائناس ، يضىف عليه الائناس ..

البشر .. الصمود .. الدعة .

لقد عبدوا الحيوان .

نعم ولكن لانهم لمسوا فى الحيوان :

✳ الحياة المشتركة بين الانسان والحيوان .

✳ حياة مختلفة .

هذا الاختلاف يثير النفس الانسانية . ولهذا جرت طقوس واديان

وراء عنصر الاختلاف مما يثمتل فى الاقنمة والاردية المزرکشة ، مما

يفصله رودلف اوتو فى كتابه (فكرة المقدس) . (١)

لقد رسموا البقرة ، شجرة . والشجرة لها ثدى ، والانسان
يرضع من الشجرة ، والمرأة لها قرنان ..

هناك رأى يقول انها فى الأصل تشبيهات ادبية وخيال شعرى
اعجب به الناس فجسده الفنان المصور .

وأرى أن هذا لم يكن عبثاً من الفنان المصرى بل فلسفة كبيرة ..
انه يرمز الى وحدة الكون فى خلاف من الرحمة التى وسعت كل شئ ..
فالشجرة رمز عالم النبات ، والبقرة رمز عالم الحيوان بل رمز العطاء
والحنان والأمومة .

انها رهافة وجدان مصر التى فطنت من آلاف السنين الى
ما يسميه الانجليز اليوم وحدة المعرفة .

لم يكن الخيال عند مصر ، شطحات سريالية بل كان خيالها عين
داخلية بصيرة ترى مالا يدركه البصر .. رؤيتها بعيدة مديدة .. رؤية
شفقة مستشفة .

حتى الثعبان لم تنظر اليه مصر القديمة نظرة مسطحة بل رأت
فيه على شره الظاهر ، تعبيرا عن الوجود الجذرى . فتشكيل الجسم
فى التفاتات مستديرة رهيبة ، ونمو الرقبة والرأس وارتفاعهما ..
هذه الهيئة كالجذع والساق .

رأت مصر فى الثعبان ، على شره الظاهر ، تعبيرا عن الحياة الفنية
القوية المتلثة بالبأس . ولأمر ما سمت اللغة العربية الثعبانة (حية)
من حروف الحياة .

لقد شاع رسم الثعبان وتشكيله فى الحلى خاصة الخواتم
والأساور . ان مصر عندها ادراك رهيف بتيار الحياة السارى من
النجوم الى اعماق الأرض .. من كائنات الخير الى كائنات الشر .
عندها شعور بسيل الحياة الجارى .

لقد نهجت مصر فى الكشف عن مكنون الحيوان كمجلى من مجالى
القدسية فى هذا الوجود .

ولكن الدين لم يروا فى ديانة مصر الا الوثنية انما نظروا اليها فى
عصور الضعف كما تنظر العين الى المسباح الحابى لا ترى فيه الا
(الهباب) .. (صداد فانوس) .

مصر عبت الحيوان . نعم ، ولكن لاحتساسها بروعة الخلق فيه . فهو جزء من الله بما هو مجلى من مجالى قدرته .

الفرق بيننا وبينهم اننا نقرن (القرد) بالقرادى اى هزل . .
وهم كانوا يقرنون القرد بالجد . فتحوت فى الهيروغليفية معناه :
يبحث . . اى الجد .

وكان تحوت اله الحكمة . . البحث . . الكشف . الادراك .
الحيوان هو الحياة . . والله يسمى الدار الآخرة (الحيوان) . .

ان الحضارة المصرية التى يقال انها وثنية ، كانت تبشر بالمسيحية والاسلام لان مستشف دقائقها فى الفن والتفكير ، يدرك وحدة الخلق فى الحياة ، والاحساس الشامل بالكون . وهذا اساس الاسلام الذى لا يكف من الدعوة الى التأمل والتفكير .

وجاك مارتان يقول فى كتابه عن الفلسفة المدرسية :
الفن المصرى نبوءه بالمسيحية .

لقد قال الملك رمسيس انه فى احتدام المعركة ، ظهر له آمون . .
ليس آمون التمثال المعروف لنا ، المعروف امانا ، ولكن العناية
الالهية التى تكلا من تشاء .

وكانت مصر القديمة تقول (اطع الاله الذى فى قلبك) اذن الاله
الحقيقى ليس آمون أو رع . . ان هى الا أسماء ترمز الى الاله
الحقيقى . وابن الفارض يقول :
ان الايمان هو الرحمة .

وحيثما وجدت الرحمة فوراها ايمان .
ومصر القديمة قالت فى ادبها من رحمة :
(كن مرضعا للمريض وابا لليتيم .)

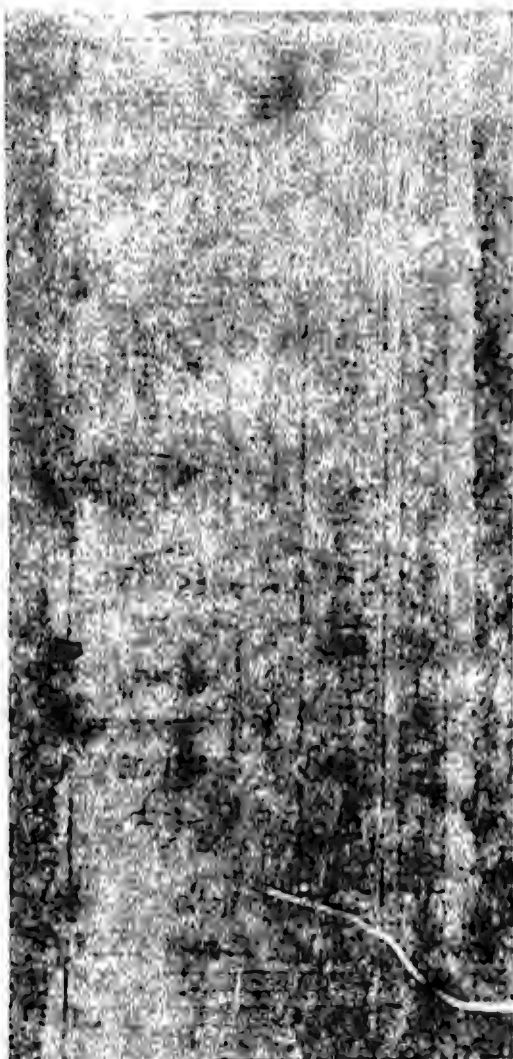
(ان فضيلة من يؤثر الحق لأحب عند الله من الثور الذى يقدمه
المذنب قربانا) .

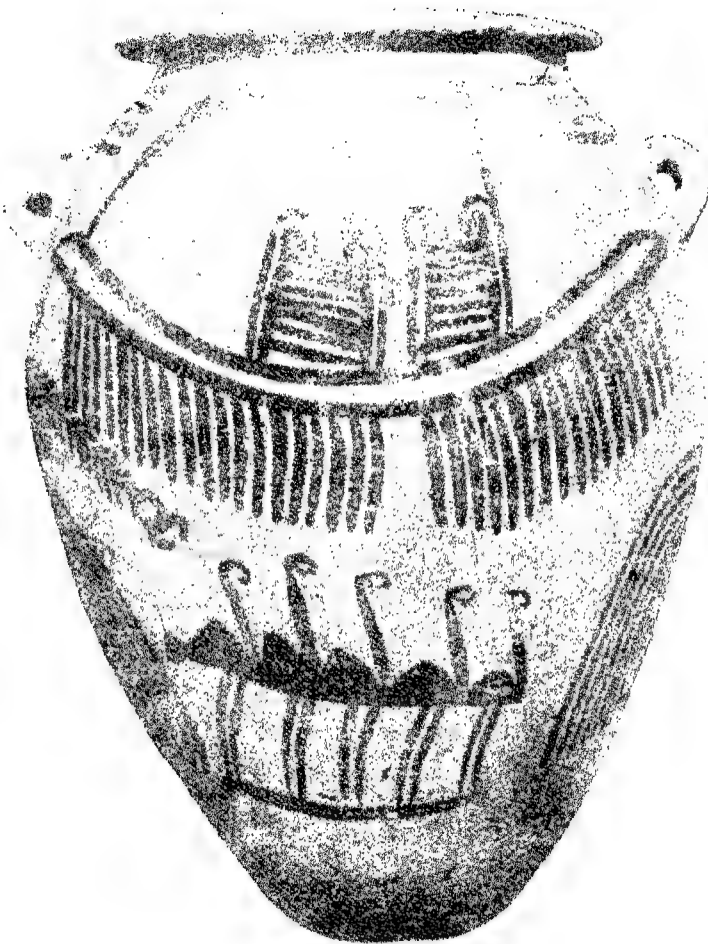
وسفر الأمثال (٣١ - ٣) يقول (فعل العدل والحق أفضل عند
الرب من الذبيحة) .



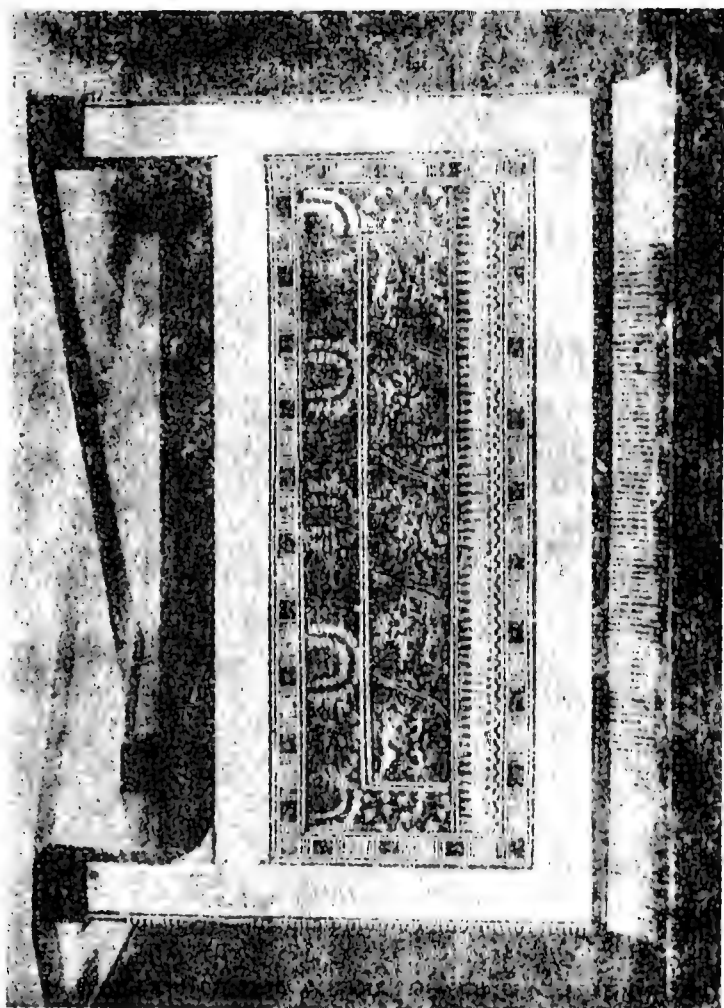
حتشبسوت في جلسة طقسية الأسرة ١٨

لوحه قنيل الحساب في الاخرة عند مصر القديمة





اناء من عصر ما قبل الاسرات



مستورق من مطيرة توت معج أدون يعمل الصبرة الثانية على التصميم

أن تأليه فرعون دلالتة أن الوعى بالمقدس فى مصر ، وجد له ،
بؤرة ، يلتزم بها سلوك الناس .

لا بد من وجود كبير . . قادر . . نسبيا لينتهى التفكير الى القوة
الأقدر والأعظم . . الى الله الذى ليس كمثله شيء . . سبحانه .
ان (معات) رؤية بعيدة وتأمل عميق . انهم بطريقتهم الخاصة
يقولون من خلال (معات) :

(وبنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه)

ومصر حين اعتنقت المسيحية ثم الاسلام كانت تصدر من هذه
الطبيعة لا سيما وان المسيحية والاسلام فيهما منها الكثير .

لم يكن ايمانها ايمان التبعة والضعف بل ايمان الشخصية وقوتها
فمن قوة الشخصية الا تخاف الجديد لأن ما عندها كبير راسخ . ومن
السماحة وقابلية التطور ومرونة الادراك ، أن تدرس الراى الآخر
وتنفذ اليه فاذا اقتنعت به تقبلته دون جمود . . واذا تقبلته نمت به
وطوره واعطته .

وبهذا استمر دورها على المسرح فلم تسقط الأضواء من على
تسماتها أبدا . فقد خرج من هذا التراب اشخاص حققوا معنى الدين
فى المرحلتين المسيحية والاسلامية .

ولولا ان مصر فى قلبها نزوع الى السمو والعلو من قديم ، لما
تقبلت المسيحية والاسلام بمثل ما تقبلتهما .

ان الحضارة المصرية هى القاعدة الكبيرة للديانات السماوية
بشوقها الى المطلق ، ونزوعها الى التجريد ، ولوعها بالقيم فى الفكر
والروح .

لقد اجمع اساتذة الفنون الذين راوا جامع السلطان حسن على
انه فن فرعونى ولو انه اثر اسلامى .

ان القبة هى الترجمة الاسلامية للهرم .

القبة هرم ترفق المسلم المصرى فى بنائه ، من رفق الدين الجديد،
فاستدار الحط بعد صلاة وثبات .

والمنذنة هى الصورة الاسلامية للمسلة . ان داخل كل منذنة ،
مسلة فى الشكل والروح .

المصرى المسلم كان يجمع الى فنه الموروث ، سماحة الدين الجديد وزحمته فانطبع هذا في فنه الاسلامى ، حنيات واستدارة . فأبواب المساجد يركزش المصرى المسلم أعلاها وكأنه يحسن المستطيل ويعشق الخشب ، ويستنطق السطح بالنقش والنعمة .

كم هى بليغة لفة ابن البلد في لفظة (يعشق) . حتى الخشب في مفهومه ، أرواح تتحاب وتعاقد وتعشق ..

حتى المفاهيم العقائدية تلتقى فيها مصور مصر مع تجديدها . فلو تأملنا الآثار المصرية لرأينا (الجناح) يسيطر على خيال المصرى الذى رمز به الى الرحمة .. الى الانطلاق .. الى السيطرة . ولهذا شاع في الفن المصرى القديم (القرص المجنح) حبا في النور ، والحرية ، وتحصينا بالشمس والجناح ..

والقرص المجنح يقابل في الاسلام (بسم الله الرحمن الرحيم) نفس الروح . وتسرب هذا عبر الأجيال الى نفس ابن البلد فأصبح يقول ويؤمن (بمصر المحروسة) .

لقد اعتبرت المسيحية مصر (الأرض المقدسة) لوجود أباء الصحراء فيها .

وعندما جاء الاسلام شربته مصر ونمت به ونمت فلم يمح شخصيتها بل أضاف اليها عمقا جديدا .. وأضاف لها فضلا جديدا يوم حملت مسئوليتها في السلم والحرب فدافعت عنه في مواقعه الكبرى ، وحمت حضارته التى تهددها هولاكو والصليبيون ، فوق ما حملته على أرضها برصيدها الكبير في صناعة الحضارة .

هذا هو دور مصر وعطاؤها . حتى الأديان حين تمتنقها لا تقف عند الاتباع بل تأخذ دورا بالمعطاء والاضافة والتكليف على هدى حضارتها وسابق معطياتها .

ان الحسن الدينى الذى يحتويه كيان المصرى ، واحدا سواء في هذا. اخناتون ، وسانت أنطونيوس ، وابن الفارض .

ان سانت أنطونيوس يمثل روح العبد المصرى بلا حجر أو جدار . ان الوجدان الدينى بالنسبة لمصر (القيمة) كالنيل بالنسبة لمصر (الوادى) .

الوهمى الدينى هو نهر النيل المعنوى

حين يفيض يكون الالحاد
وحين يفيض يكون التعصب
ومصر لا تحب التطرف في شيء ،
تكره الالحاد
ولا تحب التعصب

ولكنها مؤمنة في نقاء قبل الأديان وبعد الأديان .
ان من ينظر الى (أبو الهول) يحس الحضور المقدس .
الوجدان الدينى يمثله : أبو الهول في الغرب
وجامع السلطان حسن في الشرق

المصرى على طول تاريخه له مواقف وعطاء

خلاصة المصرى القديم	حضارة
خلاصة المصرى المسيحى	تجرد وشهادة
خلاصة المصرى المسلم	جهاد وخلوص لله
خلاصة المصرى المعاصر	اسلوب تفكير تتوافق فيه الوسيلة مع الغاية

وتختلف الأديان والمصور.. والمصرى يجمع في كيانه هؤلاء كلهم .
كم لمصر من مواقف .

الامام حسين بن على ، قابله في طريقه الى كربلاء رجل يعرفه
فسأله الامام :

— كيف حال الناس ؟ فقال :

— قلوبهم معك وسيوفهم عليك .

وانهالت السيوف على الحسين .. وقتل في كربلاء .

ثم انقض ذبانية يزيد على طفل الحسين زين العابدين وكان مريضا
يريدون ان يفتكوا به فاحتوته عمته السيدة زينب في حجرها وصرخت
فيهم : اقتلونى انا اولا .

فأرتدوا يجللهم الخزي والعار .

وعاش زين العابدين ليعيش ذكر العلويين ويقوم لهم ملك ودولة
بل عاشت باسمهم في التاريخ الاسلامي الدول والملوك .

السيدة زينب بكل ما تمثله من معاني الغداء والحماية والحنان . .
بكل ما تمثله من معاني الحق وشجاعة الرأي والموقف والضمير . .

السيدة زينب هذه اهانبها الخليفة يزيد بن معاوية في حضرته
واخرجها من دولته في الشام والعراق فاستقبلتها مصر واليهما وشعبها
عند حدود الشرقية ، وتنازل الوالى من قصره لها وانزلها فيه ، وهو
ضريحها الآن .

ترى لو احتفى الحسين بمصر هل كان يلحقه حيف ، او يعلوه
سيف ؟

سؤال يلح على خاطري بين الحين والحين .

لقد استقبلت مصر الاسلام بما فيه منها فقد عرفت قديما المهاد
والبعث والحساب والعقاب والميزان والجنة والنار بل عرفت التسبيح
والتنزيه لاله الواحد . وكان تسبيحها فريدا في زمانه ، نشيدا في
كل زمان . .

جاء الاسلام ولم يكن جديدا على مصر كل الجدة فمضامينه وقيمه
نفذت اليها مصر بصورة ما بالفطرة السليمة والدفع الحضاري معا .
بل ان بعض الباحثين يرجع المعبودات الوثنية العربية في اصلها الى
معبودات مصرية .

اذن امتنقت مصر الاسلام بما فيه منها ، وبحسها الحضاري
بما فيه من انفتاح على الفكر ، وانسراح للفكرة ، واحتضان للقيم .

تجاوبت مصر مع الاسلام . . اخذت منه وامطته على العكس من
تركيا . . لان الأتراك امة حرب ، والمحارب من صفاته الشجاعة ولكن
ليس من طبعه الودادة والوداعة . . السماحة والشفافية والرهافة . .
حتى التقوى منهم كانت اوامر . فقد روى الدكتور أحمد أمين ان
التركي كان يقف بباب المسجد وفي يده كبرياج ، يجلد به الرائيين
والفادين ليدخلوا المسجد ، ويؤدوا الصلاة .

حتى الخلافة الاسلامية التي هيئت على تركيا من السماء ، لم
تستفد من هالتها وبركتها فلم تتفقه في الدين ، ولم تعدل في الحكم ،
ولم تتبحر في العلم .

كان زواجها من الاسلام عقيما وانتهى بالطلاق على يد اناطورك .
وهى نهاية طبيعية على الرغم من فزع الكثيرين في وقتها .. ولم تجد
نصيحة شوقى لها : (يا دولة السيف كونى دولة القلم) لان القلم
موهبة وعطاء (يؤتى) و (ولا يكون) .

مصر رائدة الزرامة ، طبيعتها فيها رقبة التفتح والتطور والتجدد
والنماء كالنبات .. ولولا انفتاحها وفتحها ما آمنت بالاسلام بعد تبنيها
المسيحية وخوضها موقعة الشهداء فى سبيلها .. ولاقت ما لاقت
ولكنها لم تضعف .

العدراء حملت المسيح واحتضنته

ومصر حملت المسيحية واحتضنتها .

وقد أدركت مصر ما بين المسيحية والاسلام فى الجوهر ، وما بين
المسيحية والاسلام معا ، وبين عقائد مصر القديمة من صلة ، واتفاق ..
وتلاق .

ان المسيحية زهرة جذورها فى مصر القديمة

والاسلام زهرة جذورها فى مصر القديمة

حين كانت الحضارة الهلستينية (غربية) فلم تهضمها مصر فى اى
سنة .

لمصر القديمة رع اى الشمس والنور

واوؤريس اى النيل والخصب

انها رؤيتها لله من خلال المموسات والمرثيات تتخلل هذا فترة
تجريد كان فيها « اخناتون » يناجى الهه قائلا : (انت فى قلبى) .

ثم جاءت المسيحية وتحررت من الاقليمية ، وتحررت من الاشياء

واحتضنت مصر المسيحية واثرت فيها ونشرتها كما لم يفعل احد

— وجاء الاسلام يردد : الله « تعالى » . وفى « تعالى » هذه :

سمو على الاشياء .. وعلو على الصفات . انه التجريد الذى
نفذت اليه مصر منذ عشرات القرون .

كان طبيعيا أن تهش مصر للاسلام بما فيه منها . ففيه من
ماضيها ما فيه ، وفيه من طبيعتها البساطة وعدم التعقيد والتركيب .

وفيه من مسيحيتها قصة عيسى ومريم ، وزيجة مارية أم إبراهيم
من محمد كما كانت هاجر المصرية أم اسماعيل والد عرب الحجاز .

وفي الاسلام من مسيحية مصر احساس التعاطف مع النصارى
اقرب الناس مودة للمسلمين (ذلك بأن منهم قسيسين وراهبانا وأنهم
لا يستكبرون) .

وكان ابن عبد الله القبطى وأبو رافع القبطى من صحابة الرسول .

وفي الاسلام لمسيحية مصر ، تحية طالما ردها الرسول القائل
(استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما) .

ومس قوله عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كان يقول : (أهل
مصر اكرم الأعاجم كلها وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم
رحما بالعرب عامة وبقرش خاصة) .

هذه النعمة الاسرة الرعوم تلين صلابة العناد ، وتذيب رهبة
الخوف والتهيب .

وخاصة في جو تضاربت فيه مذاهب المسيحية مما صوره كتاب
ارنولد Preaching of Islam واشتد الصراع بين أصحاب الطبيعة
الواحدة والطبيعتين ، وعنفا الاضطهاد للمسيحيين المصريين حتى
اتى على كنائسهم فلم يعد في كثير من النواحي كنيسة أو راع . كل هذه
العوامل اخلت امام الاسلام الميدان الحسى والمجال النفسى خاصة في
القرى والنواحي البعيدة - اذ كانت المسيحية ذات شأن ، في المدن
فحسب - حتى رأى فيه بعض المسيحيين مخرجا من التيه ووجد فيه
البعض الآخر (مذهبا جديدا من مذاهب المسيحية) ووجد فيه قوم
مغنا يدنيهم من الحكم والنفوذ اذ كان الاسلام دولة عامة يقوم بها
المسلمون جميعا أو على الأقل وجدوا فيه مهربا من مفارم كثيرة : مادية
كالجزية ، ومعنوية كالمعاملة السيئة التى كان بعض الولاة ضيقى النظرة
بتحقيقون بها أهل الذمة .

وفي ظل هذه الظروف انتشرت العربية فهى بحكم القرآن متداخلة
في الدين فهمى كما يقول الأستاذ الزيات (جزء من حقيقة الاسلام ..
فالقرآن ليس قرآنا الا فيها ، والصلاة لا تكون صلاة الا بها) .

واعتنقت مصر الاسلام .

لم ينقطع التيار الحضارى عن مصر .

انها بلد الكيما والقيمة منذ القدم .

ان ايمان مصر المبكر بالدين ممثلا في التوحيد او حتى في عبادة
من العبادات كالشمس او النيل طبعها على الحساسية واستشعار
الواجب والايمان بالخير والفضيلة والرحمة والعدل .

وكثير من قيمها عاش في الاسلام مع غناه الشرى بالمثل الرفيعة
والآداب العالية .

اعتزت مصر بالأسرة واوصى بها الاسلام خيرا حتى ابى عليها
التفكك ولو اشركت .

ان من يتأمل حضارتنا على مسار التاريخ يلمح احتفالها الكبير
بالباب .. احتفلت به مصر في قديمها واسلاميتها من احساسها بما في
الباب من جمع الشمل .. بما في الباب من (اسرية) .. وبعض الفرق
الاسلامية تسمى العالم ، الباب . فهو يفتح للطالب دنيا العلم .

لقد كرمت حضارتنا الباب بنقشه وتحليته . والزخرفة خبرة
ملونة ، ومحنة منمنمة .

اكرمت مصر الام ورفعتها الاسلام الى ذرى عالية . (ووصينا
الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن . وفصاله في عامين ان
اشكر لى ولوالديك الى المصير) .

ومن ماثورات مصر :

(لقد اعطيتك لأمك التى حبلى بك ، وقد تكبدت فى حملك ثقلا
عظيما وضعته بغير عون منى . وظلت ثلاثة احوام ترضعك ، فلما
ارسلت الى المدرسة . كانت تحمل الخبر والنبيد من بيتها لاستاذك
كل يوم .. لقد شبيت الآن واتخذت لنفسك زوجا وبيتا ، فارع طفلك
وربه كما ربىتك أمك ، واحذر ان تفعل شيئا يؤذيها حتى لا ترفع يديها
الى الاله فيسمع شكواها) .

وكرمت مصر الزوجة وجعلها الاسلام سكنا وامنا . (اذا كنت
عاقلا فاجعل لنفسك بيتا . احب زوجتك كثيرا . وفر لها الطعام
والثياب لمظهرها . قدم لها الدهانات والعطور ، فان علاج اعضائها
الدهانات ، اسعدها ما عشت فانها حرث ثمر . لا تكن قاسيا في
البيت فهي اسهل قيادا بالاقناع من العنف . ارض حاجاتها .. فان
ذلك ما سوف يبقياها في بيتها) .

واوصى الاسلام باليتيم والفقر وقال الادب المصرى : (كن مرضعا للمريض وأبا لليتيم) .

ومن الآداب المرمية في مصر القديمة الا يتقدم المرء من لا ولد له عند ركوب المركب ، تأدبا .

انها رعاية مصر القديمة للأبوة في الحياة ، وبعد الحياة .

لقد بدت مصر المساجد على طريقتهما في بناء المعابد . فالصحن في المسجد ، يقابل بهمس الأعمدة في المعبد . والميضة في المسجد تقابل البحيرة في المعبد . . اغتسال ونظف .

والاسلام رؤيته للامان انه بنيان مرمصوص في عملية ربط بين النفس والبناء . . بين العمارة والعمار فجاء توثيقا وتحقيقا لأربها فيه ، كما وثق وحقق رأيا في كثير مما يتعلق بالروح .

ان المسيحية بالعلية والسماحة تحقيق وتوثيق للأوريسية .

والاسلام بالتوحيد والتنزيه تحقيق وتوثيق للاختاتونية .

في القبة الاسلامية انحناء (نوت) رمز الامومة

القبة سماء .

وبدانة مصر القديمة شغوف بالسماء . فتحت الهة السماء . وبسقف المعبد تنتشر فيه الطيور والنجوم .

الولن يقف عند الرمز .

وكبير القلب والعقل يتجاوز الرمز الى الرموز كما يقول شوقي :

ذهبوا في الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيقة الزهراء
فاذا لقبوا قويا ، الها	قله بالقوى اليك انتهاء
واذا آثروا جميلا بشئ	فان الجمال منك حياء
واذا انشأوا التماثيل شرا	فاليك الرموز والايماء
واذا قدروا الكواكب اربا	فالمراد الجلالة الشماء
واذا الهوا النبات فمن آ	ثار نعماك حسنه والبناء
واذا يمموا الجبال مسجودا	فالمراد الجلالة الشماء
واذا تعبد البحار مع الاسه	اك والعاصفات والانسواء

وسباع السماء والأرض والأرحام والأمهات والآباء
لملاك المذكرات عبيد خضع والمؤنسات أماء
جمع الخلق والفضيلة سر شف عنه الحجاب فهو ضياء

ان المصرى يحتوى كيانه حسا دينيا يقف وراء نظيره الى الحياة
والاشياء .. الوجدان الدينى الذى يدركه من يقترب من روح مصر ،
فى الديانة المصرية القديمة وفى المجرى الإسلامى . واسلوب المصرى فى
الحالين يعكس حبه العابد للطبيعة المصرية .

ايمان مصر ليس الطقوس ولكنه الاتحاد بالكون .. ايمانها
استماع الى المعزوفة الكبرى للخالق الأكبر والأقدر والأعظم .

ويتفتح القلب ويشرب النغم

وتوهج الروح اذ تلمسها الشرارة المقدسة

ويبصر الانسان بعد ان رأى .

ومن الطريف ان مصر قبل الإسلام حرمت لحم الخنزير منذ اتخذ
« سيت » هيئة خنزير وفقاً عين « حورس » فحرمت الديانة المصرية
اكل لحم الخنزير .

وكان المصريون القدماء يعنون بفحص طهارة الذبائح ومطابقتها
لمقتضيات الطقوس الدينية .

والطهارة فى مصر القديمة كما جاء فى كتاب « الحضارة الطبية فى
مصر القديمة » (امر ليس بالغريب خاصة وأنه تابع عقائديا) .
كما يقول هذا الكتاب ان (النظافة كانت عندهم عقيدة قبل أن تكون
سبيلا للصحة القوية) .

وهكذا كان الإسلام فيه الكثير من مألوف مصر .

ولولا ان أخناتون حمل على الماضى كلية بما يتنافى مع الطبيعة
المصرية المحافظة ، ولولا أنه لم يجرى فى اللحظة الحضارية المناسبة ولولا
أنه لم يكن رجل سلاح حين كان المثال لفرعون أنه رجل سلاح ورجل
قانون ورجل بناء .. لولا هذه الاعتبارات لنجحت دعوة أخناتون
العظيم ولكن حسبه أن يكون أرماسة لكل ما جاء بعده من ديانات
المنطقة ..

لقد وجد الاسلام في مصر جوا مهيبا . ولامر ما تأصل الاسلام في مصر تاصلا لم يبلغه في مكان آخر حتى أن مصر هي التي دافعت عنه في مواقعه الكبرى وقامت له فيها اقدم واكبر جامعة اسلامية .

لماذا لم ينتشر الاسلام في اوربا ؟ .. لأنه واقف على غير أرضه .. ليس له في اوربا جدور خلقية ومعنوية تمده بالنماء بل ان (الفكرة الإسلامية) في اطراف العراق وفي ايران وفي اليمن تخرج عن جوهرها الأصلي (الى شيعة وزيدية) - كما ذكر الدكتور جمال حمدان - لعامل البعد واختلاف الرواسب الحضارية والفكرية .

لقد قسا المأمون على مصر بما لا تغفره له مدنية الانسان فلم يرفع سابقتها في الحضارة وأحرق قرى بأكملها مما أحدث حركة خسر وحركة تقيه ، ولكن هذا يسئ الى المأمون وحده لا الى الاسلام فليس من طبع الاسلام أو أسلوبه أن يستخدم السيف في غير موضعه أو يتوسل به الى الانتشار ولكنه دين فطرة سليمة والفطرة المصرية فطرة سليمة فتقبلته بتلقائية من داخلها تتضح أكثر وأكثر بعد أن تهمد السيوف وتغمد . والدليل أننا لم نرند عندما رحل المأمون بل تمسكنا بالاسلام أكثر من غيرنا ودافعنا عن كيانه وحميناه وأنقلناه في معاركه الحاسمة .

ما هو . سر انتشار الاسلام المذهل ؟ هل هو الجنود أو الشجاعة؟ لا .. وان كانت سببا من اسباب وان لم تكن أهم الاسباب انما أهمها تعطش المنطقة الى رسالة روحية تعطشا قائما على اساس فكري وروحي كامن فيها .

ان حكم الرومان شرنق المنطقة وجعل دياناتها ولغاتها تستنفذ فضائلها ، ولهذا كانت متعطشة الى جديد فما كاد يظهر الاسلام حتى سرى تدريجيا واللغة العربية في ركابه (لازمة) من لوازمه وسيلة للمسلم الى القرآن والصلاة .

لقد حاول الرومان التدخل في عقيدة مصر المسيحية ايام وثنياتهم فقاتلتهم وحين دانوا بالمسيحية وحاولوا التدخل في الطقوس والعبادات قاومتهم وتمسكت برأيها في هذا وأسلوبها فيه بل جنحت الى العناد فخالفتهم في الرأي لمجرد المخالفة ، خالفتهم لونا من المقاومة وأعلان السخط والكراهية ، لونا من التحدى وإثبات الوجود وكان لمصر كنيسها الخاصة بها وبطيريكها المنتمى اليها . مصرت مصر المسيحية (واستخرجت منها نسختها الخاصة : القبطية) .

ان مصر بلد الايمان على الرغم من أنها غيرت شكل دينها عدة مرات ولكن جوهر الدين في قلبها واحد عبر الاخناتونية والمسيحية والاسلام . وهو :

توحيد يتمثل في وحدة الله ووحدة الوجود .

جاء في متون الأهرام .

(ان الملاح السماوى لا يسمح بالعبور الا للصالحين والعادلين) .

وفى القرآن الكريم (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يرينون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) .

(اننى لم ادنس فمى باهانة من اهاننى) .

وتلك روح مسيحية .

وجاء في متون الاهرام ايضا :

— (قل الصدق وافعل ما يرتضيه) .

— (العادل لا يأخذ اللين من فم الرضيع) اى لا يظلم .

ان مصر التى شعرت قبل غيرها بوازع خلقى ، هى أول من بحث عن (الحق والباطل) فى تاريخ الانسان مما تشهد به مسرحية (منف) فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد .

وقد طلب الفلاح الفصيح الى الحاكم أن يفصل بين الحق والباطل بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطئ . وخدم كلمة الموازين كثيرا فى معانى الحق والعدل .

وكانت المرة الأولى التى تذكر فيها الموازين فى تاريخ الأخلاق وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد العدالة العمياء رمزا للعدل ، الى يومنا هذا .

وفى القرآن الكريم ترد لفظة الميزان والموازين فى الحديث عن الحق والحساب والعقاب والعدل .

(والله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان) ١٧ ك . الشورى ٤٢

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) ٤٧ ك . الانبياء ٢١

(والسما رفعها ووضع الميزان) ٨ م الرحمن ٥٥

وليس معنى هذا ان الاسلام اقتبس من مصر فكرة الموازين .
فالقرآن الكريم كتاب منزل وهو في الوقت نفسه كتاب يهدي الانسان
في دينه ودنياه ويروى ظمأ الانسان الى العدل والخير في أسلوب
الواقعية وينتهى الى المثالية .

وقد عرف الصفوة في ازمة مختلفة ، بالفطرة السليمة الوانا من
معاني الخير والعدل . ومن هنا كان سببهم الى الايمان بالاديان لأنها
تعبير عما في نفوسهم وافكارهم .

على ان الاديان بعد هذا ليست غايتها الاختراع والابتكار ، وانما
غايتها الهداية واشاعة الخير والعدل والرحمة .

ومن شرف الانسان أو المكان أن يهتدى في تطلعه الى السماء ..
الى معان تأتي الاديان فتعززها .

يقول المسيح : « انا الحق والطريق » .

وفي مصر القديمة كان أوزوريس هو الحق ، وهو على حق ..
وهو الخير والخصب .

ان ما بين أوزوريس والمسيح ليس تطابقا كاملا . ولكن :

كان أوزوريس بزمته الحق والطريق

وكان المسيح في عصره ، الحق والطريق

وكان محمد عليه السلام بشريعته بعد هذا ، الحق والطريق .

تواكبت على هذه الأرض القيم والمعاني والاديان . فانفتح فيها
الوعى الخلاق فاعطت ما اعطت للمسيحية ، واعطت ما اعطت للاسلام .

كانت تملك الرؤية

وكانت تملك الشباب .. شباب النفس

وكما اتيح لها الانتصار على الخوف من الموت ، اتيح لها رؤية
الحق في الأنفس والأفاق .

ونمت مصر تدريجيا في حياة المعنى والروح وأوتيت الحكمة .

وارتوى جسمها من النيل ، وارتوت روحها من النبع الأعلى
الصافي .. الله جل جلاله .

واذ وصلت مصر واتصلت ، عرفت الخلوة سبيلا الى التأمل والتفكير . فابتدعت الرهبانية في المسيحية ووضعت أسس التصوف في الاسلام .

والرهبنة تصوف المسيحية .

والتصوف رهبنة الاسلام .

لقد عرف العراق التصوف فاذا هو في العراق ينقلب الى شيع وفرق ونحل متعددة ومتعدية .. ولكن التصوف في مصر علم ومعرفة على يد ذى النون .

وقصيد ونشيد على يد ابن الفارض .

انه « ذوق » مصر الخاص

لا يسعد القلب

لا يحرك الذات

الا شوق وذوق .

وكم من اشواق ذاق حلاوتها قلب مصر فاستحال الى جدوة يستحيل عليها ان تصير رمادا .

وعندما امتزج في قلب مصر الشوق والدوق ، ابدع الفن ، ورقرق الأدب ، وارتاب العلم ، وارسل الحكمة .

تفوق القلب المصرى واعطى .. من مثابة ومصابة وحنين دائم الى التفوق والتائق والعطاء .

دين كل عكوف على عمل عظيم .

وما اكثر الاهداف التى حققتها مصر المتدنية في كل العصور .

ان الاسلام عندما دخل واراد ان يصنع شيئا ، انتقل الى شكل آخر .. فما امامه قمة ، ليس عليها زيادة لمستزيد .

وهنا تفهمت مصر روح الاسلام وفهمت ما يريد فاعطته من العلوم والفنون ما يتواءم مع عقيدة التوحيد .

مصر بعد الأديان

مصر في المسيحية

دخلت المسيحية مصر والرومان فيها سنة ٦١ م وكان في الاسكندرية صراع حام بين الأجناس والمذاهب المختلفة لم تجد فيه حركة التوفيق Syncretism وبعد تفكير تقبلت مصر المسيحية في صورتها الأولى البسيطة خروجاً من اللبلة والتيه . وقد عادى الرومان المسيحية عداً من أول الأمر وبلا تفكير مما عطف مصر عليها نكابة فيهم ومخالفة لهم ، للتعبير عن المقت والعناد ولتأكيد وجودها وازهار شخصيتها بحرية الاختيار والمغابرة . وبدا اتسعت شقة الخلاف بين مصر والرومان اذ اصبح سياسياً ودينياً معا وان كان في الحقيقة شيئاً واحداً ، فظالما لجأت مصر الى المقاومة الروحية في نزاعها السياسي .

وتبارى اباطرة الرومان - حتى بعد ايمان الدولة الرومانية بالمسيحية - في تعذيب مسيحي مصر ، واتوا في ذلك فنونا من العذاب فلم تلن لهم قناة ولم يهن لهم عزم بل تنادوا بالاستشهاد وساروا اليه ثابتى الخطو وكان هناك انفاقاً خفياً على تعمد القيام بعمليات استشهادية لاعطاء الأجيال القادمة شحنة من معنويات ودفعة من قيم ومثل وبطولات تعيش عليها .

وأضرم اصرار مصر ، حقد جلادها فتواصت بالصبر واستمسكت بالأمر ، ومضت في الجهاد - يتقدمها أوريجانوس - يضىء لها طريقه أرواح غالية استشهدت في سبيل المسيحية بل في سبيلها هي فما كانت المسيحية الا تكأة تستند اليها . لقد مصرت مصر المسيحية حتى غدت فيها دون غيرها قبطية . وكلما صالت الآراء اتخذت مصر موقفاً وقالت برأى خاص بها من فرط احساسها بذاتها وطاقه التحدى فيها . ولم يزايل مصر الشعور بنفسها بل اعتدادها بما أدت وما أعطت حتى ذهب

الأنباط في احتدام اضطهاد الرومان لهم الى القول بأن السيد المسيح لم يولد في (بيت لحم) وإنما ولد في « هيراقليوبوليس » في الطيبايد، في صعيد مصر . وذلك ارضاء لحدة الشعور بمصر وحدة التفاخر بها حتى ليكاد يجمع الدارسون على أن المسيحية في مصر كانت تعنى القومية المصرية . وكانت الكنيسة المصرية تعنى الدين والدولة معا في وقت واحد أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانه ومشيتها في وجه القوة المفاجئة .

ولم تسع حكومة القسطنطينية الا أن تعترف بهذه الحقيقة الواقعة . وكانت تستعظم قوة البطرك الوطنى أحيانا ، فترسل الى مصر بطرقا على مذهبها يدير كنيسة الى جانب الكنيسة الوطنية ، ويتبعها المسيحيون من اليونان والرومان غير الوطنيين .

ولكن عاصمة الدولة الرومانية كانت تابعة في العرف الدينى لكنيسة الاسكندرية لانها أقدم الكنائس وأكبرها في المشرق والمغرب .

لقد كان البطرك الاسكندري رأس الدين المسيحى فى العالم كله قبل رؤسائه فى العاصمة الغربية والعاصمة الشرقية ، وكان من بطارقة الاسكندرية من يقول « ماذا يعيننى من الامبراطور ؟ اننى هنا الامبراطور » .

وكان صادقا فيما قال ، لأن الناس كانوا يطيعونه ويؤمنون بأن طاعته من طاعة السماء . أما الامبراطور فمهما يكن من أمر طاعته القسرية فهى طاعة أرضية على كل حال ! .

ونقل المؤرخ جيون من اخبار الناسيوس السكندري (٢٩٦ - ٣٧٣) انه كان يخاطب الأباطرة مخاطبة الند للند . سألته الامبراطور قسطنطينوس مرة : (لم لا تأذن باقامة الكنيسة الارية فى الاسكندرية) فكان جوابه : (اننى سأذن بها يوم تأذن أنت باقامة كنيسة اوثوذكسية فى انطاكية) .

وبلغ من مقاومة مصر ان بطاركتها كانوا يصدرون الرسائل والكتب للدعوة الى مزيد من الاستشهاد وكانت الجموع رالحة غادية ما بين السجن وساحة الاستشهاد على وقع الأناشيد الحماسية امعانا فى التحدى واذلالا للرهبوت - الذى ظن انه على اربابهم لقادر .

وامعانا فى التحدى سمو التقويم المصرى « تقويم الشهداء » .

وطار صواب البنى طويلا ثم تاب فاوقف الجبابرة المذابح ثم خطوا

خطوة اكثر فامنوا المسيحيين على انفسهم وانتهى الامر باعتناق
الامبراطور « قسطنطين » المسيحية .. وابتمت مصر .

وكانت المقاومة قد اذكت شعور النفرة من كل ما هو اجنبى .
وشملت الصحوة فيما شملت اللغة والادب فتزعم الانبا شنودة محاربة
اليونانية التى كانت لغة الحكام انتصارا للقبطية التى كان يصطنعها
فى الحديث والكتابة تمكينا لها . واذ تولى رياسة الدبر الأبيض غدت
اللهجة الصعيدية هى اللهجة الادبية للكنيسة القبطية فى ازهى عصورها .
وسرت دعوته وصبلت عملها .. واذ غزت القبطية الميدان تفهقرت
امامها اليونانية حتى اذا طلع القرن السابع الميلادى كانت اللغة القبطية
هى لغة الادب والحديث بعد ان تخلصت حتى من الالفاظ اليونانية
الدخيلة عليها .

وبعد ان كان الأقباط قد أثروا الادب اليونانى بكتاباتهم اليونانية
التسموا طريقهم السليمة وكتبوا بلغتهم القومية وأودعوها ترجمة
الكتاب المقدس وافعال الآباء وسير القديسين والقصص والاصلاح
الاجتماعى والاداب الكنسية .

واهتمت أوروبا فى عصر النهضة بالمخطوطات القبطية فتوالى
الزيارات على مصر لهذا الغرض وامتلات المتاحف والمكتبات العامة فى
أوروبا وأمريكا بكتابات مصر المسيحية وقامت لتداولها أقسام خاصة
بالجامعات وذاعت فى اللغات الأوروبية الفاظ قبطية متعددة مثل الواحة
(وازيس) و (السوسن) و (أسقيط) ومنها اسم الناسك فى اللغات
الأوروبية . بل ان الأبجدية الروسية دخلت عليها بعض حروف قبطية
مأخوذة من الديموطيقية .

ويصف (جوجيه) انتقال مصر من اليونانية الى القبطية فيقول
فى دهشة لا تخفى : (لقد سعى الاسكندر الأكبر سعيه ليصبغ الروح
المصرية بالصبغة الهيلينية واقتفى البطالمة اثره فى ذلك ، وحاولوا
جهدهم أن يستميلوا المصريين ويضفوا على الفكر المصرى
مسحة يونانية بحثة وقد ثابروا فى هذه السبيل مدة ستة قرون
يحاولون فيها الوصول الى غرضهم . وخيل اليهم أنهم نجحوا فى
الوصول الى هدفهم لما راوا المصرى وقد شغف بمختلف انواع الثقافات ،
ياخذ منها اينما وجدها ، ويستمتع بالفن حيثما يلقاه . ولكن المصرى
له قدرة عجيبة على تكيف الفنون وفق مزاجه ، ويستسيغ العلوم
بحسب ذوقه . وهو - بعد هذا كله - مصرى تأصلت جذوره فى هذه

التربة التي ازدهرت فوقها حضارته العريقة . فالمصرى مع كل ما يهضمه من علوم وفنون غريبة فخور بماضيه ، مشغوف ببلاده ، فهذا الفخر وهذا الشغف تأصل فيه الى حد بعيد الغور ، فهو ثابت في مصريته بحيث لا يمكن اقتلاعها منه او تحويله عنها مهما تنوعت المؤثرات) .

عرفت مصر المسيحية وجهتها ، فلم تتردد في حمل المشعل من جديد . .

كتبت مصر المسيحية ، وتلقف كتابتها علماء الشرق والغرب مترجمين وشارحين وقد بهرهم من مصر أوريجانوس . بل كان أساتذة الاسكندرية وبطاركتها عبد اللاهوت في العالم المسيحي كله وحظيت كتاباتهم بمركز الصدارة من شهرة ذائعة .

ومن مصر نقلت إيطاليا ، مركز البابوية ، واليونان وايرلندا ، مراسم النسك ، حتى بلغ من أسوة مصر وقلبية شخصيتها أن دير مونت كاسينو في إيطاليا لا يكاد يختلف عن أى دير باخومي في قنا .

وأخذت مصر المسيحية دورا لامعا في المجامع العالمية (المسكونية) التي كان الأباطرة يدعون إليها أساقفة مندوبين عن كنائس العالم المسيحي كله . واذا يتعقد جمعهم تتميز مصر فتسند الرئاسة (في أغلب الأحيان الى بطاركة الكنيسة المصرية) بما يمثلون من قوة شعبية جارفة أقضت مضاجع الأباطرة الرومانيين حتى ليعتبر تاريخهم وسيرهم جزءا من تاريخ مصر العام .

ومصر المسيحية المصدر الأول لعلم اللاهوت بما خطه فيه اثناسيوس الذي تألق في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وان مؤلفاته التي وضعها عن (تجسيد الكلمة) و (الرد على الأريوسيين) و (الروح القدس) لتعد ركيزة لكل ما كتبه مشاهير اللاهوتيين . وفي أوروبا قول سائر في ذلك الحين :

(اذا وجدت عبارة من أقوال اثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها فاكتبها على قميصك في الحال) .

وقد سجل الغرب اثر مصر الروحي في كتب :

(بستان الرهبان) و (المعاهد) و (المقابلات) .

كما اثرت تعاليم باخوميوس في حركة الاصلاح الكوني تلك الحركة

الكبرى التى كان لها اثرها فى توجيه المدنية فى العصور الوسطى .

لباخوميوس المصرى تدين ، فى نشأتها ، جماعات الفرنسيسكان والدومينكان بل اليه ينسب الفضل فى قيام النهضة الادبية الفكرية الاولى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بما هى اثر من اثار تلك الهيئات الدبرية وبما اقترن بها من قيام العلوم الانسانية ونشأة الجامعات فى العصور الوسطى .

والى مصر ينسب نظام الحياة الديرية فى الرهبة المسيحية كما ينسب اليها نظام التوحيد فيها وهما من عمل باخوميوس وانطونيوس بما اعانت عليه صحراء مصر من تهيئة الخلوة للتأمل والخلود الى القوة الكبرى التى ابدعت السماء والضياء والصفاء .

يقول الدكتور مراد كامل :

(رغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية كجماعات فقراء الهنود والاسينيين اليهود ، الا ان الرهبة المصرية كانت اتجاها مسيحيا اصيلا غير متأثر بتلك الحركات النسكية السابقة عليها لاختلافها عنها فى الهدف والفلسفة والاسلوب كما ان الرهبان الاول الذين اسسوا هذا الطريق لم تكن ظروفهم البيئية او العلمية لتمكنهم من الاطلاع او السماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها) .

لقد كانت صحراء مصر جامعة كبرى امتها الطلاب من كل صقع حيث انتشرت فيها الاديرة وقلالى النسك حول كل معلم تتحلق الندوة من بنى جنسه (وهذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشرت فى رحابها نظام الأمم وايضا نظام الأروقة فى الجامعات الأزهرية) .

وهكذا كانت مصر رائدة بل ان (مافى) يذكر فى كتابه «امبراطورية البطالة » ان جامعة الاسكندرية اتخذت نموذجا لكل الجامعات التى تلتها ، فعلى غرارها نشأت جامعات أوروبا الوسطى فى العصر الوسيط .

لم تنشأ المسيحية فى مصر بل جاءت بها ومع هذا فان مصر هى التى حملت رسالتها فعلى يد مصر دخلت المسيحية الحبشة فى منتصف القرن الرابع الميلادى كما دخل الاسلام فيما بعد قلب افريقيا على يد مصر ايضا .

يقول الدكتور حسين مؤنس عن انتشار الاسلام فى السودان :

(.. حملة المصريون أو العرب النازلون بمصر ، وهم مصريون ،
دفعتهم الى ذلك طبيعة البلد الذي استقروا فيه واتخذوه وطناً ،
والا فلماذا لم يدخل العرب الاسلام من جزيرتهم ، والعبور الى السودان
يسر وكانت حركة انتقالهم من الجزيرة الى السودان عبر البحر الأحمر
مستمرة طوال العصور الوسطى ؟ لماذا لم يحمل الاسلام الى النوبة
ومقرة وعلوة الا عرب مصر دون عرب الجزيرة اجمعين ؟ ولماذا تسود
ثقافة مصر بلاد السودان ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي مع أن
مصر ليست في طريق الحج من السودان ، وانما كان الناس هناك
يحجون عبر البحر ؟

... ان مصر تقوم بهذه الرسائل قبل الاسلام بزمن طويل ،
والأسباب اخرى غير وقوعها على طريق الحاج ، وهذه الأسباب هي
موقعها الجغرافي وطبيعة اهلها واتجاه تاريخها ..) .

وعلى يد مصر وصل التبشير بالمسيحية الى الجزر البريطانية
فقد ذكر بشار Butlar (انه يوجد الى يومنا هذا بلدة أوليذه
في روت بايرلنده قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر
اسماؤهم في الصلاة بكنيسة تلك الجهة) شاهد امتداد شخصية مصر .

بل ان أقباط مصر هم الذين نشروا المسيحية في فرنسا الجنوبية
وبليجكا وسويسرا .

بل نقلت روما مركز الحضارة الغربية ، والقسطنطينية مركز
الحضارة الشرقية كثيراً من تعاليم الدين الجديد عن مصر . (ونقلنا عنها
الكثير من الرموز والتقاليد كما نقلنا عنها كثيراً من فنون مصر واتخذنا
منها منبعاً للوحداث الزخرفية التي قرب فيها المصري بين نماذجه
القديمة وبين دينه الجديد) كما يقول الدكتور مراد كامل بل ان
الطريقة المصرية القديمة في التصوير وهي طريقة التصوير بالوان
الأكاسيد على الحوائط المغطاة بطبقة من الجبس انتشرت في الغرب منذ
العصر الروماني حتى عصر النهضة .

وبلغ من النفوذ الروحي لمصر المسيحية أنها كانت ترسل الاساقفة
الى ما حولها من البلاد حيث كانت لهم في كل بلد مكانة ممتازة ، تبعث
الكنائس فيها للكنيسة في مصر . فالمطران المصري في الحنة كان
رئيساً للكنيسة الاثيوبية . والأسقف المصري في قبرص كان اختصاصه
يشمل قبرص ورودس معا . (كما ذكر « برستر » في بحث نشر بمجلة

جمعية الأناث القبطية) وتبعت المسيحية في النوبة كنيسة مصر حتى نهاية حكم الماليك .

واننا لنعجب لمصر كيف كانت في القرون الأولى للمسيحية تابعة للرومان ثم تستطيع أن تتبع الآخرين لها ومن بينهم روما . فمصر لا روما ولا أثينا ، هي التي كانت مصدر التشريع الكنسي للعالم المسيحي . من مصر قام القديسون أنناسيوس وجيروم ويوحنا وكاسيوس واوغسطينوس وباسيليوس وباتريك بنقل قوانينها وحياة رجالها الى إيطاليا وبلاد الغال ومارسيلييا واليونان وإيرلندة ويندكت في القرنين الرابع والخامس الميلادى ولا تزال هذه القوانين باقية حتى الآن باليونانية واللاتينية .

يقول : ج . م . م . كريد J.M. Creed (ما من بلد أثر في انتشار الدين المسيحي أعظم مما فعلت مصر) .

لقد نشرت مصر الرهينة بسماتها المصرية في أنحاء العالم . والرهبنة المصرية لم تهو البطالة والكسل ، حتى التفرغ للدين والامعان في النسك لم يعزلها عن العمل .. فلم تغفل عن حاجة الحى اليه ليعيش .

وكما قال رسول الاسلام لمن اتوه يمتدحون متعبدا ، فمن يقوم على طعامه وشرابه ؟ قالوا : كلنا .. قال : كلكم خير منه ، قال بولس الرسول قبله (ان من لا يعمل لا ياكل) .

وقد قام الرهبان المصريون بالأعمال المختلفة وعلموها اتباعهم تصونا عن الحاجة وتكرما عن السؤال وغلبا على الملل وقهرا لشهوات النفس .

يقول الأستاذ شفيق غريال ان (الرهينة في مصر لم تكن أمرا روحانيا صرفا ، بل كانت عاملا في التطور الاجتماعى ، والتطور الدينى فارتت تبعا لذلك في مصائر البلاد بأجمعها) .

ويقول (هرناك) المؤرخ الألماني فيما رواه عنه الدكتور مراد كامل :

(أن النساك المصريين كانوا يعتبرون في جميع العصور - حتى في نظر الغرب - آباء ، ونماذج الحياة المسيحية الحقيقية) .

وعن آباء مصر صنفت البحوث والمؤلفات التى ترجمت الى اللغات الأوروبية الحديثة مع تراجم حياتهم وتسجيل أقوالهم ومن كتاب هذا

الميدان بلاديوس وكاسيان وجيروم وبوسيه صاحب الكتاب الخاص
بأقوال الآباء Apophtegmata Patrum

وأن كتاب (حياة أنطونيوس) وحده الذى وضعه الانبا اناسيوس
استجابة للحاج روما قد أشعل روح الرهبنة والنسك في بلاد الغرب .

يقول الأستاذ محمد شفيق غربال : (إذا كان الفن القبطي تعبيراً
عن الخصائص الدينية لمصر المسيحية ، فإن نشأة الرهبنة ونموها لدى
وجه آخر من أوجه التعبير ، يعتبره العلماء أكثر ما ساهم به الشعب
المصرى بروفاً وجلاء في تراث المسيحية) .

كانت مصر في القرون الأولى للمسيحية تابعة للرومان ومع هذا
كانت **موقل الأحبار** ، فعلى أثر مجمع خلقيدونية هرع إليها الأب
ساويرس بطريرك أنطاكية ليأذا بها من يطش الامبراطور يوستينوس ،
فقطب عيشه بها وحسنت مستقراً ومقاماً .

وكما تميزت شخصية مصر في المسيحية تعيزت (**الغنوسية**)
فاختارت لنفسها منها بنزعة النسك فيها ، اسمى مراتبها ، مرتبة
التصوف والترفع على المادة والحس ..

ومن عجب أن الغنوسية (لم تظهر في قوتها الا منذ القرن الثانى
حين انتشرت في مصر) .

وفي مصر اخذت الغنوسية طابعا شاعريا له جمال وفيه فن
فقالنتينوس المصرى كما يقول الدكتور مراد كامل (هو مؤسس أعماق
وامتع الأنظمة الغنوسية وأكثرها تأثيرا ورواجا) .

وكانت مصر من خلال فالنتينوس أستاذة ومدرسة وحدها وقد
أثبتت الكشف الحديثة في نجع حمادى عطاء مصر في هذا الميدان .

هذه هي مصر في الغنوسية ، صاحبة دور كشائها أبداً .. أما
الأنطاكية الحديثة فهي وليدة مصر التي حولت الهيئية إلى لاهوت .
ولم تسيطر مدرسة مسيحية في العالم كما سيطرت مدرسة الاسكندرية
التي صارت العاصمة الثقافية للعالم المسمى والوثنى على السواء
بلا تفرقة في الدين أو الجنس .. بلا تفرقة بين ذكر وأنثى .. بلا تفرقة
بين سيد وعبد .. كانت الاسكندرية عاصمة ثقافية ديمقراطية بما علمت
من طلاب وأخرجت من اساتذة ، صاروا في شعوبهم أعلاما حتى أن
بطريرك الاسكندرية كان يلقب بـ « قاضى المسيحية في العالم » ، وم

تخرج على يد أوريجانوس المصري من أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب .
ولم تعرف المسيحية فيلسوفا في مصر وفي العالم المسيحي كله طوال
عصوره المتتابعة مثله .

ويقال ان أوريجانوس كتب ستة آلاف مؤلف وأقل تقدير يجعل
مؤلفاته حوالى الألف . وحتى هذا لا يجوز في منطق العقل وان كان
يدخل في باب الأساطير التي تستعذبها الشعوب في عملية تأكيد للذات
خاصة حين تنوش هذه الذات الأحداث .

وسواء أصبح هذا أم لم يصبح فان له دلالة على عطاء مصر ،
وصبرها على الدرس والاطلاع ، وطاقاة القدرة فيها لا سيما اذا عرفنا
ان أوريجانوس كان يعلم في جو محفوف بالمكاره حتى ضاقت به المدينة
فكان ينتقل من منزل الى آخر أمام المطاردة المحمومة ، فلم ينكص ولم
تفل له ارادة بما فيه من جلد مصر وأصرارها حين تريد .

وعلى يد مدرسة الاسكندرية الوثنية ورجالها المصريين تخرج في
المعهد اليوناني والروماني علماء العالم القديم في الطب والتشريح
والكيمياء والصيدلة والهندسة والفلك .

وعلى يد مدرسة الاسكندرية المسيحية ورجالها المصريين تخرج
علماء العالم المسيحي في هذه العلوم بما ورثه أقباط مصر عن قدمائنا من
دراية فيها وبراعة مشهودة .

وفي العلوم أسست مصر علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح . وهي
صاحبة نظرية الدرة وواضعة تذكرة الطب المشهورة باسم تذكرة
كرنيليوس كلسوس وظلت الدنيا تستعمل عقاير مصر القديمة الى
القرن الثاني عشر .

ووضعت مصر المسيحية غالبية المصطلحات الطبية وعليها تتلمذ
جالينوس ولها شهد (نيتولتسكى) في كتابه الطب الشعبي المقارن .

لقد سبقت مصر بفضل . . هيروفيلوس ، العالم طرا في دراسة
الأمعاء الدقيقة كما سبقت الى اصطناع البحث العلمي بفضل اقليدس
صاحب (المبادئ) .

ومصر المسيحية هي التي وضعت في الفلك حساب الأبقطى .

وحين تضاربت أقوال علماء المسيحية في تاريخ عيد القيامة سنة
٣٢٥ م اشراب مجمع نيقية الى مصر . فحسمت الموقف وحددت .

التاريخ ، بل حددت مصر الأعياد وأوقات الصيام للعالم المسيحي كله .
ومصر هي التي وضعت النظام الرعوى الذي يبدأ من الأسقف
وينتهي إلى الشمس . وعن مصر أخذته بقية الكراسي الرسولية .
ونزعة مصر إلى التنظيم والتنسيق والتحديد ستظهر بعد هذا
في عهدها الإسلامي في علوم الأدب والدين .

وقدمت مصر أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ، وفي القدم
أيضا كانت موسيقى مصر الكنسية (أقدم مدرسة موسيقية معروفة
في العالم) . بل تكاد تكون أغناها أيضا بما انبثقت عنه من موسيقى
مصر القديمة التي تحمل أسماءها إلى اليوم الحانا .

يقول الفيلسوف الاسكندري فيلو (ان بعض الألحان الشائقة إلى
الآن في الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد
فاللحن السنجاري نسبة إلى بلدة سنجار التي تقع شمال محافظة
الغربية وعرفت منذ أيام رمسيس الثاني وكانت تحوطها الأديرة في
العصر القبطي ، وكذلك الأتريبي نسبة إلى أتريب القديمة بالقرب من
الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة إخميم .

وأخيرا قدمت مصر المسيحية إلى العالم « رمز السلام » بما بثته
في القصور القبطي من رفع العلم طلبا للأمان .

وكما كانت الاسكندرية رائدة في ميادين العلم والدين كانت تعمل
جاهدة في ميدان الفن ، فمهرت المدينة صاحبة (الطراز) التي كانت
تحدد أسعار الحرير للعالم المتمددين ، في تشكيل الرمر وفن التصوير
وصناعة الزجاج والفسيفساء والسفن والورق مادة الكتب التي عرفت
الاسكندرية منذ القدم تأليفها وزخرفتها وتصويرها ورسمها ، مهت
بل انفردت بصناعة الأواني الذهبية والفضية حتى ليعدّها « شربير »
Shreiber أستاذا في هذا المضمار .

واحتشدت البحوث الأوروبية في النصف الأخير من القرن التاسع
عشر لدراسة الفن القبطي مسجلة كما جاء في كتاب (تراث العصور
الوسطى) أن مصر المسيحية أحد المنابع الكبيرة التي سقت الفنون
الرومانية بعد جفافها وجودها .

ان العالم اليوم يدرس مصر المسيحية في الفلسفة والأدب
والتاريخ والفن . ومن أعلام الدارسين في هذا المجال Lefort, Crum

وخرج الرومان من مصر المسيحية ودخل العرب فتغير الإطار وظلت الصورة هي هي : وظل الأقباط يحملون لواء العلوم الى ما بعد دخول العرب مصر بعشرات السنين ومضت مصر في هوايتها المحبوبة تتدارس العلم وتجدد الفن وتبدع الآخر

وتلفت العرب حولهم فوجدوا فنونا وصناعات لا علم لهم بها ولا دراية لهم فيها فاكثفوا بالخراج وشئون الحرب حتى الدواوين ظلت تكتب بالقطبية .

يقول الدكتور أحمد أمين في كتابه « فجر الإسلام » (واذا كانت هذه الأمم المفتوحة أرقى من المغرب مدنية وحضارة وأقوى نظما اجتماعية ، كان من الطبيعي أن تسود مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم ، واذا كان العرب هم العنصر القوى الفاتح عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم ، فسادت في البلاد المفتوحة النظم التي كانت متبعة من قبل الفتح ، كنظام الدواوين ونخوه ، وأقر على ما كان عليه ، حتى لغة الدواوين نفسها ظلت باللغة الأصلية الى عهد عبد الملك بن مروان) .

وحين تطلع العرب مع الزمن الى شيء من فن مصر وعلومها لجأوا الى الترجمة عنها فأمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينقل الى العربية كثير من الكتب اليونانية والقطبية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية وتبعه كثير من الخلفاء والولاة .

يقول الأستاذ محمد شفيق غربال في حديثه عن احتفاظ مصر بذاتها مع ملامعتها بين العناصر الثقافية المستوردة وبين البيئة المصرية الخاصة :

(وهنا نقرر ما كان للعناصر المسيحية المصرية في البلاد من الأثر الكبير في إجراء تلك الملامعة سواء منهم في ذلك من احتفظ بمسيحيته أو تحول الى الإسلام ، فقد علموا الوافدين على البلاد كيف يعيشون تلك العيشة التي تلائم خير الملامعة ظروف مصر ، من حيث أساليب الزراعة وطرائقها ، ونظام حيازة الأراضي ومسحها ورعيها ، وما يستتبع هذا كله من نظم ادارية ، وكذلك الصناعات القائمة على استخدام المواد الأولية التي بين أيديهم على أحسن ما يتفق وأحوال البلاد الطبيعية ، هذا الى جانب وضع الأنماط والرسوم التي ترضى أذواق الأهاليين المتوارفة . أما عن مساهمة الأقباط في الجوانب العقلية من الثقافة الإسلامية فأمر ليس من اليسير الكلام فيه ، واني لأرى ان من الأسلم

لنا ان ندمج العنصر المسيحي المصرى الخاص في مجموع ، ما ساهم به الفكر الهليني والفكر السرياني المسيحي في بناء صرح الثقافة الاسلامية عامة ، ولا استثنى من هذا القول الا شيئين اولهما : ان ثمة ظروفًا مصرية محلية اثرت في اتجاهات معينة للفقه الاسلامى .

وثانيهما : هو اثر مساهمة الأدب الشعبى المصرى القديم في الأدب الشعبى العربى .



نظر العرب الى المصريين فوجدوهم يكتبون على البردى كاسلافهم في قديم الزمان ويغلفون الكتب ويخرفونها فاستشرفوا الى الكتابة والزخرفة فيها على مثال مصر . وفى مكتبة جونا كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق في كتابه « الفن المصرى الاسلامى » (فى مدينة ميونخ رقى يتضمن صفحة من القرآن بها زخارف بسيطة واشربة تفصل بين السور بعضها وبعض تتضمن زخارف هندسية متأثرة بالفن القبطى الى حد بعيد) .

بل ان جلود الكتب فى العصر الاسلامى انما يحدد تاريخها الكتابة القبطية الموجودة على أوراق البردى المستعملة فيها .

وليس البردى وحده او زخرفة الكتب ، بل ان التقاليد القبطية فى زخرفة الخشب استمرت سائدة بعد الفتح العربى . ويضم المتحف الاسلامى الكثير مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية .

بل استعان العرب بقبط مصر ، خارجها ايضا فاستعان بهم الوليد فى بناء مسجد دمشق والمسجد الاقصى وقصر أمير المؤمنين ، ويضيف « البلاذرى » فى فتوح البلدان مسجد المدينة فيما أعانوا عليه وكان الوليد يرسم خطأ أسلافه الذين استعانوا باقباط مصر فى إعادة بناء الكعبة قبل الاسلام . وكان مصر منذ بنى ابراهيم واسماعيل بن « هاجر » المصرية ، الكعبة ، آلت على نفسها ان يكون البناء على يديها فصادت الى بناء الكعبة أيام الظاهر بيبرس ، وفى العهد العثمانى ، وفى عهد محمد على .

وحين ارادت الملكة السمودية فى العصر الحديث ان تقوم بأعمال البناء لم تختف مصر من المسرح ولم تتحول الاضواء عن قسماتها اذ قام بتصميم البناء مهندسون مصريون وارسلت ، التصميم ، القاهرة ، لينفذ فى الحجاز .

ان أقباط مصر هم الذين بنوا أول محراب مجوف في الاسلام على مثال من حنية الكنيسة كما تائر بفن مصر المسيحية في الزخرفة والبناء قصر المشتى في شرق الأردن الذى يلمح السدير الأبيض والدير الأحمر بسوهاج .

ومن عطاء مصر للفن الإسلامى بعد المحراب : المئذنة والقباب .

جاء فى كتاب The Art of Egypt Through the Ages ان فنار الاسكندرية الذى بهر العرب عند فتح مصر، هو الأصل الفنى للمئذنة .

El Manarah' as they called it, gave the name to, and became the model for, the minaret and one can still find minarets in Egypt that exactly reproduce the design of Sostratus — the bottom storey square, second octagonal, third round.

ونفض المصريون أقباطا ومسلمين فى العصر الفاطمى بالفن الإسلامى المصرى نهضة فيها من احساس مصر ووجدانها وذوقها الحضارى ما أضيف على فن مصر الإسلامية طابعا مميزا وشخصية فذة حتى ان بعض آثاره كمشهد الامام الشافعى يعد كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق منعدم النظير فى مصر بل وفى العالم الإسلامى اجمع .

ومن هذا المستوى مدرسة السلطان حسن التى اشاد بها الرحالة من شرقيين وغربيين وفى مقدمتهم المقريزى .

من أجل هذا وغيره يقول الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق :

« ان الفن القبطى ليعتد أصلا من أصول الفن الإسلامى عامة والفن المصرى الإسلامى خاصة » .

يقول الدكتور مراد كامل عن الفن القبطى :

« نجد فى الفن القبطى زخارف أساسها المثلثات والمربعات والدوائر والخطوط المتلاقية والمتقاطعة ، مستخدمة فى كل شيء ، ولا ننسى ان ننبه الى ان هذه الخاصية ، وخاصة الثرين التى سبقتهما كانتا كثيرا ما تتجنان نحو أمور رمزية ، وقد دفعت هاتان الخاصيتان بالفن القبطى بعيدا عن الواقع وتصوير طبيعة الإنسان ، الأمر الذى قد يجر الى مظاهر خبيثة لا يوافق عليها رجال الدين .. وحين دخل العرب والاسلام مصر وجدا تربة خصبة للتعبيرات الفنية ، فأخذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التى تناسب العرب والدين الإسلامى

مما نراه واضحا في الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية التى تبعد عن تصوير الأشخاص وهكذا نجد صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره الى الفن المصرى الاسلامى » .

ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال فى كتابه : « تكوين مصر » .

« ان طرائق الفن القبطى وأساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر الاسلامية وصناعاتها وهذا دليل آخر على أهمية العنصر المسيحى فى تكوين مصر » . ص ٧٣ - ٧٤

أنا لا أريد أن أسترسل فى امتداد مصر المسيحية - بل مصر الفرعونية - فى مصر الاسلامية . . ولا فى عطاء مصر المسيحية للعرب فلعل مثل هذا الحديث أدخل فى باب مصر الاسلامية باعتبار عنصر الزمن الذى تمت فيه عملية التمهيد .

مصر في الاسلام

دخل العرب مصر في فجر الاسلام فراعتههم مصر . فمن مصر صناع
اليدين ، لبسوا (البدنة) وغالوا بها حتى جعلوا ثمنها « ألف دينار »
ومن مصر اتخذ الخلفاء والأمراء لباس النعمة ، بل من مصر كانت كسوة
الكعبة منذ عهد عمر بن الخطاب الى اليوم .

مصر في عين العرب دار الطراز وجزيرة الصناعة (صناعة السفن)
التي كانوا يندبون لها أقباط مصر وعمالها في كل ناحية من نواحي
المملكة الاسلامية يستوى في هذا العباسيون والفاطميون والأيوبيون .

وعلى اكتاف مصر قام للاسلام اسطول ، وبأسطول مصر انتقلت
الى الاسلام سيادة الحوض الشرقي للبحر الأبيض يوم اعانته ، كدابها
أبدا ، في معركته البحرية مع البيزنطيين فخرجت القوة الحاسمة منها
لتهزم أعداءه في موقعة « الصواري » وهي مكرمة للاقباط الذين قادوا
السفن المصرية في المعركة وشهادة لمصر السمحة التي تعرف
في الشدائد .

يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه «مصر ورسالتها» .

(استمرت مصر تحبل مسئوليتها عن حضارة البحر الابيض
المتوسط حتى الفتح العربى وفترة طويلة خلاله ولكن ذلك الاهتمام
بالبحر لم يلبث أن تضاعف ، لأن العرب حرصوا على أن يقطعوا صلات
مصر بالبحر وما يليه ، قطعاً لكل أمل للروم في العودة الى مصر ، وتأميناً
لها من أخطار الغزو من وراء البحر .

وشيئاً فشيئاً أقفل هذا الباب ، وانقطعت علاقات مصر بالبحر
وفقدت الاسكندرية أهميتها ، وتحولت الى قرية على البحر . أجل هذا
البلد الذى كان درة البحر الابيض والذى وجده العرب لدى دخولهم
عجيبة من عجائب الزمان : بيوته من المرمر وقصوره من الفضة والذهب
كما يقولون .. هذا البلد الذى هو رئة مصر التي تتنفس بها ، لم يعد له
في تاريخ البحر الابيض مكانة تذكر ..

وكان هذا الفصل بين مصر وعالم البحر الابيض نذيرا بالنكبات . فلم نعد نعلم مايجرى وراءه شيئا . وقد فوجئنا بذلك اول نزول الصليبيين . « ثم » فاجانا الفرنسيون عندما نزلوا بلادنا فى صيف ١٧٩٨ ، وكان هذا ايدانا بعصر الاستعمار الطويل الذى لم نخلص منه الا بالأمس القريب) .

وكما خرجت السفن من مصر لنجدة العرب فى موقعة «الصواري» خرجت السفن المصرية للرد على الصليبيين اذ ارادوا قطع الطرق التجارية عن الشرق العربى ، كما خرجت الجيوش المصرية لدحرم فى حطين .

حتى مدينة الفسطاط اما نشأت كما يقول الدكتور حسين مؤنس) على أساس موضع كان مسكونا قبلا ، أعاد العرب تخطيطه وتنظيمه بمعاونة أهل البلاد . فلم يكن العرب بنائين . وليس لدينا مايدلنا على أنهم بنوا مدينتهم هذه بأيديهم وما تقوله المراجع من أن اسمها مشتق من فسطاط عمرو بن العاص فرض لايمكن رفضه تماما ، وإن كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «فوساطون» اليونانى بمعنى الحفر أو «الخندق») .

وكما بنت مصر للعرب الفسطاط والسفن ، بنت لهم المساجد ، والقلاع ، والحصون ، والأسوار ، والأبواب .

انها روح مصر التى تطل علينا من برجى قلعة صلاح الدين فان براعة البناء فيها براعة مصرية قديمة .

لم تكن مصر تنظر الى العرب ، على أنهم غالبون اللهم الا للروم الذين كانت تبغضهم . أما هي فبقيد كانت تعرف لنفسها حقا بداية الحضارة - وآية شعورها هذا انها كانت تتندر من العرب الفاتحين فى مواجهتهم ، فعندما بنى عمرو بن العاص حماما قال القبط ضاحكين: يصلح للغار فبنى عمرو حماما آخر كبيرا نزولا على ملاحظة « أهل العلم » . واذ عرف العرب الحمامات فى مصر تحدثوا عنها طويلا شأن الانسان مع الشيء المستحدث ، وذكروا فى كتب الأدب والتاريخ صفاتها ومزاياها وآدابها ، بل وجدرانها .

واحس عمرو بدكائه الفطرى الفرق الشاسع بين جنوده من ابناء البادية وبين المصريين فتودد اليهم منذ البداية وأولم لهم وشاورهم فى

الأمر وأخذ بآرائهم حتى الرسالة المشهورة التي تنسب إليه في وصف مصر يعزوها الدكتور مؤنس إلى «من كان حوله من كبار القبط» . (١)

فتح العرب مصر فاعتزتهم الدهشة مما وقعت عليه عيونهم من آيات حضارتها حتى لا يكاد يسلم واحد من جغرافيتهم من الخلط بين الحقيقة والأساطير من بحر الإعجاب وبعض هؤلاء المقدسي وصاحب الكواكب السائرة وصاحب المسالك وياقوت واليعقوبي وابن رستاه وابن حوقل والادريسي والمقريري ، وغيرهم ولا يناقض هذا آيات حاتقة ممن لم ينل أصحابها مأربهم .

رأى العرب عندما فتحوا مصر حضارة لا عهد لهم بها ، وراوا صناعة لا يعرفون أسرارها ، وراوا عمارة استهولوا أمرها حتى عمرو الذي تحكى الروايات والمؤرخون أنه رأى مصر قبل الفتح وتردد عليها . حتى عمرو كتب إلى الخليفة يصف له فتح الاسكندرية انى فتحت مدينة لا أقدر أن أصف ما فيها . (٢)

هذا عمرو ، أما من معه فبعض ما كان من دهشتهم أن العربى في زمن الفتح كان اذا دخل الاسكندرية (انخلد قطاء لعينيه يقيهما بهر

(١) ارجع أن الرسالة كتبت في عصر متأخر ونسبت الى عمرو . . وذلك لأسباب فنية تتعلق بأسلوبها . . على أن الخطاب بما يشيع فيه من خفرة ، أن لم يكن من نص كلامه فهو من صميم رأيه وعياله لا مرأه .

(٢) يقول الجاحظ في حديثه عن الامم . . (والعرب لم يكونوا تجارا ولا صنعا ولا اطباء . ولا حسابا ولا اصحاب فلانة ليكونوا مهنة ولا اصحاب زرع لخلوفهم من سفار الجزية . . ولا طلبوا المعاش من السنة المكاييل ، وروس الموازين ، ولا عرفوا الدوايق والقراريط لعين حملوا جدهم ورجعوا قواهم الى قول الشعر بلغوا في ذلك القاية) . رسائل الجاحظ .

ويقول الدكتور أحمد أمين (وما كان عندهم من فن فهو حتى اسمه مستعرا من الامم الاخرى ، فكلمة تجار واسلحة وصنائع مأخوذة من اللغة الارامية . وكلمة صنف وشباك وسوار وحداد مأخوذة من اللغة الحبشية) ظهر الاسلام ج ٢ . ص ٢٣٥ .

وحين عرض لراى (تولدك) في اللغة العربية ، قال (ونحن نوافق في غنى اللغة العربية غنى مغرط في الحدود التي ذكرناها من قبل ، وعلى الحدود التي رسمتها لهم يفتهم فهم اغنياس في الجمل وما اليه ، والصحراء وما ليها والفاط العواطف المحدودة التي تجيش في صدورهم ولكن ليست غنية فيما خرج من هذه الحدود كالبهر وعاله ، ولا بأنواع الترف التي ينعم بها الممنعون في الحضارة) فجر الاسلام ص ٦٨ .

والنهي من بحثه الحافل بأن كثيرا من الافعال العربية خلق في العصر الاسلامي فجر الاسلام ص ٦٥ .



الطلاء والمرمر) مما سجله الاصطخري والسيوطى والمسعودى وابن دقماق ، فافتقروا من ميزة الفتح بجمع الخراج - حتى هذا اسنده فيما بعد ابن طولون الى مصرى من الواسطى - وتركوا ماعداه للمصريين .
وبلغ من استقلال مصر بالأمر أنها ظلت تطيع على الورق - وهو من صناعاتها التقليدية - شعارها هي لا شعار الفاتح لو جاز أن له وقتله شعارا ، حتى اذا ألم العرب بما حولهم من شئون وأخذوا يتطلعون الى دور في مصر أبدلوا عبارة «الأب والابن وروح القدس» (الا ان الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة) كما ظلوا يرسمون الحمامة فيما أخرجت أيديهم من نسيج في القصر الفاطمى وهي عندهم رمز روح القدس .

فمصر في دمها البناء والانشاء والادارة والنظام ولعل ابن طولون احس هذا بذكاء الفطرة فيه ووصى منشاء الدول فاعتمد في الادارة على المصريين ، منحيا جنده من الانراك والعرب عن هذا القطاع .

كانت مصر في حين العرب كنزا وسرا كبيرا فكانوا في يقطعتهم يحملون بالدقائق - وهو اسم أطلقه العرب على كنوز الفراعنة - حتى انعكس هذا في مقدمة ابن خلدون فعقدله فصلا .

فتح العرب مصر ولكنهم لم يأخذوا دورا الا بعد سنين طويلة ، في حين اخذت هي دورا خطيرا منذ البداية ، فاشتركت في أزمة عثمان ، وتدخلت في النزاع بين الأمويين والزييريين - كما تدخلت بعد في النزاع بين الأميين والمامون محاولة الانفصال عن الخلافة ، والاستقلال .

فلما كانت المعركة الحاسمة بين الأمويين والعباسيين دارت برأس مروان بن محمد فكرة التحصن بمصر . واذا هزم على نهر الزاب ، لاح له نهر النيل . واذا أفضى بدخيلة نفسه الى بعض خلصائه قال قوله المشهورة يؤيده : (هي - معنى مصر أكثر بلاد الأرض مالا وخيرا ورجالا) وايد لسان المقال ، واقع الحال ، بعد هذا على يد احمد بن طولون ، والأخشيد ، والمعز لدين الله ، وصلاح الدين ، والظاهر بيبرس ، وعلى بك الكبير ، ومحمد على . لكنهم جميعا يرددون وراء ذلك الأموى (هي أكثر بلاد الأرض مالا وخيرا ورجالا) .

وكانهم جميعا ادركوا هذه الخاصة الظاهرة الجلية من خصائص هذه البيئة المصرية المسعدة وتلك هي كما يقول الاستاذ الخولى (صلاحيها بتكوينها المتميز المتحيز المتجدد المحوط بقواصل من الصحراء والماء ان تكون مهدا للوجود المستقل ، والدولة المنفردة ، والقومية الشاحصة . .

وبهذه الخاصة الفطرية الطبيعية وما تكسبه أهلها من خصائص معنوية وفنية تهيأت لقيام الدول ذات الشخصية في إبان قوة الأمم التي اتصلت بها وناوات إثنين وروما ، وبغداد والقسطنطينية وكانت متفردة عالية الرأس في كل الامبراطوريات التي وصلت حبلها بها وظلت على مسرح التاريخ لم تختف منه أبداً ، بل لم تسقط عليها ظلال ما تقلل الاضواء على قسماها ومميزاتها ...) .

وقد عملت شخصية مصر في هؤلاء جميعا ، فوجت ذهنبهم الوجهة التي يملها تاريخ مصر العام فكان الواحد منهم يمد لها غربا الى برقة وشمالا الى الشام . ان (توحيد المنطقة) ادراك مصرى قديم طالما حاولته مصر بالفتح أو التجارة .

واذ قر بهر العرب الفاتحين ، اكبوا على مدينتنا الاسكندرية اذ بهرتهم بدورها فلسفة « الشيخ اليوناني » كما يدعوه الشهرستاني ، اى افلوطين المصرى الصعيدى ينقلون وينقلون .

وفي الجغرافية والفلك والكيمياء التي كانوا يسمونها « علم الصنعة » . . والرياضة والطب عكفوا على الاسكندرية ينقلون وينقلون حتى لتعد كتب جالينوس في الطب وكتاب الجسطلى لبطليموس مما ترجمت مدرسة حنين بن اسحق من دعائم النهضة العلمية في العالم الاسلامي . . ولكنهم امام « انطونينس » حاروا ، وامام ديسكوريدس النباتى المصرى المعروف ، فوجدوا المخرج من حيرتهم ان يقتنصوا كتاب « خواص العقاقير » ليصوروه في العراق .

وكم عبرت خزائن بغداد بنفائس الاسكندرية مما نقلته عنهم اوربا فيما بعد عن طريق الاندلس وفي ابان الحروب الصليبية . .

وكانما سخر العرب لنقل طب الاسكندرية (ابن ابر الكنانى) و (سرجيوس الرسمنى) ثم حنين بن اسحق العبادى وان كان نسطوريا . وقد نقل لهم فيما نقل عنا ، علومنا في الهندسة والطبيعة .

وكتاب الخوارزمي « السند هند » خلاصة لآراء كلوديوس بطليموس الاسكندري كما كانت جهود بطليموس و (اراتو) الاسكندراني اساسا لكل مباحث العرب في علمي الفلك والهيئة . ومنهم ترجم الى اللاتينية والاfrيقية حيث كان ركيزة لعلم الفلك الحديث .

فمصر كانت للعرب وهم الفاتحون مدرسة تعلموا فيها الكثير ونقلوا عنها الكثير وجمع لهم من التلقى والنقل والترجمة مادة على

اساسها بنوا حركتهم العلمية حتى الذى اضافوه انها يمت بسبب قريب
او بعيد الى مدرسة الاسكندرية .. يمت الى مصر .

ومن مصر استمد العرب روح التصوف والروحانية وعليها اعتمد
كتاب (الشفا) لابن سينا . فقد كانت مصر بافلوطين وراء التصوف
الاسلامى ، وهو منبع ثرى من منابع الأدب العربى ، تماما كما كانت وراء
(الميتافيزيقا) المسيحية . كانت نظرية افلوطين فى قدم الله وصدور
العالم منه وراء نظرية المسلمين المشهورة (العقول العشرة) او (الوسائط
العشرة) كما كان أسلوبه فى الامتزاج بالله وراء نظريتهم فى الاتصال
بالخالق وان اختلفت الوسيلة .

ومن عمل الشخصية المصرية فى التصوف ، ارساء قواعده
وبلورتها ، اذ نهج له ذو النون المصرى وصيره مذهباً بها استحدث فيه
من تحليل وتعليل وتناول وتصنيف للاحوال والمقامات وما نزع اليه من
منازع روحية ومعارف ذوقية مما سنفصله بعد قليل ولو بعض تفصيل .

ان الطرق الصوفية لم تؤسس الا فى مصر ، سواء ولد اصحابها
بها ام دخلوها للاستقرار والعيش المادى والأدبى .. حتى الطرق التى
ولدت خارج مصر ترصعت بها هى وتبلورت وتكيفت بجوها العفدى
حتى هدت بها خلفاً جديداً والمثل عندى (الطريقة الرفاعية) التى
اتسمت فى مصر بمجاهدة النفس وأداء الطقوس ، والترنم بالصلوات ثم
الرجوع الى (الشيخ) شيخ الطريقة كانه الكاهن الاكبر .

لقد نشأت هذه الطريقة فى العراق ولكنها عرفت فى مصر ، وعلى
نحو يختلف مما عرفت عليه فى العراق . وهذا يسلمنا الى طابع مصر
الذى تجلى فى التصوف كغيره من ألوان التفكير والتعبير وهو حب
الوضوح والاستقامة والبساطة والتعاليم الواضحة .

ومما يثير الدهشة ، ويدعو الى التعجب ما ذكره صاحب درة
الاسرار فى هذا الصدد عن السبب المباشر فى ارنحال الشاذلى من
تونس الى الشرق . واليك ما ذكره فى هذا الشأن نصاً قال :

(رايت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يا على : انتقل
الى الديار المصرية ترى فيها اربعين صديقاً . وكان فى زمن الصيف
وشدة الحر فقلت : يا سيدى يا رسول الله الحر شديد فقال لى ان
الغمم يظلك فقلت : اخاف العطش فقال لى : ان السماء تمطر كم فى

كل يوم امامكم فقال : فامر اصحابه بالحركة وسافر متوجها للديار المصرية) .

انها مصر ظل وري وصديق .. انها مصر حلم المتصوفة المبارك .

وعلى بن محمد الفرناطى انتهى به المطاف الى المقام فى الاسكندرية ..

وعن أبى الحسن الصباغ المصرى القوصى أخذ ابن عربى نظرية وحدة الوجود .. وكان الصباغ أستاذا تتحلق حوله الندوة ، وقد اشتهر بالعمق فى التصوف والريادة فيه امتدادا لأستاذ آخر مصرى كان فى القرن السادس الهجرى أشهر رجال التصوف وأعلامهم قدرا .. ذلكم هو عبد الرحمن القناوى ..

ومصر هى صاحبة فن (الحقيقة المحمدية) فى الادب الصوفى وهو فن - كما يقول الدكتور على صافى حسين - (لم يكن له قبل القرن السابع الهجرى وجود كما أننا لم نظفر رغم طول البحث وكثرة التفتيش بقصيدة أو مقطوعة وردت فى هذا المعنى على لسان شاعر شرقى أو غربى ، ممن كانوا يعيشون فى القرن السابع الهجرى ، وأما الذين نظموا بعض قصائدهم فى هذا الفن من غير المصريين فانهم لم يتشبهوا قصائدهم تلك الا بعد ان جاءوا أرض مصر واستقروا بها مدة جعلتهم يتأثرون بشعراء هذا الفن من صوفية المصريين وبالتالي ينظمون فيه على غرارهم عددا من قصائدهم ..) .



وضعت مصر للتصوف الاسلامى اسسا ، كما اشرنا ، على يد ذى النون الذى تقول عنه المصادر الاسلامية ومن بينها الرسالة للتشيرى ، والطبقات للشعرانى ، والكواكب الدرية للمناوى ، وحلية الأولياء لأبى نعيم الاصبهانى واللمع للسراج الطوسى وكشف الحجب للجويرى وكذلك الرازى والترمذى .. أنه وحيد دهره علما وعبادة وحالا ، ومعرفة وأدبا .

وانه : هو رأس هذه الفرقة - الصوفية - فالكل قد أخذ عنه . وانتسب اليه ، وقد كان المشايخ قبله . ولكنه أول من فسر اشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق .

ويقول الباحثون المحدثون ومن بينهم ماسينيون ويركلمان عن هذا المصري هو أحق رجال الصوفية - على الإطلاق - بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف ويعدونه بحق واضع الحجر الأساسى فى صرح التصوف التيزوفى الإسلامى .

وتأثيرات (ذى النون) فى التصوف كانت جذورها تضرب فى بيئة مصر ، فقد كان كما يقول الأستاذ الخولى كثير الملازمة لبربا أخميم لأنها بيت من بيوت الحكمة القديمة - فيما يقول القدماء - كما يقولون أيضا أنه قد فتح على هذا الأخميمى علم ما فيها من كتابات .

وسواء أصبح هذا أم لم يصح فإن الوراثة المصرية فى الفكر والعقيدة قد لعبت دورها فى حياة ذى النون وفى أسلوب تفكيره .

وذو النون كانت عبادته لله حبا خالصا لا رهبة ولا رغبة بل محبة وشوقا وهيمانا وكان اختناقون فى سبحاته . وذو النون (أول من أنشد شعر الحب الإلهى وأول من وردت فى شعره مصطلحات الصوفية كما أنه أول من تحدث فى الأحوال والمقامات) .

كل هذا فى سلاسة وعدوية تسرى الى النفس فتأسرها حين كان شعر أبى على الروزبادى يشقى فهمه ويتطلب الوقوف على مصطلحات الصوفية لأدراكه .

ويذكر الدكتور محمد كامل حسين أنهم ينسبون الى ذى النون أنه « أول من وسع الكلام عن الولاية » وبحث من أيهم أفضل النبى أم الولى ، وينسبون اليه كذلك أنه أول من استخدم اصطلاح الإبدال ، وأنه أول من فصل مسألة المعرفة ، الى غير ذلك من الآراء الصوفية فى العصور الوسطى حتى يومنا هذا » .



وبعد ذى النون أعطت مصر للتصوف الإسلامى « ابن الفارض » الذى جعله نيكلسون لا يقل عظمة فى شعره عن شعراء هذا اللون فى العربية هو والتسترى مقابلين فى الفارسية الجلال الرومى والمطار .

وعلى طريقة ذى النون فى الحب الإلهى . . وعلى طريقة (مصر فى الخلود الى الصحارى والتجرد والذكر والتأمل والوصول الى الحقيقة وصل ابن الفارض وكانت القطبانية أو الولاية قبله تؤخذ بالمهد أو الاجازة أو لبس الخرقه .

وابن الفارض فيه من مصر رقة الاحساس وشغافيته ، وهو بهذه الصفة سلطان العاشقين ومصر بهذه الصفة فيه صاحبة فن في التصوف ورفه حضارى، ولم يعرف عن غير ابن الفارض انه احتشد للفناء والوان الفن حتى لينشد اشعاره انشادا من ولعه بالنغم والتطريب .

ولم يعرف عن غير ابن الفارض انه غنته الجوارى فطرب حتى رقص على دقات الدفوف وانات الشبابه .

وكان ابن الفارض كالنموذج العام للمصرى ، مطبوعا على الجمال ذواقا له ، فقد ذكر المناوى فيما ذكر عنه انه كان يخرج وقت الاصيل الى الروضة يتأمل انعكاسات الاشعة على صفحة النيل الجميل الذى كان يهوى الخلود اليه في المساء .

حتى اسلوبه نابع من مصر . من مدوسة البهاء زهير ثم مدرسة الشعب بازجاله ولغته الجارية .

واسلوب ابن الفارض في الشعر اتسم بالركة والظرف والصفاء وحيوية العاطفة والومض . وقد شغلت (تائيته) الشراح حتى المخالفين له في الراى فكثرت شروحها وتشعبت .

وابن الفارض استاذ الفن التائى في الشعر العربى وعلى نهجه سار شيوخ التصوف في التعبير عن آرائهم بقصائد تائية كابراهيم الدسوفى وقطب الدين القسطلانى والسيد احمد البدوى .

وعلى هدى مصر لم يتزمت ابن الفارض فنظم الى جانب الفصيح من الشعر ، الزجل بأنواعه وخاصة الشعبى منه فقد ذكر ابن خلكان ان (ابن الفارض قال المواليا وهو شعر يتألف من كلام العامة او اللقة الدارجة وان استخدام الالفاظ العربية الفصحى فانه لا يلتزم فيها الاعراب بل كثيرا ما يقع فيها اللحن تمشيا مع منطق واسلوب اللقة الدارجة التى يستخدمها عامة الشعب في التخاطب والتحدث وفي نظم الأزجال والبلقي والمواليا وكان كان) وكما استمد ذو النون تصوفه من حكمة مصر القديمة ، فان ابن الفارض استمد تطلعه من افلاطونية مصر ثم مسيحيتها . فقد كان ابن الفارض يعتقد ان الانسان الواصل تتحد روحه بذات الله حتى لقد صرح في شعره (بإمكان رؤية الله في هذه الدار .) أى ان الواصل تغلب « لاهوتيه » ، « ناسوتيه » وهذا رأى مسيحى مصر فى المسيح من أصحاب « الطبيعة الواحدة » .

كما تأثر العرب بالأفلاطونية فى زها المسيحية ممثلة فى كتاب

« ديونيسيسوس » Dionysius الذي يتناول اسرار الالهية وعالم الملكوت مما قبس منه الكثير « اخوان الصفا » .

ويلمح بعض الثقات وجه شبه بين كتاب الغزالي (المنقذ من الضلال) وبين كتاب القديس أوغسطين المعروف « بالاعترافات » ، فان بين الكتابين (موازنة تكاد تكون ثامة فيما يحكيه كل من الرجلين عن تاريخ حياته) كما جاء في كتاب ارينولد نيكلسون .

كما تأثر ابن عربي بأفلاطون تأثرا بعيد المدى يعكس هذا كتاب « ابن عربي » حتى ليشك اسبن بلايوس مترجم حياته في صدق تجاربه الدوقية لحرصه على ادراج هذه التجارب في التعريفات التقليدية للأفلاطونية .

وهكذا قام للنهضة العلمية العربية بناء على دعامه من مدينة الاسكندرية . واستارت أوروبا سيرتهم في العصور الوسطى فكانت الأفلاطونية ركيزة لفلسفة العصور الوسطى وهى الفلسفة المدرسية Scholastic Philosophy وتركت طابعها على الفلاسفة المدرسين .

وتأثر العرب بمدينةنا الاسكندرية مرة أخرى بالواسطة اى عن طريق النساطرة الذين كانت الاسكندرية مزباهم العلمى . وقد نقل العرب عن هؤلاء منطق أرسطو الذى كان من أثره فيهم نشوء مذهب الاعتزال كما نهج العرب نهجهم فى أسلوب التعليق على أرسطو بما يشكل شروحا فضفاضة للعبارة الواحدة وبلغ من اقتناع العرب بهذه الطريقة ان ابعوها فى تفسير القرآن وشرح الحديث .

لقد علل الأستاذ العقاد فى كتابه « ابن رشد » الحركات الثقافية فى المغرب عامة - خلافا للمستشرقين - بظهور الدعوة الفاطمية فى أفريقية الشمالية - ورأى أن ظهور هذه الدعوة فى المغرب غيرت فيه كثيراً من وجهات الثقافة والسياسة . كما كان له الأثر المباشر فيما شغل الأوروبيين بعد ذلك خلال القرون الوسطى من موضوعات الفلسفة الدينية ، وأهمها موضوعات النفس وخلودها وموضوعات العقل وصلاقتها بالخلق والخالق .

ثم يرى العقاد ان الدعوة الفاطمية هى الدعوة الاسماعيلية بعينها لما كان الفاطميون ينتسبون الى فاطمة الزهراء او الى اسماعيل بن جعفر الصادق تمييزا لهم من سائر العلويين .

وينتهي من هذا الى أن أولئك الاسماعيليين كانوا يشتغلون بالفلسفة « ويرجعون مذهب الأفلاطونية الحديثة » .

ومن اتباع الاسماعيليين الذين نشروا هذا المذهب اخوان الصفا أصحاب الرسائل المنسوبة اليهم ، ومنهم مسلم بن محمد الأندلسي الذي نقل مذهبهم الى البلاد الأندلسية .

وقد شاع مذهب الاسماعيلية شرقا وغربا في العالم الاسلامي من جبال اطلس الى تخوم الهند وآسيا الوسطى ، وكان ابن سينا يقول « كان أبى ممن احب دأى المصريين ، ويعد من الاسماعيلية » .

يقول توينبى : « في الفترة القصيرة التي عمر فيها المجتمع العربي كانت مصر هي البلد الذي اشتهر فيه نبض هذا المجتمع الذي كان ضعيفا خافتا في غيرها من البلاد . وقد قدمت مصر لهذا المجتمع حانرا هو التربة الجديدة » .



لقد اسهم الفرس في الحضارة الاسلامية بنصيب وافر بالرجال العلماء ولكن مصر هي التي اعطت العرب والاسلام تربة جديدة ذات طبيعة قوية قادرة ومبدعة ذات سאלفة في الحضارة والتفهم والتمنى والانشاء . . تربة قادرة قام عليها بناؤه كما قام عليها من قبل حياة الحضارة الافريقية التي لم تجد تربة اخصب من مصر لتتطور فيها .

ان مفخرة العرب الكبرى (الاسلام) وفي الاسلام تميزت شخصية مصر في العطاء والوفاء . فما كادت مصر تدخل في الاسلام وتفتح له حتى سابقت الى جمع الحديث وتسجيله على ورق البردى الذي عرفت به ، وجهدها في هذا كما يقول الدكتور كامل حسين في كتابه (ادب مصر الاسلامية) ، (يعد من اقدم المخطوطات العربية في جميع مكاتب ومتاحف العالم) .

وتجلى شخصية مصر المحققة ذات العلمية في هذا المضمار في صنيمها مع ابن مالك فهي حين اختارته عملت فيه شخصيتها فام تقبل الروايات كما هي في الموطن بل كان عبد الله ابن وهب يدق في اختيار الاحاديث وهذا المصري كثيرا ما كان ابن مالك يفتى بأرائه فاذا قال مالك (حدثني من ارضي) فانما هو عبد الله بن وهب .

والى مصر رحل جمع من الصحابة حملة الحديث عد منهم محمد

ابن الربيع الجيزي في كتابه ، مائة ونيفا وأربعين صحابيا وزاد عليه
السيوطي وابن سعد في طبقاته . يقول الدكتور أحمد أمين في ضحى
الإسلام (عد هؤلاء الصحابة مصريين لنزولهم في مصر واستيطانهم بها
ولذلك يلتبهم المحدثون ، المصريون) .

والى مصر رحل البخارى ومسلم والنسائى لاستفتاء الأحاديث من
ثقافتها . وطوف الحافظ السلفى ما طوف في أكثر بلاد العالم الإسلامى
وراء الحديث ثم استقر به الأمر في الإسكندرية أذ بنى له الوزير المصرى
ابن السلار مدرسة للحديث سنة ٥٤٦ هـ وفوض أمرها اليه فصارت
مدرسته كعبة يجج إليها طلاب الحديث .

ان الفقيه المالكي عبد الوهاب بن على الذى وصفه صاحب تاريخ
بغداد أنه لم ير في المالكية أفقه منه ضاقت حاله في بغداد فتنطع الى
مصر الملائكة . وأذ أكرمه المصريون « وهاش » ، بقى في مصر فلما حضرته
الوفاة سنة ٤٢٢ هـ كان يقول : (لا اله الا الله عندما عشنا متنا ٠٠) .

ونبع من المدرسة المصرية في الحديث سليم بن عثر التجيبى
وعبد الرحمن بن حجية أبو عبد الله الخولانى (وقد روى له مسلم في
صحيحه ووثقه النسائى) ونافع شيخ مالك وفقه الحنجال ، ويزيد ابن
أبى حبيب الأزدى والليث بن سعد .

ومن عظماء مصر في الإسلام : الرجال .

كان الشيخ عز الدين عبد السلام يقول (ديار مصر تفتخر
برجلين في طرفيها ابن منير بالإسكندرية وابن دقيق العيد في قوص) .

وكان الشافعى يقول للربيع بن سليمان : يا ربيع أدع لى سرجاء
يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد
شيئا من الشعر الا عرضة عليه — فيأتى به ، فيذاكره وينظره ثم يقوم
سرج الغول فيقول الشافعى : يا ربيع نحتاج ان نستأنف طلب العلم .
كما كان الشافعى يقول عن فقيه مصر قبله ، الليث بن سعد : (الليث
أفقه من مالك غير ان أصحابه ضيعوه) .

وفرضت مصر شخصيتها في اللغة : حين كيفت آراء الشافعى
وحورت وبدلت فيها حتى اضطر أن يكتب رسالته من جديد فيها عدولا
منه من رسالته القديمة التى كتبها بالعراق متأثرا في الرسالة الجديدة
بالبيئة المصرية وبما خالفه وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه
آراءه وفقهه .

ومثل هذا فعله بمذهبه . ففى مصر كتب مذهبه الجديد وما أوسع الفرق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق . وكتابه (الأم) به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه فى القراطيس . وشهادة الشعراء وصيغ الوقف .

أصبحت كتب الشافعى هى الكتب المصرية وحدها منذ القرن الرابع . وربما دل ذلك على أن ما تضمنه الحجة أو المبسوط تضمنته الأم . وربما دل على أن الكتب المصرية وحدها كانت هى المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث ، قول أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١) لمحمد بن وارة اذ قدم الى بغداد من مصر : هل يكتب كتب الشافعى ؟ قال لا : قال ابن حنبل : فرطت . فرجع الى مصر فنسخ الكتب . . ولقد روى أن ابن حنبل قال : (عليك بالكتب التى وضعها بمصر فانه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ، ثم رجع الى مصر فاحكم تلك) . كما جاء فى كتاب الأستاذ عبد الحكيم الجندى عن الامام الشافعى .

وكان الشافعى نفسه يقول فيما يروى البعض عنه (لا اجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى) وقى هذا ما فيه من اعتماده كتابه المصرى واعتماده به وحده .

لقد كان الشافعى تلميذا لمالك . يهاجم فى العراق مدرسة الراى أى مذهب أبى حنيفة فما ان جاء مصر وتأثر بالحياة المصرية حتى مال عن مالك وكون مذهبه الجديد .

ومن الحديث (ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) عن أبى هريرة رواه أبو داود فى مسنده والحاكم فى المستدرک والبيهقى فى المعرفة .

هؤلاء المجددون الذين اقتربت باسمائهم حركات البعث التجديدى فى تاريخ الاسلام فى البضعة عشر قرنا ، مصريون معظمهم بالولد أو المربى أو الولاء .

ففى حياة هذه الفكرة التجديدية كما يقول الأستاذ الخولى (تجد مصر - كدائها - مشاركة بحيويتها حاضرة بانبعائها الذى يحدده تدينها المتفلسف وتفلسفها المتدين وعملها العتيد فى البعث ومن أجل البعث) .

وكما اتخذت مصر الاسلامية دورا هاما فى علم الحديث اتخذت دورا ذاتا فى علم القراءات . فمن (ووش) المصرى القبطى اخذ علماء

شخصية مصر - ١٢٩

المغرب عن تلميذه (أبى يعقوب) الأرق بن عمرو بن يسار المصرى
وأخذ الأندلس عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصرى .

وفى القراءات موسقت مصر الدين بطبعها الفنان .

كتب الشيخ البشرى مقالا عن (تقاليد مصر فى الفن) جاء فيه
ان متقدمى القراء فى مصر (لا يبدأون قراءتهم الا من البياتى ، وبه دائما
يختتمون) .

ويقول (على اننى لا ادرى من اين جاء مصر هذا التقليد ، ولا متى
كان مهبطه من الزمان القريب او البعيد) ولعل ذلك يرجع الى ان هذا
البياتى هو نغمة البلد الأصلية ، او هو من أصل النغم التى تتقلب فيها
حناجر المصريين . ففى الحق ان هذه النغمة ، فوق سعة افقها ،
وتقلبها لكثرة التصرف والتلون ، فان المصرى يجد من الاستراحة اليها
والانس بها ، مالا يجد لكثير .

او لعله يرجع الى هدوء فى طبيعتها ، يلين للحناجر قبل ان
تصقل وتجلي ، ثم يتلطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد) .

وفى يقينى ان ترتيب القرآن يسهم فى محو الأمية بتركيب الموسيقى
القرآنية فى شعور الانسان السامع .

وبعد القرآن باتى الأذان . وعمل مصر فيه يحدث عن التناسق
والهارمونى فى ذوقها .

فان جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا كما يروى الشيخ
البشرى فى كتابه « قطوف » (اذا ظهروا المآذن للتهاف بالأولى أو
« الأولى » - ومن أوله الأذان هذه ، ابتدع بيرم ، فيما أرجح ، حين
تشرب الروح المصرية ، ألوان الأولى فى الفناء - وقفروا وقد أزهقوا
آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر اليهم عن مثلثة
الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج ليلتهم .
فاذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا ، أسرع مؤذنوا
المساجد حوله بالصياح بها ، وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تقع للاسماع
أصواتهم ، وهكذا فلا تمضى دقائق الا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة
الرصد ، واذا بدا بالبياتى ، أو بالحجاز ، أو بالسبكاه . . الخ فهكذا
وما شاء الله كان !) .

وهذا اذا دل من ناحية على القصد الى ضبط المؤذنين لأصواتهم ،
وتحكمهم فى نبراتهم وعدم تأثرهم بالانغام الأخرى ، وإلا اضطروا الى

الخطا ، ودفنوا برغمهم الى النشوذ (النشاز) اذا دل هذا على شيء فانه في الموقف نفسه دليل على ان اهل مصر او سكان القاهرة على الأقل ، كانوا اصحاب فن ، واهل ذوق ، وعشاق تطريب ! .

ومن تقاليد مصر في الفن او عمل مصر في موسقة الدين ، ما استنته **من تقاليد في حلقات الذكر** . وانا هنا ايضا اروي عن الشيخ البشرى بلفظه لان الموضوع يتعلق بالسماع والعيان وهو مما فات جيلنا ان يشهده . يقول الأستاذ البشرى في « قطوفه » :

(ان المنشدين الذين يجرون من الصنعة) على عرق ، لا يمكن ان يفسحوا في حناجرهم الا على ذكر السادة الليثية ، الى الامام الليث بن سعد المصري ، رضى الله عنه ، وذلك لان اهل هذه الطريقة اصحاب فن موسيقى بقدر كبير ، ففي طرائقهم بالهتاف باسم الله تعالى لا اله الا الله . الله الله ! ما يمكن للمنشد المفتن من ان يلقي اهازيجه ، موشحة كانت او دورا او مقطوعة شعرية او مواليا ، غير متعثر ولا متحير ، بل لقد يكون ذكر الذاكرين لاسم الله تعالى ، على اساليب هذه الطريقة ، خير ما يعينه على الانشاد ، ويهديه في سبيله السبيل) .

ومن تقاليد مصر في الفن . : **فن الذكر المصري** . فقد كانت مصر تجعل له قائدا هو بمثابة ضابط الايقاع . ومن مشاهير المصريين في هذا الباب السيد على الركبي . (كان اذا جلس اعلام المنشدين لشأنهم في صدر المجلس ، جعل يدير اساليب التنغيم بالذكر تنغيميا فنيا يهين لأولئك المنشدين أداء مهمتهم على أدق القواعد وأحسن الوجوه . ولقد يصرفهم هو في فنون النغم ، بتوجيه الذاكرين الى هذه الناحية او هذه الناحية ، مسرعا مرة ومتمهلا أخرى ، ضابطا الوحدة بنقرة بخاتمة الفضى على حق سعوطة النحاسي . فكان بحق أكفأ « مايسترو » رآته العيون في هذه البلاد) .

ومن تقاليد مصر في « الذكر » : (انه اذا جلست الجماعة للانشاد ثم فرغوا مما استفتحوا به مجتمعين ، جعل كل منهم يتغنى فردا مستغنيا بالنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته ، تسليمات الله عليهم ، ثم عاد الى التنغيم ببيت أو بيتين من الغزل الرقيق ، والذي أسوق له القول ، هو اول من يبدأ بالانشاد يجب ان يكون أعلى الحاضرين سنا ، ولو كان انكرهم صوتا ، ثم يليه من يكبر سائرهم وهكذا ، وقد كان يجيء الشيخ يوسف المنيلوى ، في بعض الاحيان ، آخر المتغنين ، وهو غير مدافع ملك المنشدين !) .

واسهفت مصر في تفسير القرآن حتى قصدتها الرحلة في طلبه .
حتى البخارى نقل في تفسيره وتاريخه كثيرا من « الصحيفة المصرية »
في التفسير كما نقل عنها ابن جرير الطبرى الشطر الاكبر من تفسيره
ونقل عنها معاوية بن صالح قاضى قرطبة ، وشاد بها جمع من العلماء
حتى ليقول احمد بن حنبل في مسنده - (بمصر صحيفة في التفسير
لو رحل فيها الى مصر قاصدا ما كان كثيرا) .

وعلى الصحيفة المصرية ارتكزت التفسيرات في سائر الاقطار
الاسلامية بما شملت من تفسير مفردات غريب القرآن بل تفسير الآيات
تفسيرا تاما مع ذكر ناسخها ومنسوخها .

وفي القرن الرابع الهجرى كانت مصر تمثل قمة الثقافة الدينية فقد
كان فقيها أبو بكر بن الحداد عالما في وقت معا بالقرآن والحديث ،
والأسماء والكنى ، والنحو واللغة وسير الجاهلية ، والشعر والنسب ،
واختلاف الفقهاء وكان أعلم أهل وقته . . وكان يدرس في جامع عمرو
واخذ عنه اعلام الجيل الذى بعده .

وقد تكلم المشاركة في اعجاز القرآن ولهم في هذا الموضوع كتب
مشهورة ولكنه حديث الدراسة للمصطلحات البلاغية وفنونها ولكن
الدرس الشامل المستقصى . . الدرس الذوقى الفنى للآيات القرآنية
وفنونها الجمالية وتقديم الشعر والنثر لها انما قامت به مصر بحسبها
الشاعر الشفاف .

يقول الأستاذ الخولى (ان كل ما نملكه من المصنفات - المفردة في
بلاغة القرآن انما يرجع فيه الفضل الى المدرسة الادبية المصرية ، التى
كانت ظاهرة الاثر فيما حولها من الشرق القريب) .

وكم فى العصر العباسى من علماء الدين ممن أنجبت مصر بل ممن
كانوا اقباطا امثال ابن القفاس سعيد بن زياد صاحب الحلقة في المسجد،
وسعيد بن تليد كاتب القضاء ، ويحيى بن بكير الفقيه المؤرخ .

ومن الظاهرات ذات الدلالة على شخصية مصر في الاسلام انها
وقفت من العقيدة موقفا يتفق مع طبيعة الاسلام البسيطة السمحة . .
ومع طبيعة مصر الصافية السهلة بلا كلفة او تعقيد . وفقت مصر ان
تتبع الآراء والأهواء التى عرفت في بعض البلاد الاسلامية من الشيعة
والخوارج والمعتزلة . لم تمل لهم مصر ولم تتجاوب معهم بل لاذت
بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة مؤثرة اللباب على الحشو والقشور

والفضول . وتمثل شخصية مصر في مقاومة ذى النون ، والبويطى
الذى توفى سنة ٢٣١ هـ مغلداً في سجن بغداد بسبب محنة خلق القرآن
غير مقر بخلقه .

كما استنكرت مصر مذاهب الشيعة وسخرت منها حتى في أوج
حكمهم . فكم تهكمت مصر في العصر الفاطمى من تعاليم الشيعة
الاسماعيلية حتى اضطر الفاطميون كما يقول الدكتور كامل حسين الى
(أن يغيروا عقائدهم حتى تتلاءم مع طبيعة المصريين) بعد أن باءت كل
محاولاتهم لحمل مصر على اعتناقها بالفشل .

لقد زين ثلاثة من الدعاة للحاكم أن يدعى الألوهية وراحوا يدعون
له بين المصريين فنار المصريون عليهم وقتلوا واحداً منهم وفر الآخرون
من مصر . واستدعى الحاكم ، الكرمانى (الذى يعرف في الدعوة
الاسماعيلية بحجة العراقيل) لتهذبة الخواطر . ولكن الكرمانى شاع
مصر لا الحاكم وكتب رسالة في الرد على أحد دعاة تأليه الحاكم وانكر
في رسالته هذه ، الوهية الحاكم وكفر القائلين بها .

وهنا تاب الحاكم الى رشده بعد أن لقنته مصر درساً . فعدل من
ادعائه . وقديماً أعادت مصر الرشاد الى جده العزيز بالله بعد أن
تهكمت عليه كذابها يوم ادعى علم الغيب فكتبت له ورقة أودعتها المنبر
يقول فيها المصريون :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحقافة
ان كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وأقلع العزيز عن بدعته بل اعتذر أخوه العباس وكان شاعراً ،
بلسانه في قصيدة طويلة :

وكم من أوراق وضعتها مصر للفاطميين على المنابر تتحندي
وتتهكم . ولعل أقساها عليهم تلك الورقة التى اثارَت فيها في دهاء
مسألة نسبهم . ونسبتهم وفيها يقول شاعرنا :

أنا سمعنا نسباً منكراً يتلى على المنبر في الجامع
ان كنت فيما تلعى صادقاً فاذكر إبا بعد الأب الرابع
او فدع الانساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
فان انساب بنى هاشم يقصر عنها طمع الطامع

لقد مكنت الدولة الفاطمية لنفسها في مصر بالمال والرجال ما يملأ حديثه بطون الكتب ثم مضت فقلبت مصر الصفحة غير مكتوبة بما اصطنعته تلك الدولة على مسرح الحياة أو مجالات العقيدة ! وكذلك اتخذت مصر في الاعتزال موقفا نابعا من طبيعة رأيها في مثل تلك المقالات الكلامية الفلسفية التي تزاورت عنها مصر . وإنك لتشعر أن صدوف مصر عن الجدل الكلامي لذو صلة إلى حد بعيد ينظرها إلى الفلسفة .

هذه الشخصية المصرية التي صدرت في موقفها من الإسلام عن خصائصها هي فارتضته في صورته البسيطة غير المعقدة ، تفسر موقف الإسلام منها في القرن السابع الهجري عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها . واذ حزب الأمر تطلع الإسلام والمسلمون إلى مصر لتحسم الموقف كدأبها في الأزمات الكبرى . فانفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكي ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللبح المصرى ، والوجدان المصرى مذهباً ينقاد الناس له ، ويرتاحون إليه ، ويقررون عنده .

وإذا لم يكن هذا الميل إلى التوفيق مصريا فقط في هذا الشاهد فانا لنجد كما يقول الاستاذ الخولى (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة إليه يتجه إليها صوفى مصرى بلدى السبكي هو **أشعرانى** ، وهو أصيل في الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول . وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعبان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الإسلام لا يعرف له نظيرا . وحسبنا تزكية لميل البيئة المصرية إلى هذا التوفيق للفقهى الذى لا تسمع فيه لهذا العصر صوتا أجهز من هذا الصوت) .

ولقد تميزت شخصية مصر في الإسلام حتى على الرغم من اتخاذها أسماء عربية واصطناعها أنسابا عربية .

ولم تكن مصر وحدها بل فعله الفرس وهم أمة ذات حضارة وتاريخ حتى لقد كانوا يرون (حكم العرب لهم ضربة من سخرية القدر) ولكننا نرى أبا مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسبا عربيا فيزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس . وأبو مسلم هذا صاحب الدعوة للعباسيين وصاحب الحظوة عندهم فما بالك بغيره ممن يتهددهم القلق على حاضرهم ومستقبلهم .

اذن فعلتها مصر للحاق بركب الحياة في عنفوان الامتيازات المادية

والمعنوية التي كانت للعرب بحكم الدين واللغة والجنس مع ان الاسلام
السماح لم يصطنع له دولة رئيسية مركزية كالامبراطوريات التاريخية
المعروفة ولا شعاعا من جنس غالب او شعب ممتاز ولكنه كان دولة عامة
يقوم بها المسلمون من كافة الاقطار متساوين في الحقوق والواجبات -
او هكذا اراد الاسلام - ولعل هذا من دواعي ارتياح مصر الى العرب عند
الفتح وعدم شعورها بالقهر بل لعلها شعرت بالخلاص من الروم . ان
مصر في الاسلام لم تشعر بتبعية سياسية تقليدية بل كانت جزءا من
الدولة العامة ثم أصبحت قاعدة لها ومركز اشعاع .

لم يمض على مصر قرن من الزمان بعد الفتح العربي نظمت فيه
خطوطها وأعملت رأيها فقررت ان تتعلم اللغة الجديدة حتى لا تدع
للفاتح مجالا لعزلها عن المناصب والقيادات . وما ان تعلمتها حتى
نبغت فيها ولم تكتف بهذا فمند القرن الثاني للهجرة ومصر تنهبا
للزعامة الادبية والفكرية في العالم الاسلامي - الجديد - بما فيه الحجاز
مهذ العربية ومهبط الوحي ، وبما فيه العراق والشام وهما اقرب الى
الجزيرة العربية في المكان واللغة . ولكنها مصر .

ان سابقتها في الحضارة والمعرفة تثبت لها خاصية التفوق
والاستعلاء . وقد تزعمت مصر في الاسلام وهي حديثة عهد به . لتخريج
العلماء وايوائهم والتمكين لهم حتى كان بعضهم من شدة التصاقه
بمصر يكنى بالمصري كيوسف بن ابراهيم والد صاحب كتاب (المكافاة) .

فنون مصر وآدابها

- الفنون التشكيلية
- أدب مصر الفرعونية والسيحية
- مصر في العربية
- مصر في الأدب الشعبي
- شخصية مصر في العصر الحديث

الفنون التشكيلية

مصر الزراعة هي مصر الفن .

فالزراعة عمار وعمار .

الخصيب يتبعه الفن الذي هو ترف مادي وعقلي هما المعنى
الجميل للحياة .

زرعت مصر الحجر ، بعد الارض ، فشكلته فنونا وأشكالا
مختلفة .

من الحجر بنت البيت وشيدت المعبد ، وسوت التمثال ، ورفعت
الهرم .

وعلى الحجر كتبت مصر .

حولت مصر الصخر الى حجر كريم حين روته بالمعنى ، وشحنته
بالرؤى ، ووشوشته ، وحملتته من اسرار الفن والادب والحكمة والدين
ما جعله مصدر تاريخ ومظهر حضارة .

ان الحجر المصرى محظوظ فلم يرو حجر مثله من وجدان مترع
بالحياة كالوجدان المصرى بما فيه من رى .

ومعنى هذا انه ولد فى قلوبهم شوق مبكر الى القيم .. الى الفن
والعلم والدين دليل احساسهم بالحياة والكون وقدرتهم على التعاطف
معه .

والقادرون على الانصاف والرؤية يرون الفن المصرى فنا انسانيا .

انه فن النبض . فن الصحو . فخطوطه كلها صاحبة نشيطة
رشيقة فيها حاسة الضبط والقياس Sense of Measure لأنه نابع من
الطبيعة المصرية وفيض حيويتها . ولهذا احتفل المصرى فى فنه بالحياة

فعلى المعابد تجد كثيرا من الرسوم تدور حول الأزهار يشمها المصري
في أمان وفرحه .

فن فيه من دخر الزهرة ومعاني النعمة .

فن يلفه سلام من روح النبات الذي أوحى به فهو انبثاقات من
ضمير الزرع مرتكزة على قاعدة من الحجر .
كانوا صادقين . وكانوا متفائلين .

والفن المصري فيه مع الصدق والتفاؤل ، حب .
لقد أحبوا كل شيء : الرمل . الحجر . الهواء . الأرض .
النور .

أقول أحبوا الحجر . كتب العالم الفرنسي ماربيت يقول : (ان
عاملهم كان يقطع الحجر من الجبل . وكأنه يقطعه من جلده) وهي
مباراة قد تمر عابرة ولكنها عند التأمل مقياس على عدم الاستخفاف
والهذر . مقياس وشاهد عميق على الحضارة والرفاهة والاحساس . .
بالقيمة . ان الله يقول (قواير من فضه قدرناها تقديرا) في دعوة
للانسان الى الدقة الدقيقة .

كان المصريون مؤمنين بالفطرة .

والتصوير المصري تصوير بالثود على الحجر ولهذا هو ملء
بالرؤى . . وبين النور والحجر تتسلل المياه رمزا لانسياب الفكر .

ان التكعيبية والسريالية القائمة على التجريد وتجاوز الشكل بل
تجاوز المنطق والتطويع الى ما وراء العقل ، يتفوق عليها الفن المصري
القائم على نقاء الشكل مع الاحتفاظ باللمحات الانسانية .

كثيرا ما يتجاوز الفن المصري الشكل ولكن الى الأسطورة
بشاعريتها وغناها .

ومن الدين الفن .

فحين يرسمون على الجدران أزهار السوسن النشوانة تعانق
أشعة الشمس المصرية الوهاجة المنتشرة على وادي النبات الاخضر ،
وتطفر الماشية فرحة في الضوء الأبيض ، ويثب السمك في النهر ، نيلنا
العظيم مرجبا بالنور .

ويهتف العظيم اخناتون مهللا للنور ، متهللا في فرحة غامرة وينظم

اناشيده ، مسبحة لخالق السوسنة الطفلة والظير السايح ، والسحابة
الغادية .. منزها في تواضع وهو ملك مصر والانهار تجرى من تحته ،
الاله الواحد الجميل كما كان يدعو مخلصا خالصا .

ان الفن المصرى بسمة ايمان على صفحة الوادى .. ايمان صاف .
حتى آلهتهم لا تكره البشر ، وتفار منهم وتحقد عليهم كآلهة الاغريق
والرومان .

ان الفن المصرى كالطبيعة المصرية نور وحجر وصفاء .. ولهذا
قدس قدامونا النيل والشمس ، فلوحاتهم فيها التحرر والعدوية
والانسياب من النيل .. ومعابدهم تفتح على الشرق .. وابو الهول
ينظر الى الشمس .

ان بيت الروح لبتاح حتب في سقارة يمثل النور عندهم .
فالفتحات في الجدران التى ترسل منها الشمس خيوط الشعاع ،
تلوين بالضوء .

ان شدة الاستضاءة في الفن المصرى تعمل على تجميع النفس
كالحفوت . في قدرة الفنان المصرى ان يشكل كل شيء ... يشكل النور
ويشكل الفضاء ويشكل الهواء .

ان الرسم المصرى لغة خاصة .

الفراغات فيه ، متنفس يعكس صفاء السماء المصرية .

والفراغات نفسها فيها سكون من سلام النفس المصرية .

وجركات الفن المصرى في الرسم فيها رهافة وجدانية ورفه
حضارى . انه شيء اكثر من الرقة .. انه رقة واناقة ولطف تعبير .

لقد احبوا الشمس وراوا في انتصارها على الظلمة ، انتصار الحق
على الباطل .

والفن المصرى تشيع فيه الوداعة من البسمات الرقيقة اللطيفة
حتى تبدو التماثيل وكأنها من لحم ودم .

الفن المصرى فن دافئ يحلو له ان يصور الأم من كل جنس تدافع
من وليدها .. ومن ادراكه لقيمة وسلطان الأمومة ، يضع في مقدمة
القطيع طفل الحيوان الذى يسير في المقدمة حتى يكون الصغير حافظا للأم
على السير والتقدم فيه ومن خلفها يسير القطيع كله .

والفن المصرى كما يقدر الامومة ، يعزى (الابوة) ويعظمها في رسم الاب ضحكا عاليا ويجعل الابن لا يكاد يحاذى الساق ، اشارة الى تواضع الابن للاب واحترامه وتوقيره .

الفن المصرى فن ناعم يسجل للانسان رجلا كان ام امرأة ، اسمين على تماثله : الاسم الاصلى ، والاسم الجميل اى اسم التدليل .
لا تكفى المشاهدة فى الفن المصرى .. انه يتطلب القراءة مرة بعد مرة .

ان القدم الثابتة فى التمثال المصرى تعبر عن الحزم والجسم والتصميم والواقعية . وهى مع الثبات فيها اندفاع المركب فى التيل ، او قوارب « ميراروكا » .

وحين تتحول الكتلة الى مرآة لقلب بشرى ، يولد فن النحت ..
يقول هنرى مور وهو رائد فن النحت الحديث :

(اعطى كل شيء اذا اتى لى ان اكتسب الانسانية الماثلة فى التمثال المصرى القديم .. هذا السكون والجلال) .

واذا كان الحصان رمز الفن الاغريقى فان المركب رمز الفن المصرى .

هناك الدفعة والسرعة .

وهنا التحرر والعدوبة والانسياب .

فى الجسم المصرى بسطة ورشاقة نخلة النيل . ان جسم نفرتارى فيه روح المسلة .. فيه الصمود والشموخ ... والاجسام المرسومة فى المعابد رياضية معتدلة حتى وهى جالسة امام حجر الطاحون ، حتى عملية الطحن المرهقة تتم مع انتصاب الاجسام .

ان الخط فى التصوير المصرى مفعم طاقة .

انها الصوحة المصرية ابدا . الصوحة التى يعبر عنها جلسة الكاتب المصرى فى انتباهة رائعة يستوحى فكره لا يمل عليه املاء .

ومع هذا الشموخ كله ، كان المصرى يجمع الى الاعتداد ، السماحة . يصور هذا الفن المصرى الذى يجمع بين القوة والركة ، وهو اعجاز عجزت عنه الفنون فى غير مصر .

ان فن بابل فيه وجوه شبه كثيرة من الفن المصرى ولكن قوته عنف ، وجديته جهامة ، ولكن الفن المصرى قوته تعكسها الآثار المصرية بقوة ارتكازها وثباتها وبقاؤها . . ثم تقابل هذا كله وقفة في الحركة حتى لتتمايل الخطوط في الرسوم المصرية تمايل سنابل القمح في حقولنا مع النسمة .

الحركة في الفن المصرى القديم فيها من خفة ورفة الجناح بينما قبضة اليد فيها من صلابة الحجر .

الفن المصرى يمزج بين القوة والرفة امتزاج نور الشمس والخضرة في الديانة المصرية القديمة . في فن بين النهرين ، ثيران برؤوس آدمية مجنحة . وهى جميلة فنيا ولكنها تنم عن القوة والجبروت ولكن ابا الهول فيه مع القوة ، رفق وابناس وهدوء جليل وجميل .

ان القوة في الفن المصرى جلد واصرار وطاقة استمرار
والرفة في الفن المصرى راحة وواحة وسلام .

نعم الامتياز في الجمع بين القوة واللذة . قالمصرى يقبض على عصاة بيد قوية صلبة بينما اليد الأخرى تلين وتسمح وهى تمسك بكف امراته فى مودة ورحمة لا نظير لها فى فن آخر حتى ان (برستد) عالم الآثار الأمريكى ، يعتبر ، العلاقات الأسرية المرحية المنطوية على الود . . التى تتجلى فى مقبرة بتاح حتب وتنطق بها النقوش ، يعتبرها كشفا جديدا ذا أهمية أساسية فى تاريخ الاخلاق .

ان العلاقة بين الرجل والمرأة فى الفنون التشكيلية فى العالم ، اعمال معدودة ، ولكن هذه العلاقة فى الفن المصرى موضوع كامل غنى مميز .

لقد شكل الفن المصرى الاناء اشكالا فيها الحس الصافي للشكل قبل الأسرات . اى قبل (مينا) و (خوفو) صاحب الهرم ، بالآلاف السنين !! وأبدع التحف من الرقائق المتوجة معلنا انتصاره على الصوان ، وسيطرته على المادة .

وليسست المسألة التشكيل على قيمته وقيمته ، ولكن ادراك القيمة .

ان الفن المصرى نهر آخر من الجمال ولكن البعض يففل عن المنبع المتدفق كينظر الى البالوعة التى تتجمع فيها الشوائب .

وحقق الفن المصرى أمنية الصوة لأن الفنان المصرى كان عنده

تفتح وانفتاح وانسراح وتعمل في التقبل فاذا رسم أحسن احساسا طبيعيا موهوبا بالنسب فيخرج الأثر الفني وكأنه منظوم من بحور رياضية . هنا يكون الفنان شاعرا موهوبا يجيد النظم ولو لم يعرف العروض . ويكون الفن من الرقة والدقة بحيث يؤكد النسب الشريفة ... النسب الذهبية . والفنان وسيلته الى النسب الفاضلة الذهبية ليس المسطرة ، ولكن نقاء النفس .

والفنان المصرى يجمع مع احساسه العميق بالنسب ، قدرته على تنويع الحركات مع اشاعة النسق فيها كما في صورة قطع الأبقار في مقبرة خنوم حتب ، و (نى عنخ خنوم) التى كشفت عام ١٩٦٩ وهما من رجال قصر (أوناس) من ملوك الأسرة الخامسة .

ان الحركة في الفن المصرى حياة نابضة . فالحمار وهو من الحيوانات الجادة يرسمونه وله رأس آخرى لتمثيل الحركة أثناء العمل .

متمة حقيقية أن نزرر سقارة ونقرأ الجدران قراءة ... هنا لا تحيط بالوصف الكلمات .. لا يستطيع ... ماذا يقول الواصف بعد الذى قاله الفرائنة أنفسهم في وصف الفن المصرى .

(ان وهج النور الذى ينعكس على وجنات مشاهديه اكبر من النور المنهل من السماء) .

ماذا يقول الوصف في فن قادر على عكس السكون والحركة في مكان واحد .. قادر على إحياء الصوت والصمت معا ..

انه فن حى لانه يجمع مائى الحياة من حركات وسكنات وأصوات وصمت وسائر ألوان النشاط . ففيه حس التنويع والتقسيم الموسيقى . ومع هذا فهو فن الصمت .

فلما تجد فى الفن المصرى فما مفتوحا .

اذا زرنا المعبد المصرى او المتحف المصرى فيجدر بنا ان نلزم الصمت لنسمع الرسوم والنقوش وهى تتكلم ويمدب منها الكلام او تصمت فتكون أبلغ بالرمز والإيحاء .

سعيد سعيد من يسمع الفناء فى الحالىن .

غير ملومين أولئك الذين ظنوا الفن المصرى ولد كاملا كما ولدت منيرفا من رأس ايها جوبيتر فى الاساطير اليونانية .

انه كالعروس في جلوتها .

وتذهب كل جلوة وتظل جلوة الفن المصرى .
دائما عليه رواء .

لقد لعبت الهنسية دورا كبيرا في الفن المصرى الذى يبدو للعين
الظاهرة فنا بسيطا وهو ابعد ما يكون عن البساطة المتعارف عليها .

بساطته « تماسك » و « وحدة الكتلة » و « قرار النغم » .

لم يرتفع فن التصوير لى أى بقعة من الدنيا كما ارتفع فى سقارة
ولا يعدلها فى هذا الا ابيدوس .

وقدما المصيرين اصحاب هذا الفن ، عندهم احساس بوحدة
الوجود حتى لتنبض جدران معابدهم بالصورة نبضا تخال معه ان
الصور تنبع من الجدران !

انها وحدة بين الجدران والصورة ..

وفرق بين جدار ينضج بالصورة ، وبين صورة معلقة على جدار .

انه فن العطاء فما اكثر حاملات القرابين فى المعابد المصرية . ان
الرحابة فى لوحاتهم فيها من رخائلهم وكرمهم النفسى .

وكل بما عنده وجود .

والفن المصرى على جماله وروعته وفناه ، يوفر للعين والنفس
قيما اخرى كبيرة . انه يؤكد طاقة العمل الجبارة لديهم .. فالعمل
موضوع أساسى فى التصوير المصرى والنحت المصرى . العمل الجماعى
الذى يشده خيط من النظام والتعاون والتقسيم والتوزيع .. وأخيرا
« روح الفريق » .

ان « روح الفريق » واضحة فى الفن المصرى تمام الوضوح وأجمله
ايضا .

وشئ آخر لا يغيب . وهو « عالمية » الفن المصرى . ان الأسماك
فى معبد « ميراروكا » بسقاره فيها واقعية علمية عجيبة حتى لتعتبر
انها أدق وأضبط من الأسماك المرسومة عن نماذج حية محفوظة للفرض
العلمى .

ان اى حضارة فى العالم لم تصل الى اعطاء الخاصية المميزة Characteristic للاسماء والطيور كما فعلت الحضارة المصرية والفنان المصرى القديم .

(علمية) الفن المصرى تبدو فى « الاضاعة » حتى ان العلم الحديث لم يصل بعد الى مصدر الاضاعة عند قدماء المصريين . تلك الاضاعة التى مكنت لهم من الرسم والتلوين فى المقابر وعلى اصماق مختلفه بعيدة عن مصادر الشمس .

. **والانسان فى الفن المصرى جزء من الكون كله حين نجد الانسان فى**
الفن اليونانى انسان مدينة وهو اطار ضيق عن مصر وتضييق به حتى
ليفسر الأستاذ شفيق غريال ابتداءها نظام الرهينة فى عهد الرومان بأن
(النظام فى صميمه ولبه ثورة الفلاحين المصريين . هى فى ظاهرها ثورة
على الحياة الدنيوية ، ولكنها فى حقيقتها وواقعها ثورة على المدينة ،
وكل ما ترمز له المدن وحياة المدن ، وقد تردت فى وهاد الجذب والعقم
والعنف والرديلة) فالرهينة المصرية كانت ثورة على اهمال الريف فى
اسلوب الحكم الرومانى .

يقول و . ا . ل . كوبلاند : « بلغ المصريون شأوا من الانسانية
السحرة لا يرقى اليه الشك ، واذا نحن قسمنا المصريين بمقاييس
الفينا هم اقل قسوة من غيرهم ثم هم كانوا مشغوفين بالنظافة ونحن
لانفتنا نشعر بالمعطف على هذا المعجوز سنوحى الذى نفى بين قبائل
البدو فأخذ يحن الى مطارف الكتان النظيف التى كان ينعم بها فى
وطنه .

وفى المعمار المصرى الأعمدة السامقة الثابتة (١) تحيطك بالقوة
وتؤكد لك ان قومنا لم يهروا من المادة ولكنهم جعلوها تشف وتبين .
انت داخل المعابد المصرية تحس الطمانينة بين العمود الشامخة والجدران
الغنية وصور الحياة التى تشعرك بالعمران . . بالعيش .

(١) يقول الأستاذ حامد سعيد : « ان الحياة التى بدأت على هذه الأرض من
البداوة الاولى وانتقلت من الصيد وتنقل الرعاة الى الزراعة واستقرارها اتخذت من
فن البناء رمزا لهذه الحضارة الجديدة واصبح الثبات والارتكاز والدوام ، وهى القيم
الجديدة التى كان المجتمع يحاول ان يؤكد بها تجد اكمل تمثيل لها فى فن العمارة » -
(مجلة الادب عدد اكتوبر ١٩٦٣) .

يقول ف . لوولن جريفث أستاذ الآثار المصرية بجامعة اكسفورد :
 « كان المصريون القدماء مهرة في صناعات كثيرة بصورة خارقة ولنا أن
 نعجب بقدرتهم على نقل النصب الهائلة التي بلغت زنة الواحدة منها
 ألفاً من الأطنان من المحاجر الى المعبد البعيد ورفعهم المسلات الى
 وضعها العمودى فوق قاعدة ضيقة . وذلك كله بلا روائع هندسية .
 وقد أمكن فى السنين الأخيرة تفسير هذه العجائب حقاً . . . وقد
 لا يمضى زمن طويل حتى نعرف بصورة قاطعة كيف غطيت أسطح هائلة
 من الصوان وغيره من الحجارة الصلدة بنقش دقيق وكتابة هيروغليفية
 فى خلال عهد ملك واحد » .

ويقول : « ان الكيفية التى تقام بها مسألة ثقيلة مع انها نحيلة لمن
 المسائل الكثيرة التى أثارها مصر طلباً للحل ، والمسألة المصرية بشكلها
 العمودى التقليدى تمثل أسلوب مصر فى البناء وشخصيتها فيه . . . ذلك
 الأسلوب الذى التزمته مصر حتى عصرنا الحاضر بعد كل مظاهر
 التحوير . وان العين المتأمل لا تخطئ وحده الفن فى المسألة والمثمنة
 والبرج . . انه الخيط الذهبى الذى يربط فن مصر على طول العصور
 ويؤكد شخصيتها .

ان استقرار الحضارة فى مصر ولمدة طويلة على أسس سلامية
 اعان على نضج وجدانى عند الانسان المصرى يجمع بين الواقعية
 والمثالية وهى أعلى مراتب الوعى الروحى .

ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى الدولة الحديثة أن فيها
 كان ينبثق من بين خطوطه اشعاعات قوية استطاع فى ضوءها اليونان
 والرومان معرفة السبيل الى التكوين والانشاء اذ عرفوا منها كيف
 يضعون خطوطهم المعمارية لتتلاقى عند هدف واضح كالخطوط المصرية .
 يقول المهندس الدكتور محمد حماد فى كتابه « مصر تبني » :

« لقد وصف أحد الفلاسفة القدماء العمارة بقوله (انها موسيقى
 متجمدة) فالعمارة المصرية اذا أردنا سرد تاريخها وتطورها خلال ذلك
 الاطار . . لوجدنا انها سيمفونية خالدة متعددة الفصول متباينة المقاطع
 ولكنها مرتبطة تمام الارتباط . . ولم يتوقف اللحن خلال ذلك التاريخ
 الطويل الا ليجدد نفسه فى كل مرة . . ولكنه لم يتخل عن قوته .

لقد بدأ المقطع الأول من تلك السيمفونية الخالدة ، بمطلع قوى
 كانت قوته كافية لتوقظ أحجار الجرانيت والبازلت الصلبة التى كانت
 تنوسد شاطئ النيل لتجسم منها أول امثلة لنظريات العمارة فى

العالم ، وتعلن عن ميلاد أول طراز معمارى عرفه التاريخ وتصدر جميع مراجع تاريخه المعمارى .. حيث بدأ بالمصاطب ، وتدرج ليكون الأهرام .. وانتقل من لحن الى لحن ممثلا فى سلسلة من آثار المعابد والنصب التذكارية والمنشآت المدنية ووضع اسس نظرية الانشاء فى مصر ، وهنا ارتفعت اعمدة المدينة المصرية لتلقى الظلال .. فعبرت البحر الأبيض وانتقلت الى شواطئ أوروبا لتضع بذور المدنيات التى ظهرت بعد ذلك فانعكست اعمدة معبد هرم سقارة وبنى حسن لترسم الطرز اليونانية ، والاعمدة المتراسة لتمكس ظلالتها على الطرز الرومانية وزخارف العمارة الأتروسكية القديمة فى ايطاليا .. وهكذا نرى انه كان للعمارة المصرية اثرها وفضلها فى ظهور الطرز المعمارية التى عاصرت مدنيت الغرب » .

ان الفن الفرعونى لغة وحده ، لغة يفصح فيها الرمز ، وتسمد الایماءات ، فحاملات القرايين رمز لمصر نفسها .. مصر ذات العطاء ..

يقول ت . اريك بيت T. Eric Peet أستاذ المصريات بجامعة ليغربول ومؤلف كتاب « مصر والعهد القديم » :

(ان الرسوم البسارزة فى الألواح الخشبية المأخوذة من قبر « هيس » فى الأسرة الثالثة تعد من اكمل الأعمال الفنية فى العالم فهى تفسح لمن يراها آفاقا من الايحاء لا حد لها وليس ذلك راجعا الى كمال الشكل ، بل ان هذه الافاق تجنح الى الاختفاء اذا بلغت هذا الحد من كمال الشكل) .

والتعاطف مع الحيوان الميثوثة صوره ورسومه فى لوحاتهم رمز الطيبة والودادة التى تصادق كل شئ حتى ، رمز ايمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفة والمتصوفة واصحاب النظريات .. لا باعتبارها عرفا واصطلاحا ، بل باعتبارها كما يقول الأستاذ حامد سعيد ، « موقفا تجاه الحياة تتحقق فيه قيم ومشاعر الرواقية والمسيحية والصوفية والبطولات النفسية دون أن تكون واحدة من هؤلاء بالذات » .

وتقدس المرأة يقولون به بغير حروف فالسماء امرأة وايزيس الالهة المحبوبة امرأة وهاتور امرأة . والمصري القديم لا يفارق المرأة فى صوره وتمائيله . وهو ولوع بسن الأزهار والتفتيح فالمرأة فى الصور المصرية فتاة فى ربيع العمر أو شابة فى اكتمال النضج حين الثلاثين ، ولامر ما ، لم تحمل الصور المصرية شيخا أو عجوزا .. إنه تشبهم

بالحياة من فرط ما وفرتهم لهم مصر من نعيم .. ومن هنا نبعت فكرة الخلود عندهم فخدموا طاقاتهم كلها لتحقيقها .. طاقاتهم الفنية .. والمادية على السواء .. ان الموت الذى كانوا يكونون عنه من كراهة له انما هو فى رأيهم معبر الى الضفة الأخرى حيث تتواصل حياتهم كما ألفوها بالتمام . ان جنة المصريين مصر خالدة . وانا أعنى « بالتمام » هنا فان المصرى من فرط تعلقه بمصر يرى أنها « كنانة الله فى أرضه » ومن ثم خلق نيلها ونيل آخر للأجانب كما جاء فى نشيد اخناتون . حتى الشمس فى عين المصريين لا تكون دائما فى غير مصر مثلها فى مصر توهجا ووضاءة .

يقول Griffith عن الرحالة المصريين الذين وفدوا على الشام فى الشمال وعلى النوبة فى الجنوب وتطلع بعضهم فيما وراء حدود الامبراطورية الى بابل وآسيا الصغرى وكريت . « ان هؤلاء الرحالة المصريين وجدوا الشمس مستعلية فى كل مكان يمما شطرد ولكن لم تكن دائما فى غير مصر مثلها فى مصر توهجا ووضاءة » .

الفن المصرى القادر من يومه على صنع التحف من الرقائق المتوجة معلنة انتصاره على الصوان وسيطرته على المادة .

الفن المصرى الذى حفر على الخشب وهو سريع البلى ، آثارا باقية . وهذه الآثار يقول عنها اريك بيت أنها «أسمى من أن يقلده مقلد فان شيئا لا يمكن أن يفوق التمثيل الدقيق والقصد فى التخطيط الباديين فى هذين اللوحين اللذين احتواهما قبر (هيس) من ملوك الأسرة الثالثة » .

الفن المصرى فن النمنمة وترصيع الذهب وتحبيب الحجارة الكريمة .

الفن المصرى فن تشكيل المرمر والاردواز والرخام الزاوى والسربتين والديوريت .

الفن المصرى فن التطعيم بالذهب والقيشاني والأبنوس والعاج المبرقش .

الفن المصرى فن التزجيج الذى عرفته مصر فى عصور عتيقة نائية .

الفن المصرى فن الحلى الأخاذ التى ابتدعتها انامل مصرية للاميرة

خنوميت ذات التاج الذى أبدعه لها الفنان المصرى من زهور زرقاء
ورصعه بالعقيق الأحمر المركب على مخرمة ذهبية .

الفن المصرى الذى شكل من الممر ساعة مائية قبل الميلاد برمن
طويل (الأسرة ١٨ : ١٥٨٠ - ١٣٥٠ ق م) .

الفن المصرى فن النحت الذى بلغ ذروته فى رأس نفرتيتى وجيدها
حتى ليهتف جريفيث منصفا : « ليس قبل بداية عصر النهضة فى
فرنسا ما تمكن موازنته برأس نفرتيتى » .

والفن المصرى يقوم كالحياة على التفاوت والتنوع فيجمع فى
الجدار كما فى « بتاح حنب » بين ديناميكية الصيد ثم يتطرق الى
حركة أهدأ حين ينظم فى خط ، اللامين بشد الحبل ثم يصل النغم الى
قرار حين يهب الفنان المصرى الاطار الثالث للتجديف فى النيل .

وبين كل اطار وآخر كتابة تعينك على الاسترواح والاستيعاب
والاستعداد أيضا للاطار الذى يليه .

ثم تلحظ عينك ان المستطيل المكون من المجموعات الثلاث يوازي
العصا المهيبة التى يمسك بها بتاح حنب كأنه يجمع الحياة فى وقفة ..
فى نظرة ثم تمتد عينك خلفه فتمتد « الحياة » مع البصر .. مجموعات
أخرى من الكائنات والأحياء وإذا الجدار سيمفونية رائعة .. أو قصيدة
فى شعر الحركة ، صاغها الفنان المصرى من التنوع والايقاع والوحدة .

والجدار المقابل يمثل بتاح حنب فى القصر . هنا تهدأ الحركات
من احترام وخشية .. ان فى جلسة بتاح حنب استقرازا وهدوءا
سعيدا . يشيع هذا المعنى هندسة الرسم ومواعماته .

وان العلاقات الأسرية المرحية المنطوية على الود .. التى تتجلى فى
مقبرة بتاح حنب وتنطق بها النقوش ، يعدها برستد « كشفا جديدا
ذا أهمية أساسية فى تاريخ الأخلاق » .

ان الفن المصرى القديم يعبر كثيرا بالهارمونى الرياضى أو
ما يسمونه موسيقى الأفلاك وهذا يفسر القول بأن فيثاغورس تلميذ
المصريين كما كان أفلاطون تلميذهم .

والحسن الرياضى يعطى الفن المصرى اللمعة « المودرن » اللمعة
العصرية لأنه يتفق مع العلم الحديث الذى أساسه القياس . هذا الزنبر

الرياضى ينبعث من خلال الرسم المصرية والفن المصرى بجميع أساليبه .

وخطوط الفن المصرى فيها خبرة معمقة قد يجهدك فهمها وان كانت هى تجرى فى يسر ولكنك بعد أن تتفهمها تغدو أغنى نفسا وأرهف احساسا وأعمق إدراكا : تغدو شفاقا فى صفاء البللور .

ان الآثار المصرية لا أقول القائمة الشامخة ولكن الخرائب . هذه الخرائب تنبثق منها رؤية البقاء .. انها عالقة بالخلود معلقة به .

ان انف أبى الهول المهشم ، يمر به الفناء عارضا لا بقاء له . ويظل حضور أبى الهول بعد هذا فوق الأحداث وفوق الزمان .

ان آثارنا ليست منسوبة الى الماضى وحده والا اقتصر أمرها على قنى محفوظة ولكنها تخطت من التاريخ والزمن وخرجت الى افق المعنى ولهذا هى باقية .

هذا هو فن مصر الفرعونية .

اما العمارة فى مصر المسيحية فقد كانت فى نفس الراهب . كان فى داخل الراهب المصرى معبد مصرى بمعانيه لا بأحجاره .

ويجرى التاريخ فى مصر وتتعاقب الدول والعهود وتتصارع اللغات والأديان ، وفى دوامة الصراع بكل ألوانه تختفى أشياء وتظهر أخرى وتظل مصر وحدها هى الباقية تطبع الكل بطابعها مهما اختلفت أسماء .

فروح مصر هى التى تظل من خلال الفنان المصرى مسيحيا أو مسلما لا فرق بين الكنيسة والمسجد فى أسلوب الفن وخطوطه المعبرة وان اختلفت التفاصيل .

يقول الدكتور مراد كامل (العمارة التطبيقية هى العمارة الفرعونية، وهى العمارة اليونانية الرومانية فى مصر وهى العمارة الاسلامية فى مصر . وأما الفوارق التى تفصل بين كل منها فهى فوارق اقليمية اقتضتها السلطات الزمنية فى عهد ما ، ثم بعض اعتبارات دينية ولكنها فى الحقيقة - تلتقى عند الأصول والأسس التى قامت عليها العمارة الفرعونية .

ومهما يكن فان ما دخل عليها فى كل، من تحوير أو تكييف بما يلائم

ظروف البيئة ، لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية) .

وجاء الاسلام فكانت رؤيته للايمان أنه بانيان مرصوص في عملية ربط بين النفس والبناء .. بين **العمارة والعمار** ...

والعمارة صياغة الحجر أى صلابة وصمود .

والحلى صياغة الذهب أى جمال وفن .

ومصر صاغت الاثنين وعلمتها الصياغة الكثير **فيثت** نفسها **وجملتها** .

ولكن الكتب تتكلم عن وحدة الشمال والجنوب في عهد مينا ولم تتكلم عن وحدة الفن المصرى والنفس المصرية . وحدة اطردت على مسار العصور .

لقد تلقى الفنان المصرى التشكيلى اللغة العربية فاستخدم موسيقاها في فنه . فان من يتأمل الألوان في رخام أرضية السلطان حسن يجده لونا (بديعا) فيه تقابل الألوان وتجانسها على مثال الطباقي والجناس في الأدب وأحيانا يسجّع الفنان المصرى المسلم بالخطوط والتشكيلات .

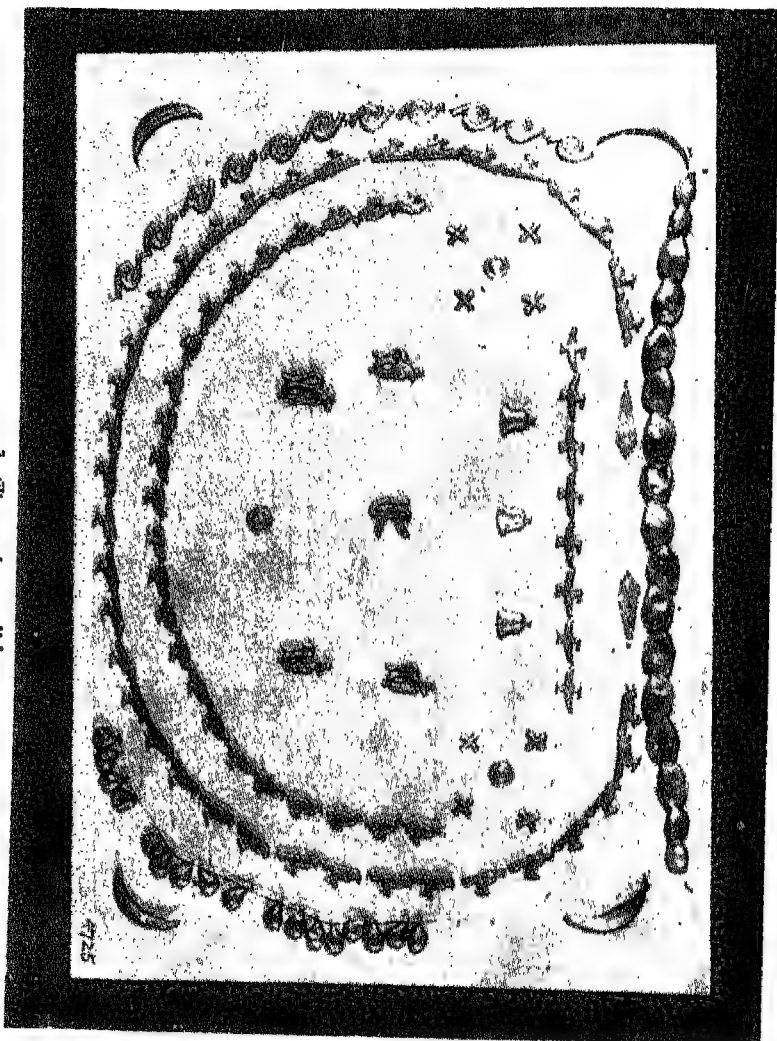
واستلم الفنان المصرى في العصر الاسلامى نظام الأحجار المتداخلة في البناء ولكنه زاد عليه (التقسيم) بالألوان . كان مأخوذا بالنظام والموسيقى من اثر التاريخ الطويل ، فخلق من (التقاسيم) في الفن الاسلامى ، أفراحا تغنى .

وثانى القبله (فتنشد) بالألوان وتقاسيم الخطوط في (الحنية) **تواشيع** .

لقد موسقت مصر الدين حين رددت آياته ، ورتلتها ترتيلا ، لأنها تعرف بالحنس الحضارى أن القلب البشرى يحن الى النغم والتناشى فاذا اقترن المعنى الشريف بالنغم الجميل تلقت النفس سسيلا من الحنان .

والفن الاسلامى في مصر حين يطعم ويرصع ، يستجمع خبرات السكان الذى انطق الحجر ، ولعب بالذهب ، ومهر في التشكيل والتصوير .. وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء

نماذج من حل مسر القديمة



725

نمطان من الخيل في مصر القديمة

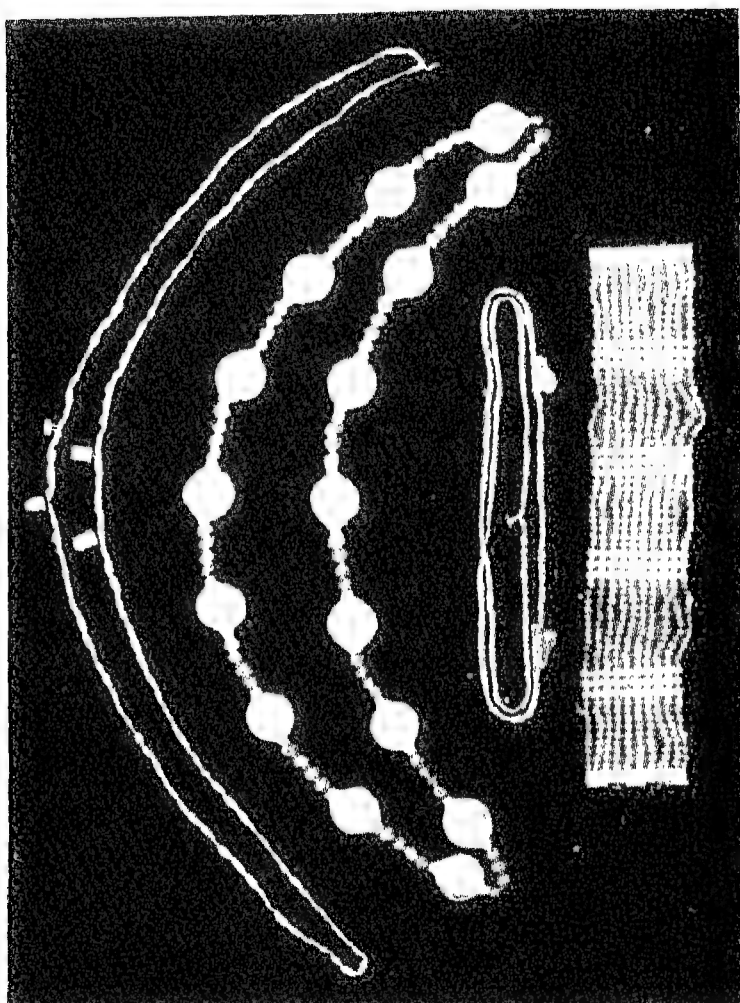
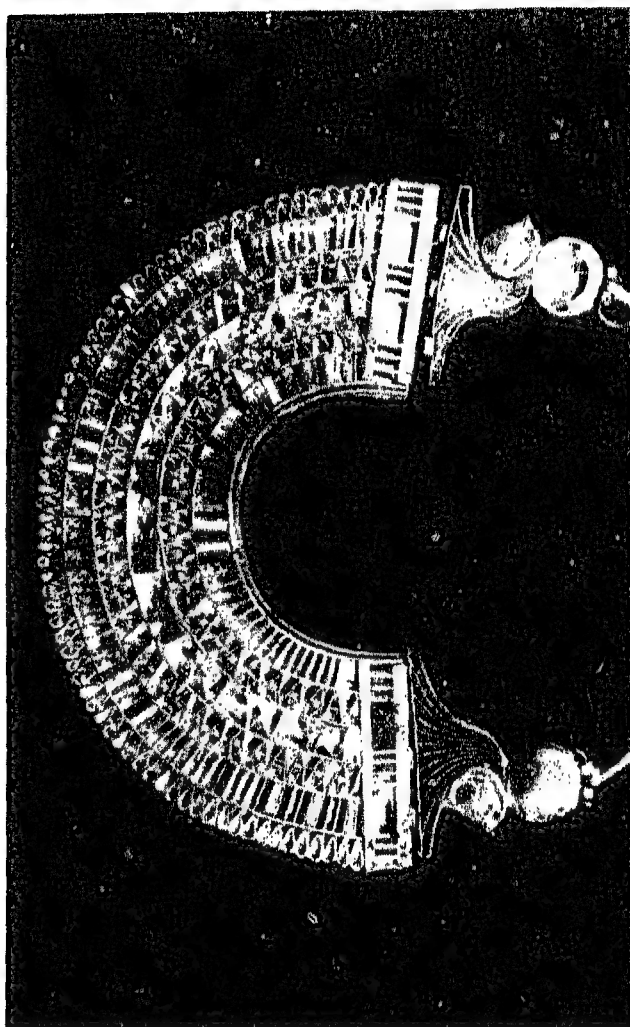
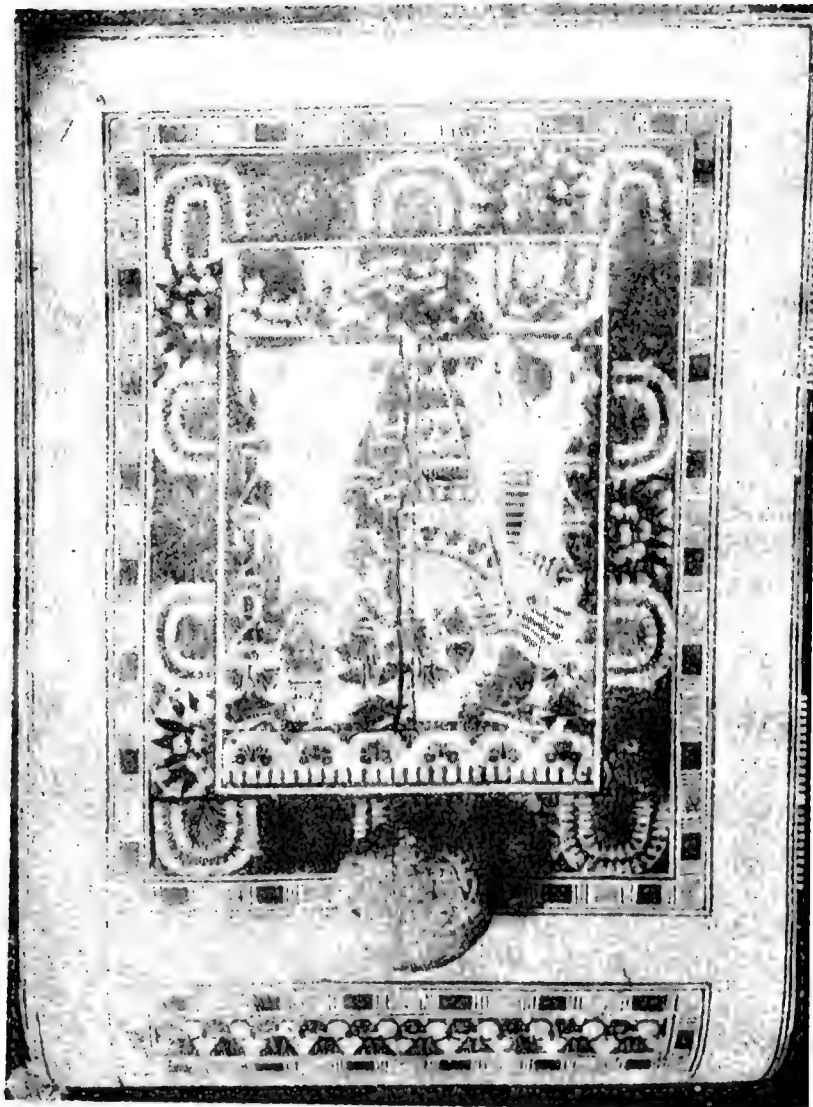


Fig. 1. 1950. 10. 10. 10.





لطا، صندوق من مقبرة توت عنخ آمون ويرى الملك والملكة
وروعة الانجاز الفني

الجواهر النادرة فيما بين القصرين مما أفدقته ، على الفاطميين ،
القاهرة .

ففي العصر الإسلامي غلبت شخصية مصر على الصنعة والفن
فساد في الرخفة استعمال الحفر والتلوين والتنظيم بل اقتنى الحكام
المسلمون التماثيل ، هواية مصر المحبوبة منذ القدم مع توهم كثير من
المسلمين تحريم الدين لها ، وما حرم الدين الا المبود منها أو ما قصد
به العبادة . ومتى ؟ في حداثة العهد بالإسلام .

لقد كثرت التماثيل في العصر الفاطمي حتى كانت تهدى الى قاضي
القضاة وحين نسب المقرئ الى صائم الدهر تكسب انف ابى الهول
وكسر التماثيل في عصر الاضمحلال ، علق على هذا بأنه حصل عسل يثاق
الدين .

يقول الأثرى الإسلامي الكبير الأستاذ حسن عبد الروهاب في بحثه
الذي ألقاه في مؤتمر الآثار في البلاد العربية المنعقد في دمشق سنة ١٩٤٧ :

إن الصنعة الإسلامية في القاهرة امتزجت بـ **بمميزات** : الأولى أنها
احتفظت بالكثير من التفاصيل المعمارية التي انعدمت أو قلت من الأقطار
الأخرى التي كانت تشترك معها فيها ، والثانية أنها **تفردت** بمميزات
اكتسبت طيها ، مثل القباب والمنارات ودقة أعمال النجارة والجبس
والرخام ، ميزتها على كثير من سائر البلاد الإسلامية) .



وصافت مصر الإسلامية الى قديم فنها في الحفر ، الفائر منه
والبارز ، والتخريم والترصيع بالمينا .. **فن التكفيت** . ومن مصر خرج
هذا الفن ، و باسمها سار ، وعنها أخذته أوروبا فقلدت إيطاليا دون أن
تضاهي فلم تبلغ أوج مصر ولم .. تشاليتها .. ومطت (بيزا) بفخر
اقتناء أروع تمثال برنزي يجمع بين جسم الأسد ورأس النسر ، آية
من مصر .

وأبرز ما تجلت شخصية مصر القديمة في العصر الفاطمي الذي
تم فيه تعريبها وأصل إسلامها .

ففي العصر الفاطمي الذي يعتبره المؤرخون نقطة تحول في تاريخ
مصر من الناحية الدينية .. في العصر الفاطمي هذا اطلت مصر القديمة
كالمعمدة على الحياة المصرية ذات القيمة ففرغت أسلوبها على الفن

فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التى ألفها أجدادنا وتجلت كما يقول الدكتور مبد العزيز مرزوق (فى صورة رائعة نشاهدها فى حجاب كنيسة الست بربارة بالمتحف القبطى . وفى المنبر الموجود فى مسجد قوص ، وفى محراب السيدة رقية والواح القصر الفاسطى الصغير فى المتحف الاسلامى) .

وفوق قبة الامام الشافعى رفع البناء المصرى زورقا دقيق الصنع وكأنه يلوح لزورق آمن فى طيبة وزورق الحجاج .. اسلوب مصر هو .. هو على مر العصور وإن اختلفت اديان ونظم واحكام .

يقول الأستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه « من روائع العمارة الاسلامية فى القاهرة » أن الدولة الفاطمية (احضرت معها فى مستهل حكمها بالقاهرة بعض اساليب العمارة التونسية ، ولم تلبث طويلا حتى تخلصت من تلك المؤثرات واصبحت لها طابع قاهرى بحث فى جميع تفاصيلها) .

ويقول الفنان الأستاذ حامد سعيد فى حديثه عن الجمال الرياضى المصرى : (ان الأعمال المصرية لها جوها الخاص الذى يميزها حتى عن الأعمال التى خرجت مثلها من ثقافة واحدة الا انها فى بيئة اخرى كما هو الحال فى الفن الاسلامى فى الهند وايران والعراق وتركيا وبلاد المغرب واسبانيا حيث تشترك جميعها مع الفن المصرى الاسلامى فى وحدة ثقافية كبرى ولكن الفن المصرى الاسلامى يشيع فيه ذلك الجمال الرياضى الذى هو طابع الفن المصرى خلال العصور) .

ومهرت مصر بفنها وزخارفها الهندسية والتجمية اشهر الآثار الاسلامية فى العالم مما يشهد به تابوت الامام الشافعى بقبته وتابوت الامام الحسين ومئبر مسجد ابن طولون .

وفن الزخرفة فن مصرى قديم وولغ مصر به تحكيه آثارها فيه ونقوشها التى تدل مساحتها الكبيرة على ان الزخرفة المصرية كما تقول : Pavla Fortova-Samalova فى كتابها Egyptian Ornament (لم تكن تتبع فقط من رغبة بسيطة فى التزيين ، ولكن من فرع المصرى بحيويته الدافقة من « الفراغ » .. تنبع من رغبة جميمة فى التعبير عن الايقاعات العميقة للحياة فى اسلوب منظور ، وتنبع من حاجة الانسان الى رسم ممتلكاته الخاصة بشكل ما .

كما تعكس هذه الآثار احساس مصر باللو وقدرتها على التنوع

باستعمالها عددا محدودا من الألوان لتخلق منه عددا عظيما منها) .

وأعطت مصر فيما أعطت طرقا جديدة لم تكن معروفة من قبل
وذاقت بفضلها في شرق العالم وغربه كطريقة التشويق وطريقة التجميع
وطريقة الخروط مما كسبه العرب من مصر فيما كسبوا . وإذا عرفته
أوروبا عن طريقهم في الأندلس ، سمته « الأرابيسك » وشاعت تسميتها
« الأرابيسك » وما هو إلا فن مصري قديم تشهد به آثار توت عنخ آمون
والمتحف القبطي والآثار القبطية التي تعد نماذجها فيه امتدادات لروائع
مصر القديمة . وأنا لا أحيل القارئ على المعابد المصرية المنتشرة على
صفحة الوادي فذلك مهمة متعددة في رحمة الحياة ، إلا على الدارسين
والمفتونين ولكني أطلب إلى القارئ أن يطالع كتاب : **Egyptian**
Ornament ليرى فنون الزخرفة المصرية ثم ادمه بقابل وبحكم
بنفسه .

عنا أخذ العرب ما يسمى الآن « الأرابيسك » وطوروه حتى وصل
في (الحمراء إلى ٦٤٠ شكلاً ولكنهم مع هذا عجزوا عن تجميع الوحدات
الزخرفية في كل شامل شأنهم في هذا شأنهم في كل شيء فهم يطورون
الجزئيات ولكنهم عاجزون عن التجميع في وحدة . . تلك الوحدة التي
امتاز بها الفن الفرعوني . أن معبد أدفو على ضخامته يسمع الترتيل في
قدس الأقداس في جميع أرجاء المعبد . لقد صمم البناء على هذا
الأساس، أنها الوحدة في الفن . . وحدة تربط حتى بين الصوت والمكان.

وأعطت مصر للفن الإسلامي ، الجاسع الأقمر بواجهته التي تعتبر
قطعة من الفن الجميل والتي نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة
بالمقرنص Stalactite والتي أصبحت من أخص مميزات الفن
الإسلامي كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوقي كما نشاهد فيها
الأحجار التي تفتن البناء في قطعها وتشويقها وهي - ظاهرة معمارية
ظهرت لأول مرة في مصر في عصر البطالمة في مقابر كوم أبوها ثم اختفت
لتظهر من جديد في هذه الواجهة . كما نشاهد أيضا كثيرا من العناصر
الزخرفية التي كانت مالوفة في العصر القبطي قد رسمت هنا بطريقة
متقنة تدل على نضوج المذقة الفنية عند راسمها . والواقع أننا نلمس في
زخارف هذا المسجد و « جامع الحاكم » الروح الفنية المصرية ونذكر
أنها أخذت تبرل من جديد قوية واضحة بعد أن تخلصت من الفن
الأجنبي الذي فرض على البلاد في العصر الطولوني .

حتى الزخرفة بالأشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ودوائر

وخطوط متلافية ومتقاطعة مما اشتهر به الفن الاسلامى تعود الى الفن القبطى الذى لجأ الى هذا الأسلوب فى مرحلة من مراحله خدم فيها الرمز فى التعبير وتعتمد البعد عن تصوير طبيعة الإنسان حتى لا يتورط فى رسوم لا يرضى عنها رجال الدين .

ولما لم يكن رجال الدين فى الاسلام أقل تحزوا فان الفنان المسلم لم تطل حيرته إذ وجد فى مصر الزخارف القاطبة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية التى تبعث من تصوير الأشخاص نقبس منها . وهكذا نجد كما يقول الدكتور مراد كامل (صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره الى الفن المصرى الإسلامى) .

ومن أجل هذا وغيره يعتبر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن القبطى « حلقة اتصال بين الفنون المصرية القديمة السابقة على الاسلام وبين الفن الإسلامى » . فمن النقوش الموجودة على المعابد الفرعونية ومن آثار البطالمة ، ومن الفسيفساء الرومانية ، ومن التحف الماسانية والبيزنطية التى وصلت الى مصر من طريق التجارة أو الهدايا . من هذه الأشياء استمد الفنان المصرى القبطى قنصره الزخرفية التى كون بها فنه الجديد ركيزة استمد منها بدوره الفنان المصرى المسلم فنه الجديد . . القديم .

وأعطت مصر الفن الإسلامى مدرسة السلطان حسن التى تعد من أعظم الآثار الإسلامية فى العالم وأروعها فى مصر .

ومصر هى التى استعملت لأول مرة الفسيفساء المذهبة حين زين بها البناء المصرى محراب قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب التى أنشأها زوجها شجرة الدر .

ومصر أول من استعمل القبو فى التسقيف منلما بنت مشهد الجيوشى حين أفتن الفنان المصرى فى محرابه فكان آية . . .

ومصر هى التى طورت (القبة) التى تحدثت من معالم الفن الإسلامى وبلغت بها ذروتها فى عهد المماليك حين أهدى الفن المصرى ، قلاوون ، قبة ومحرابه ، مستمدة القدرة مما أسلفت فى فن العمارة والنقش والزخرفة حتى لتعد زخارف الفنان المصرى فى واجهات المساجد والمآذن امتدادات لفن مصر القديمة بما حوت من عناصر زخرفية . .

واذ عاد من جديد النشاط الى المحاجر والنقش على الد
ابتسم القدر وتذكر الزمن .

وكما اعطت مصر الفرعونية للدين القديمة اواني الفخار الجميلة
وابتكرت الخزف وحدقت صناعته وعلمته لغيرها من البلاد ، اغنات
مصر الاسلامية ، الخزف ذا البريق المصدني ثم ابتكرت مصر صناعة
القراميد .

حتى الفخراى المصرى البسيط تفنن في تشكيل القلل وزخرفة
شبابيكها زخرفة تظفر باعجاب الراى .

وابتكرت مصر في عهدها الاسلامى الزجاج ذا البريق المصدني
« كما ابتكرت مصر الزجاج المموه بالمينا » . والمشكاوات التى ائوت عن
مصر فى العصر المملوكى تشهد بملو كمها فى صناعة هذا اللون الحضارى .
وتطلعت ايطاليا الى مصر مرة اخرى فقلدتها .

ان الزجاج المصرى عنوان شفاف للحضارة المصرية . وقد وصل
الزجاج قمته فى مصر اللامعية . يوم اعطته مصر فيما اعطت البللور
الشفاف . لقد انشرح صدر مصر للعطاء .

اطلت مصر القديمة على الحياة الفنية فلمعت دور الطراز التى
عرفت بها مصر دورها فى قصور الخلفاء والامراء والحكام فى انحاء العالم
الاسلامى فخرجت الخلع والمنح من مصر الوهوب . وكانت الكعبة ابرز
ما اقتزن باسم مصر من اصحابها حتى صار تقليدا مصرى ان ترسل
مصر كسوة الكعبة سنويا كما اشرنا .

ولبس العرب من مصر المطارف والقباطى والبدنة والقصب وكم
سفر لمصر فى الخارج نسيجها وحريرها وطنائسها . . نعم طنائسها
فقد اثبتت حفائر الفسطاط سبق مصر فى صناعة السجاد ومنافستها
لايران فى هذا المضمار الذى يحسبه البعض وقفا عليها . وفى متاحف
اوروبا بغامة وفيينا بخاصة يقوم الدليل .

يقول اربرى A.J. Arberry (ان مصر تقوم وسط
العالم الاسلامى فى الصميم ومن ثم كانت لها صلاحية الدور القيادى
فى الحركات الاسلامية بما هى مهابة له . . تماما كما فطت فى العصور
الاخرى والمسيحية اذ كانت بمثابة مستودع تلتقى فيه افكار وثقافات
الشرق والغرب وحتى اليوم يعجب المرء من ان مصر لا تزال تمثل هذا
الدور . تقدم الغرب الى الشرق الاسلامى وتقرب بنفس القدر

والاهمية الشرق الاسلامى الى الغرب .. كان هذا ولا يزال عمل مصر
الأرفع ، وفى هذا العمل لمبت مصر دورا لا ينكر ولا يجحد فى مقدرات
الاسلام) .

هذا ما فعلته مصر للاسلام بعد المسيحية . وعلى مقربة من مصر
بلد صالت وجالت فيه الطائفية والحروب الأهلية مما يشهد ان الوسائل
الحديثة والترف والظهور بمظهر أوروبا ليس الا قشرة تحتها جاهلية
وأمية نفسية فلم يستطع أن يرتفع الى أفق المسيحية والاسلام اللذين
مرا عليه بل نبتا على بعد خطوة منه .

ان العراقة اكبر كثيرا من التمدن واقتناء الآلات الحديثة .

ان الحضارة تاويخ طويل وأصيل .

أدب مصر الفرعونية والمسيحية

مصر مؤمنة حضارتها دينية .
ومصر فنانة انجازاتها الرائعة كنول منشورة .
ومصر أدبية
أدبية بالمواظ و آداب السلوك ، والأمثال ، والحكم الخالدة .
أدبية بالمقالات والرسائل .
أدبية بالقصص القصيرة حتى ليعود الاعتقاد بين علماء الآثار
أن مصر هي موطن القصة القصيرة .
أدبية بالأناشيد والتسابيح .
أدبية بالأغاني التي نظمها .
أدبية بالتمثيليات والمسرحيات . أن مصر هي صاحبة أول بحث
فلسفي وأول مسرحية في آداب الدنيا هي مسرحية منف
التي يحتفظ بها متحف لندن ، والتي كتبت قبل الدراما
اليونانية بنحو ثلاثة آلاف سنة . (كتبت ٣٤٠٠ ق.م) .
إنها محاولة لتفسير أصل الأشياء .
لقد تدرجت الدراما الاغريقية في التكوين حتى بلغت مرحلة
التضويع . أما الدراما المصرية الأولى (مسرحية منف) فقد وجدت كاملة
ناضجة لم يمرقل سير الأحداث لفرق الممثلين كما في الدراما الاغريقية .
وعرفت مصر أدب السخرية كالذي سجلته رسالة حوري الى
أمنموبى .

ومن الطريف أن السخرية المصرية صالت وجالت فتبكت من
الحرف المختلفة ولكنها عند الكتابة وقفت خاشعة من عمق إيمانهم

بالكتابة حتى جعلوا لها الهة سموها « سيثات » وزوجوها من الهة الحكمة من احساسهم بما بين الكتابة والحكمة من علاقة ذهبية .

كتبت الدولة القديمة على أوراق البردى، وكتبت الدولة الوسطى على الواح من خشب أو على الفخار والحجر الجيري .. هذا هو البردى .

كما حمل الينا البردى من آداب مصر الكثير ، مع اعتبار قائم وهو البرديات التي محبت نصوصها ليكتب مكانها نصوص أخرى أو البرديات التي ضاعت أو نهبت .

بلا شك ضاع من الأدب المصرى القديم ، الشيء الكثير والا اين ادب الأسرة الثامنة عشرة التي نشرت فيها مصر جناحيها وطوت تحت لوائلها البلاد والممالك ؟

يكفى ان الاهالى البسطاء كانوا يستعملون البرديات فى الوقود . ثم اكتشفوا أن السياح يهتمون بها ويشترونها وما دروا انها لا تقدر بشمن . ولكنهم حسبوا الثمن الزهيد الذى يقبضونه شيئا فبدأوا يقسمونها فيما بينهم عند العثور عليها . وينجم عن التقسيم أن يتفرق الكتاب الواحد ، أو الموضوع الواحد ، أشتاتا ، كل جزء فى مكان .

ويضيع مع هذا كله ، على الدارسين ، مكانها الأصلى ، وبالطبع تاريخ الحصول عليها .

وخرجت من مصر برديات قصة سنوحى ، وقصة الأخوين وغيرهما لتستقر هذه الروائع الأدبية فى متحف برلين ، كما استقرت مسرحية منف فى متحف لندن كما أشرت .

أما كتاب (الجبيزة والنخلة) الذى كان يمتز به الملك المنحوب الثالث ، وكان ملوك مصر يحبون الأدب ويقتنون كتبه ، فلم يمتز عليه أو لم يبق منه إلا بطاقة الاسم فقط .

ومع هذا يقول الأثرى المصرى الدكتور أنور شكرى ان (فيما لدينا من الأدب المصرى ما يمكن أن يعطى صورة حية متعددة الجوانب تفوق فى قيمتها وعددها ما خلفته الأمم التى عاصرت المصريين من آثار أدبية) !!

والأدب المصرى القديم حصاد ثلاثة عصور :

الدولة القديمة الدولة الوسطى الدولة الحديثة .

أبرز آداب الدولة القديمة ، متون الأهرام وهي منقوشة على جدران خمسة من أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة وقد وفروا لها من ألوان الجمال التعبيرى ما جعلها صورة نابضة حية كان لها في نفوس المصريين جميعا وعلى مر العصور ، مقام كبير ، حتى اذا تمزقت مكانة الفرد في الدولة الحديثة استشرى الناس ، خاصتهم وعامتهم ، الى متون الأهرام فنقشوها على توابيتهم كالمملوك سواء بسواء في نزعة ديمقراطية من مصر الحرة .

وهنا أصبحت متون الأهرام ركيزة لكتاب الموتى .

بل ان متون الأهرام (تنبىء عن تركيب شعري قديم بهيئة أبيات من الشعر الموزون المقفى المنسجم في وضع كلماته ومعانيه ، وقد نقل المبرانيون هذا التركيب الشعري الى أديهم بعد ألفى سنة منذ ذلك التاريخ ، وهو تركيب معروف في الميزان باسم (توازن الأعضاء) .

ومن آداب الدولة القديمة : قصة خلق العالم ، ومواعظ يتاح حتب ، وكاجمنى ، وحديث الشاعر إيبور الى الملك الشيخ بيبى الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة . وبرديتان طبيبان (بردية أدون سميت وبردية إيبور) ، دراما انتصار حور على أعدائه (فى الأسرة الثالثة) .

وهي منقوشة على جدران معبد أدفو وتحتوى على مقدمة وثلاث فصول مقسمة الى مناظر وخاتمة .

وهي عند الأثرى المصرى الأستاذ سليم حسن (تضارع الدراما الحديثة من حيث تمثيل حوادثها وحوارها اللطيف وتضحية فرق الفنانين في سبيل إظهار شخصيات الممثلين . هذا الى ان كل التمثيليات المصرية كانت على ما يظهر تحتوى على تعليمات مسرحية وقوائم بمعدات المسرح) .

تراجم الأشخاص .

وهذه الآداب من النضج والقيمة بحيث يذهب بعض الباحثين الى القول بأنه لابد ان يكون لمصر اذ قبل الأسرات انضج اصحابه وطوره ، وان ادب الدولة القديمة لابد ان تكون سقته محاولات ومجاهدات فنية كان هو حصاها .

وقد اتسمت آداب الدولة القديمة بالوضوح والواقعية والصورة وروح الخلق والإبداع ، والتشويق والفكاهة . تلك العناصر التى تؤكد مصريتها فى الفكر والأسلوب .

وابرز آداب الدولة الوسطى دراما التنويج ، وهى تقع فى ست
واربعين منظرا .

ووصية (متحاحات الأول لابنه سنوسرت الأول، وقصة سنوهى،
وقصة الملاح الفريق الذى هبت عليه العاصفة والذى حطمت الأمواج
شراعه وحملته اليه ، وقدلت به هو نفسه الى الشاطئ) لا رفيق لى
الا قلبى ، راقدا فى غابة لا احتضن الا الفراغ .) مما تأثرته الأوديسة
بعد هذا فجملت يوليسيس بركب سفينة فى البحر ، يشير زيوس فى
وجهها العاصفة أيضا فتتحطم السفينة ولا يبقى الا قطعة خشب وهنا
يتناقش الملاح الاغريقى قلبه أى انه (رفيقه) تماما كالملاح المصرى .

ولم تقتصر المحاكاة على يوليسيس فقد حاكى دانتي أيضا ، الملاح
المصرى ، فى قوله :

(ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة
حلت !)

انها بمعناها كلمة الملاح الفريق .

وقصة السندباد البحرى فى الأدب العربى هى بمعناها قصة الملاح
الفريق . بل ان « ديورانت » فى « قصة الحضارة » يعتبرها أقدم
صورة من صور قصة روبنسن كروؤو .

وقصة حاسب كريم الدين فى الف ليلة وليلة هى بمعناها القصة
المصرية (الملاح الفريق) .

وتأثر (بالف ليلة) الآداب الأوروبية الى حد بعيد وخاصة
الأدبيين الفرنسى والانجليزى .

وقد رسم الأدب المصرى صورة منمنمة للصحراء فى قصه
(سنوهى) ، ورسم صورة ملونة للبحر فى قصة (الملاح الفريق) . وفى
الانثين رفرق الأديب المصرى ، الحنين ، الى مصر ، نشيدا ، والشوق
الى الحان .

أما الدولة الحديثة فقد ذهبت بمفخرة تسابيح الخناون وتفنيه
بجمال الطبيعة ، ومناجاته للشمس وقد رفرقتها باللغة الشعبية لتكون
أقرب الى الناس .

ما أكثر تعدد أعمالك .

وهى على الناس خافية .

يا ايها الاله الاحد
الذى لا يوجد بجانبه شان (لحد)
لقد خلقت الارض حسب رغبتك

ايه ايها الاله الذى سوى نفسه بنفسه
وخالق كل ارض
وبارىء كل من عليها
والناس ، وكل قطعان الماشية والفرلان
وكل الاشجار التى تنمو فوق التربة .

انت الاب والام لكل من خلقتة .
وعرفت مصر فى الدولة الحديثة أدب الرحلات وخير مثال له
رحلة ونامون .

ومواعظ انى (ادع بقلب محب ، ولفظ خفى ، ليستجيب الله
ما تدمو اليه ، ويصغى الى ما تقول) .
والاغاني اغانى الفلاحين والعمال والرهاة .

اغاني السرور
اغاني الحب والجمال فى لغة جميلة وعاطفة سامية واقية
(خمس مجاميع)

وهى اغان ترسم للطبيعة لوحات تكاد يسمع فيها خرير
الماء وحفيف الشجر ورفيف الورد وغناء الطير .

وقد جاء نشيد الاناشيد على غرارها .. يعزز هذا ما جاء فى
رحلة (ونامون) من أن أمير جيبيل ١١٠٠ ق.م قد تعلق مغنية مصرية
أخى ما أحلى الذهاب الى البحيرة .
والافتسال على مرأى منك .

- لترى جمالى فى نوبى الكتانى الرقيق .
- حينما يتبل ويلتصق بجسدى .
- سأنزل معك الى الماء .
- ثم أخرج اليك بسمكة حمراء جميلة .
- على اصابعى ترقد .
- تعالى وانظر الى .

انه غزل ولكن فيه براة الطفلة تلهو بسمكة حمراء ترقد على
صابعها . فيه طعامة بنت البلد ودلالها .

ولا يقل رد فتاها عنها جمالا وعدوبة :

(ان حب اختى (حبيبتى) على ذاك الشاطيء ، ويفصل بينى
وبينها رقعة ماء ، وتمساح على الشاطيء الرملى يربض ، ولكنى حينما
انزل فى الماء اسير على الفيضان ، وقلبى يسور على المياه التى أصبحت
كاليابسة تحت قدمى ، وان حبها هو الذى يبعث فى تلك القوة . حقا
انه الحب يعمل له رقية الماء . وانى حينما انظر الى اختى آتية ينشرح
صدرى . وذراعائى تفتحان لئضمها وقلبى يبتهج ..) .

• وشجرة الجميز لها حضور مميز فى الأغاني المصرية .

(ان شجرة الجميز الصغيرة التى قد غرستها بيديها تنطق
بصوتها لتتكلم . ان همس أوراقها حلو كالعسل المصفى . ما أرشق
فصوصها الجميلة فهى خضراء وهى محملة بفاكهة الجميز التى تفوق
العقيق حمرة . وأوراقها مثل حجر الزمرد خضرة ، ومجلوة كالزجاج ،
وخشبها لونه مثل حجر « نشعت » - أبيض تعلوه زرقه - وحبتها
مثل شجرة « البسيس » . انها تجذب اليها أولئك الذين لم يجدوا
فيها لامتداد ظلها الظليل) .

• وشجرة الجميز تبادلهم حبا بحب فهى تقول او هكذا رووا عنها :

(انى لا أحب الثرثرة ولا اتحدث عما أرى) .

لقد أحبوها حتى تمنى راحلهم لو تسكن معه أغصان هذه
الشجرة . وهى الى اليوم تزرع بالقرب من القبور لتروى ظلما الموتى من
الظل والشراب كما يعتقد فلاحونا الى اليوم . وهم يعتبرون قطعها من
الأمور المحرمة .

وعرفت مصر الادب التطليعى التهديبى وهو امر طبيعى فى بلد
يرسل بالحكمة ومرف الكتابة وصنع اوراقها واشتق من نباته البردى
اسم الورق فى اللغات الاوربية الى يومنا هذا . للفظه Paper
من البردى .

(اذا كنت فى جماعة جلست فى بيت رجل اكبر منك فتناول
ما يعطيك وضعه بين يديك وانظر الى ما امامك) .

ومن مصر اخذ سفر الامثال هذه الحكمة فقال :

(اذا جلست تاكل مع متسلط فتأمل ما هو امامك تاملا) سفر
الامثال ٢٣ : ١

كما نقل سفر الامثال كثيرا ، من تعاليم امنوى مثل :

(لا تتعب طالبا للمريد . ولئن جاءك المال مسروقا فلن يبيت معك
سواد الليل . فاذا اوى الصباح لم يعد فى بيتك لانه انما يصنع لنفسه
اجنحة كالاوز يطير نحو السماء) .

وفى سفر الامثال :

(لا تتمب لكى تصير غنيا . كف عن فطنتك . هل تطير عينك
نحوه وليس هو لانه انما يصنع لنفسه اجنحة كالنمر يطير نحو السماء)

ومن حكم امنوى :

(لا تستصحب رجلا غضوبا ولا تلحن فى معادنته) .

ومن ورائه سفر الامثال يقول :

(لا تستصحب غضوبا ومع رجل ساخط لا تجء) ٢٢ : ٢٤

من ادب مصر :

✽ لا ترفع ابن مظيم على من كان ذا مولد وضيع ولكن خذ لنفسك
الرجل لفضائله .

✽ لا تكن فظا فمن الخير ان تكون شفيقا .

وفى الادب المصرى دعوة الى المرح وراحة البال .

افرح حتى تنسى قلبك

ان الناس سوف يترحمون عليك

وزد ما عندك من مسرات

ولا تدع قلبك يبتس

وافعل ما يحلو لك في الأرض
 حتى ياتيك يوم الشحيب
 فان ساكن القلب لا يسمع العويل
 ولا ينفذ الصراخ انسانا من عالم الأموات
 الا ترى معي ، فيها ، نعمة خيامية ؟
 ودعا الملك رمسيس ربه في المعركة :
 انى ادعوك
 وأنا وسط اعداء لا اعرفهم
 فاجد آمون اعز لى من مليون راجل (أى المشاه)
 ومئات الألوف من المركبات
 ومائة الف رجل من الاخوه والبنين
 ان جهد الجمهرة من الناس عدم
 لأن آمون اعز منهم
 ان آمون يستمع لى
 ويجيبنى اذا دعوته
 وينسب الى يده
 ويدعو من ورأى
 الى الامام الى الامام
 فانى معك ويدى معك
 وأنا اقرب اليك من مائة الف من الرجال
 أنا سيد النصر الذى يحب القوة .
 وفى القرآن الكريم :
 (وما النصر الا من عند الله)
 (يد الله فوق أيديهم)
 (واذا سالك عبادى عنى فانى قريب احبيب دعوة الدامى اذا دعان)
 روح اسلامية قبل الاسلام .
 ...
 وفى ادب مصر الساحرة ، قصص خارقة يتمثل فيها تمساح
 الشمع تمساحا حيا ثم يلتقطه الكاهن اوبا اونز فيعود سيرته الأولى .

انه يشبه عصا موسى الذى ربه مصر . عصا موسى التى امسك بها (فالقها فلذا هي حية تسمى ، قال خلدها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى) .

ويشبه طير عيسى

(انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا ، باذن الله) .

اما التمساح الذى غاص بالفتى سبعة ايام فيذكرنا بقصة يونس والحوت .

وفى القصص المصرية ينفلق ماء البحيرة ويظهر قاعها ليلتقطوا حلية الفيروز التى سقطت من صاحبها فى نزهتها .

وبنو اسرائيل يفرحون بنجاتهم من فرعون مصر الذى تعقبهم (فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) .

وفى القصص المصرية رأس الثور تعود الى جسمه بعد انفصالها منه ويسمع له ، على البعد ، خوار .

(واذا قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سعيا) .

وفى قصص مصر يفعل السحر الاعاجيب لفيها ينطق الحيوان ، ويستحيل النبات حيوانا ، ويخرج القلب من جوف صاحبه ، وبظل مع هذا حيا . ١١

خوارق وخوارق بها او بدونها ، مصر ساحرة .

وفى الادب المصرى القديم اقدم صورة لقصة سنديلا وقدمها الصغيرة وسائل احداث القصة المعروفة .

وفى الادب المصرى قصص على لسان الطير والحيوان تشير الى الضعف الانسانى وميوب البشر وتأتى فى السياق ، الحكمة والمعانى السامية .

كتبت مصر هذا قبل كتيبة ودمنة وقبل لافونتين .

« الكلام الجميل أخفى من الزمرد »

« آتوني بمن يعدلنى بكلام جميل واحاديث مختاره ليبتهج قلبى
بسماعها . »

لقد بلغ من عمق نظرة المصريين الى الادب انه كان عندهم مرقى الى
الوزارة ومراكز التشريف .

وكان الحكيم «بتايح» يسمى مراعله : المقولات الجميلة .
وكانت بحق جميلة ونفيسة . انه يقول :
(الكلام الجميل أخفى من الزمرد) .

اليسى الزمرد حجرا كريما غالبا لا

والذين يغالون بالادب ليس الحكماء وحدهم بل الملوك ايضا .
وعندهم من كل الطبقات ولكنهم بالانسان الاعلى فيهم هفت ارواحهم الى
الادب الجميل حتى ليقول الملك سنفرو والد الملك شولو :

(آتوني بمن يعدلنى بكلام جميل واحاديث مختارة ليبتهج قلبى
بسماعها .)

ان بهجة قلبه فى الادب .

والملك خينى يوصى ابنه الملك مريكارع : (كن لغنا فى الكلام لتكون
قويا فان قوة « الرجل فى لسانه . وان الكلام لأقوى من أى قتال) .
الملك صاحب الجيوش والجنرائن يرى القوة فى الكلمة . . .

أاق من المعنى نفذت اليه مصر لم تطمس شغافيته الماده ، وكانت
متوفرة عندها .

انه سر من اسرار الحضارة المصرية .

سر وجود . . وسر بقاء .

وبلغ من حب المصريين للادب انهم كانوا يسفون بليغ المبالغة
بقولهم : (كل ما يخرج من فمه مغموس بالعسل .)

ومن أمثاله : (ان فم الانسان يتجيبه ، وكلامه يدمر الناس الى
احترامه .)

ثرى كم عدد اوانى العسل وقناني السكر التى كان يملكها الفلاح
الفصيح ؟

لقد اكمل من الشكاوى تسعا ولكن رصيده من العسل اضعاف هذا
العدد بلاشك .

ويزيدها حلوة استمراء مليكه لها ، واستزادته منها .

كان الملك الفنان بدوره يحب الكلمات التى تقطر شهدا فارجا
انصاف الفلاح الفصيح وهو مقتنع بحقه ، حتى يسترسل فى النغم اى
البلاغة .

يقول ارفين سيد

(ان المصريين من الامم التى كان لها ضلع وافر فى العلوم القانونية .
وان القضايا امام البلاط تشكل فى الادب المصرى جانبا اكبر من نظائره
فى آداب الامم الاخرى) .

لقد اجتمع للمصريين سحر الكهنة وسحر البيان حتى وصية
امنمحات الاول لم تستطع اخطاء الناسخين ان تحجب جمالها .

اما قصة سنوحى فان الكتاب العالمين يعدونها ثروة من الادب
العالمى . كما يدخلون فى عداد الادب العالمى اغاني الحب المصرية بما فيها
من وصف للطبيعة ، طبيعة مصر ، وطبيعة النفس الانسانية حتى قيل
ان عليها طابع «هين» .

وترى هل كان الشاعر الالماني معجبا بادب قدماء المصريين ، فان
وصفه لمرض الحب مطابق تماما لوصف الشاعر المصرى القديم القائل :

» عندما اشاهد عينيك

حينئذ تتلاشى كل احزائى وآلامى » .

كان المصريون اول من كتب الادب لذاته . لقد رفعوا «امنحوتب»
الى مصاف الاله لا بوصفه مهندسا طبيبا ولكن بوصفه اديبا . وكان على
الكاتب المصرى القديم . . كل كاتب عندما يشرع فى الكتابة ان ينزل من
قلمه نقطتين من المداد قربانا لامنحوتب .

ومن الطريف اننا الى اليوم ، نفعل هذا لا شعوريا . انها تحية
القلب المصرى ووقاؤه الذى لا يفيض لسدنة الحكمة وفرسان البيان .
تحية للخلق والابداع . . للفنون . . لامنحوتب .

شخصية مصر - ١٦٩

كان المصريون يعتبرون «الكتاب» اخذ للذكرى من البنين ، ومن المعابد والاهرامات والمال . تقول احدى برديات الاسرة التاسعة عشرة من اصحاب القلم (انهم خلقوا لأنفسهم القبور والاهرامات في قلوب من يذكر اسماءهم . وان اسما تتداوله أفواه الناس لنافع في الآخرة . ان الانسان فان وجثته هباء ، وجميع معاصره يفسدون ترابا ، ولكن الكتاب هو ذكراه الذى يبقى من فم الى فم . انه لأنفع من بيت مشيد ، ومن قبر في الغرب ، ومن قصر مدعم ، ومن نصب في معبد .)

لقد كان لقب الكاتب أعظم الألقاب بلا استثناء عند المصريين من عمق اجلالهم للكتابة . لقد كان الواحد منهم يحرص على تلقيب نفسه به ، ويسجل هذا لنفسه في مقبرته . قد يكون أميرا أو شريفا أو وزيرا أو قائدا للجيش . . ولكنه حريص الحرص كله على أن يلقب نفسه بالكتاب . . وكان القاب التشريف الاخرى لاتغنى عنه شيئا .

لقد كان حور محب قائدا لجيش مصر وملكاً لمصر ولكنه في تمثاله اتخذ هيئة الكاتب المصرى وجلسه .

هذا هو الشرف الحقيقي والباقي في عين مصر المتحضرة .

ان اللقب عندهم (الكاتب) . . ثم يأتى بعد هذا سائر الألقاب . ولو كانت الامارة والوزارة . والملك نفسه .

انه وعى مصر بالجوهر .

انه نفاذ مصر الى النفيس والكريم من القيم والمعاني .

وسبق مصر في الكتابة يؤيد اقتباس امثال سليمان من حكمتها، كما يؤيد نهل مزامير داود من سبحات اخناتون وترانيمه .

وتائر الزابور بقصة الحكيم والشاعر المصرى أبورور وموقفه من مليكه الشيخ . . ذلك الموقف الذى ترسمته قصة ناتان مع داود .

وقد قام بالمقارنة والمقابلة علماء الآثار الغربيون ممن لا يحمل قولهم على عاطفة وطنية أو جهو قومي .

وقصة (الاخوين) تقف وراء قصة يوسف .

كما تائرت بقصة (الاخوين) آداب الهند والحبيشة وآسيا الطغرى، وروسيا والمجر وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وغيرها .

ومن الأدب المصري استمد الأدب الاغريقي والروماني بل استمد
ادب العالم كله من حكمة بتاح حطب .

يقول ان جاردنر : Alan H. Gardener

(ان الادب اليوناني لم يقفز الى الوجود مكتملا كما خرجت فينوس
من الأمواج ولا كذلك الفن اليوناني .. انسا لن نعرفها الا اذا عرفنا
الطريق الذي سلكه النفوذ المصري على التوراة وعلى الادب اليوناني فمما
لاشك فيه ان هذا او ذاك لم يكن ليوجد بالصورة التي كان عليها لولا
اثر مصر فيه) .

والى مصر يمزوا أساتذة المصريات ماجاء في ادب «شارلس مورجان»
و «فرجيل» و «سبتمبر» من اعلام الغرب .

لقد بلغت مصر اعلى مراحل التعبير حين عرفت التجريد في اللغة
واطلقت الاسم (معات) على معاني الحق والعدل والخير .

و (معات) اقدم اسم معنوى ذو معان متعددة في تاريخ بنى الانسان .
ووضعت مصر اسلوب الحوار ومساره قبل حوار عيسى ومحاورات
أفلاطون .

... ..

ويمتاز ادب مصر بالدقة والوضوح والصدق والبساطة والعدوبة ،
وحبه للتوقيع والترجييع في تماثل يحكى الطبيعة المصرية .

النيل له ضفتان .

ومن يمين وشمال ، سهلان .

يكتنفهما من شرق وغرب ، صحراوان .

والنيل نفسه في تصور المصري ، فيلان :

نيل في السماء (المطر) للأجانب والصحراء ، والنيل الحقيقي
لمصر .

والوادي وجهان الوجه القبلي والوجه البحري .

وتاج مصر يجمع الرمزين معا .

طبيعة مقطرة معطرة .

طبيعة منظومة من بحر النيل .

قصيدة كلماتها خضراء .

وحزونها مذهبة .

وأمرى هذا التلاقى على مصر ، أسلوب التماثل في البناء والفن ،
والتنافخ والترجييع والتوقيع في الأدب .

المعبد المصرى فيه المقاصير صفان مقاصير الشمال ومقاصير
الجنوب .

والآلهة نوعان أرباب وربات .. أزواج وزوجات .

حتى الروح لها قرينة .

وعند المصرى ، العالم عالمان : مصر : عالمه ودنياه ، والعالم الآخر
أى السماوى .

والمصريون فى التسمية عندهم :

الاسم اسمان فلكل شخص اسم حقيقى والاسم الجميل أى اسم
التدليل .

ولكل شخص حياتان : حياة فى الدنيا والحياة والأخرى فى إيمان
بالبعث والنشور .

والكتابة الهيرغليفية صفوف . وأنهر متوازية .

فلا غرو أن يجيء الأدب المصرى بعد هذا جملة متشابهات فى
تقسيم يبلغ بالجمال حد « التقاسيم » .

إن الطباق فى الأدب العربى ، لفظ وضده .. ولكن المقابلة فى الأدب
المصرى نظير ونظير يتناقضان .

وهناك رأى يقول (أن الانسجام فى الطبيعة المصرية قد طبع الفنان
المصرى على التقسيم والتوزيع المنسجم) .

ولعل هذا هو السر فى أن المصريين عندما تشربوا حب اللغة
العربية ، طربوا للقرآن الكريم .

واخذت مصر دورا كبيرا فى علم القراءات ونفخت مصر الأذان كما
رأينا .

بل انى لاحظت ان اللغة ترق وتترقرق كلما قربت من النيل .
وتجف الفاظها وينضب ماؤها كلما بعدت عن النيل والدليل لهجة القاهرة
الجميلة ، ولهجة الصحراء . عند اطراف البحيرة .

وبدخول اليونان ثم الرومان كانت الديموطيقية وهى اللغة الشعبية
من الهيروغليفية هى السائدة .

وبظهور المسيحية ومحاربة الرومان لها ، ودفاع مصر عنها لونا
من المغايرة . اثبات الوجود حتى غدت المسيحية فيها دون سائر البلاد
قبطية .

لهذه الاعتبارات ، وبها ، صارت الديموطيقية بدورها ، قبطية ،
بعد ان خلصت الحياة المصرية من اللغة اليونانية التى كانت لغة الحكام
بل ان المصريين الفوا بها ، ولهم كتب كثيرة فى العلم والادب يحسبها بعض
الناس يونانية بل يحسب مؤلفيها يونانيين لا مصريين بما فى اسمائهم من
مقاطع يونانية أشهرها الواو والسين فى نهايات الاسماء .

على ان العالم فى ذلك الوقت كان موجات موجات ، تبعاً للمد
السياسى والحربى .

فعندما غلب اليونان عسكرياً ، سادت معهم اللغة اليونانية واصبحت
لغة عالمية فى ذلك العصر . .
وكذلك الرومان .

وكذلك العرب . اذ انتشرت اللغة العربية فى العراق والشام ومصر
والمغرب بل عبرت البحر الى الاندلس مع طارق بن زياد .

ولم يكن الانتشار بالطبع دفعة واحدة او طفرة بل كان يتفاوت
سرعة وبطناً حسب شخصية كل بلد وظروفه .

ولم يكن عند مصر المسيحية فى غمرة موقعة الشهداء وقتاً للادب
او الفن كما كان ادب مصر وفنها فى عصور الفراعين بشموخها . فاقصر
الادب القبطى على اقوال الآباء وسير القديسين والاصلاح الاجتماعى
والاداب الكنسية وشيء من قصص .

واوضح عمل ادبى لمصر فى ذلك العهد ترجمة الكتاب المقدس .

بل تجاوز دور مصر، الترجمة ، الى الكتابة نفسها فقد جاء المسيح
مصر ومن مصر دعى (من مصر قد ناديت ابنى) هوشع ١١ : ١ حتى ٣ :
١٥ . وجاء مصر الحواري مرقس وكتب فيها انجيله .

واشتهر كاتب وفيلسوف في ذلك الوقت كان اوريغانوس الذي
اشرت انه لم تعرف المسيحية في مصر وفي العالم المسيحي كله فيلسوفا
مثله .

حسب مصر المسيحية ان علماء الشرق والغرب تلقوا كتاباتها
الدينية مترجمين وشارحين ، وتصدرت بما اعطت في هذا الباب ، العالم
المسيحي .

ودخل العرب مصر ودخلت اللغة العربية ولكنها وقفت ساكنة لم
تشارك في الفزو . وظلت مصر على لغتها بل ان بعض العرب تعلموا
التبطين بل تخاطبوا بها كالقاضي خير بن نعيم وغيره . . . الى ان هربت
الدواوين سنة ٨٧ هـ مما اضطر الموظفين الاقباط الى تعلم العربية حتى
يحتفظوا بوظائفهم . وتبع هؤلاء اهلهم ومن يعيشون في كنفهم .

وصاحب هذا كما اسلفت انتشار الاسلام ليأذا به من الصراع بين
المذاهب المسيحية ، او مهربا من الجزية ، او لاحقا بالنفوذ وأصحابه،
أو اقتناعا به لسماحته التي لا تعرف لونا أو جنسا اذ بعث رسوله للناس
كافة .

والاسلام اكبر ظهور للغة العربية فالقرآن عربي مبين والصلاة لا تكون
الا بها .

ووجد الشعب المصري نفسه أمام ثنائية لغوية خشي منها على
وحده . وواجه الامر الواقع وان شق عليه . ولكن اللغة العربية صارت
مهمتها اسهل من ذي قبل . وموضع الشعب المصري هذا بفرض شخصيته
على العربية فلم يكذب على اللغة العربية في مصر بضعة قرون حتى
تأثرت بالمصريين . تأثرا يفرد له الحديث .

مصر في العربية

لقد اخذت مصر في بداية عهدها باللغة علوم العربية عن العراقيين ... والحجازيين بالطبع ولكنها لن تلبث ان اتقنت هذه العلوم وصارت هي المركز الذي تؤخذ عنه حتى ليصفها ابن خلدون في مقدمته بأنها (أم العالم وايمان الاسلام وينبوع العلم) فمنذ القرن الثاني للهجرة قامت مصر بدراسات ادبية ونحوية ولغوية ونبيغ من ابنائها الكثيرون ثم رحل اليها من الاندلس الباجي الاشبيلي وابن لبابه وغيرهم . وقامت مساجد مصر بدور كبير في الثقافة الاسلامية حتى لقد احصى المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء . مائة وعشرين مجلسا من مجالس العلم . فكانت مطمح طلاب العلم واساتذته على السواء وفيها تخرج اعلام وتلقى مشهورون . ادى عن مصر هذا الدور الحاسم ، جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص بل سوق الوراقين حيث كانت تدار في دكاكين الكتب المناظرات ثم ، الجامع الأزهر فيما بعد حيث كانت مصر تشع العلم وتجري الرزق .

قامت مصر مقام مدارس بغداد في المشرق ، ومدارس قرطبة في المغرب فقد ورثها جميعا بعد أفول الدولتين الاموية والعباسية ، الجامع الأزهر الذي انفرد (بامامة العلم في بلاد الاسلام) . تلك الامامة التي شهد بها حتى الترك - وما أكثر ما بين مصر وبينهم - فقد كان الوزير العثماني «أحمد باشا» يقول عن مصر أنها (معدن العلوم والمعارف) .

اختص الأزهر كما يقول الأستاذ عبد الحليم الجندى (أول مرة بتدريس فقه الشيعة . فظلت للشافعية والمالكية حلقاتهم بالجامع العتيق جامع عمرو ثم صار الأزهر لكل المذاهب . وقصده الغرباء واللقى فيه الدروس مشيخة العلم وناظورته ، طوال القرون الماضية مثل عبد اللطيف البندادي وابن خلدون .

ولما عفت معاهد بغداد وقرطبة ، أقبل المسلمون من مشارق الارض ومغاربها على الأزهر ، فكان ملاذ الشعب والدولة — حتى اذا كان الاحتلال العثماني (١٢١ هـ — ١٥١٧ م) بقى الأزهر يحمل المشعل ، فحفظ للامة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم .

وفى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى نهض الأزهر ، بأعظم كفاح لطرد الغزاة الفرنسيين ، وهاهو ذا اليوم يحمل تبعاته فى نهضة الامة الاسلامية كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا ، من كليات أصول الدين والشرعية والقانون واللغة . الى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها .

وفى خارج مصر حدث بناء المدارس فى القرن الخامس . كالمدرسة البيهقية والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية لدراسة الدين والفقه .

ولكن لم يبق على الزمن الا الأزهر يصدر العلم الى بلاد المسلمين ويوفر العلماء . يقول الاخ السورى الدكتور أسعد طلس ، فى حديثه عن العهد العثماني بالشام ، (ولولا الأزهر فى مصر لانطفأت شعلة العلم فى الشام) .

ويقول ايضا فى كتابه : «مصر والشام فى الغابر والحاضر» (استطاع — أى الأزهر — خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئا من مكانته فيغدو ملاذا أخيرا لعلوم الدين واللغة ويغدو بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية تحتفظ فى أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ويدرا عنها التدهور النهائى ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها ... وربما كانت هذه المهمة السامية التى ألقى القدر زمامها الى الجامع الأزهر فى تلك الاوقات العصيبة من حياة الامة المصرية والعالم الاسلامى بأسره هى أعظم ما أدى الأزهر من رسالته وأعظم ما وفق لاسدائه الى علوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل) .

وتعددت مراكز الحياة الفكرية فى مصر وفيها نبغ عدد من العلماء ذكرهم المحافظ السلفى فى معجمه . وكانت أسوان وقوص وأسيوط من مراكز العلم فى مصر وحواضره وكانت الاسكندرية .

وقد اشتهرت الاسكندرية فى القرن السادس الهجرى بمدرستين كبيرتين . . للثقافة الاسلامية بعامة والحديث بخاصة وهما : المدرسة

العوفية نسبة الى ابن عوف أحد فقهاء الاسكندرية ومفتيها في مذهب مالك ، والمدرسة السلفية وشيخها الحافظ بن طاهر السلفي .

وبعد غارات المغول والتتار في الشرق وحركات الأفرنج في الغرب (اسبانيا) كثرت الرحلة الى مصر وتجمعت الحركة الفكرية في القاهرة . وكما حفظت مصر من الضياع آداب اليونان وعلومهم والتي اعتمد عليها العرب في تكوين شخصية حضارية لهم ، **حفظت في هذه الهزات تراث العرب الادبي والفنى بل ونشرته بينهم في مختلف بلادهم .**

وبعض دور مصر في العلم، العلماء وما علموا . ومن ابناء مصر الذين عاشت على كتبهم الثقافة الاسلامية حتى عصرنا الحاضر :

على بن منجب الضمى فى الذى نقل عنه صاحب جريدة القصر ، **وابن برى النحوى** الذى اخذ عنه ابو موسى الجزولى صاحب المقدمة فى النحو . قدمت مصر أيضا **جمال الدين بن هشام** صاحب اللبيب الذى اشاد به ابن خلدون فى مقدمته ، **والقفطى** النحوى اللغوى العروضى الاديپ صاحب المواقف الابنية عند السلاطين والامراء الذين كانوا فى اجلالهم له يخدمونه .

والقفطى (على بن يوسف) صاحب التواريخ .

والسخاوى صاحب الشروح .

والبوصيرى صاحب البردة .

وابن ظافر الأزدى صاحب بدائع البدائة .

والليث بن سعد ، وابن الوزير التجيبى ، وعبد الحميد بن الوليد المصرى ، والشاعر المصرى الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمال الأكبر ، والشاعر سعيد بن عفير الذى كان الوالى عبد الله بن طاهر يقول (رايت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء النيل والهرمين وابن عفير) .

الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء كما كانوا يدعونه .

سساويرس بن المنفع اسقف الاشمونين وملوى وأول من الف بالعربية من الاقباط . وكتابه « تاريخ البطارقة » موسوعة استمد منها المقرئى الكثير من خططه كما نقل عنه القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » .

ومن رجال مصر من الاقباط الذين اسهموا في التأليف في علوم العربية وآدابها :

سعيد بن بطريق ، وبنو العسال ، وجرجس بن العميد المعروف
بابن المكين صاحب كتاب (تاريخ المسلمين) .
والمفضل بن أبى الفضائل صاحب ، نهج السديد والدر الفريد
فيما بعد تاريخ ابن العميد » .
وبطرس ابو شاكز ويعرف بابن الراهب .
وابن كبر وهو شمس الرياسة أبو البركات .
واسعد بن ممتى الشاعر الأديب صاحب الحظوة في الدولة
الايوبية .

وممن آوتهم مصر :

عبد اللطيف البغدادى العلامة والرحالة
والسرقوسى عثمان بن على بن عمر النحوى الصقلى
وابن خلكان ، ونجم الدين المغربى القصرى .
والخطيب التبريزى البغدادى
والشاطبى صاحب القصيدة المشهورة في القراءات (الشاطبية)
وعندها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا .

وممن سمحوا على مصر :

الهمزانى صاحب التصانيف الفائقة .
وابن الجلاجلى . .
ومحمد بن خلف المقدسى
وابن سعدون القرطبى
وابن ظفر الصقلى
وابن الحاجب وهو ممن نشأهم مصر اذ ولد بها . وهو صاحب
كتابى الكافية والثافية في النحو وله المؤلفات الثقة في العروض وعلم
الأصول والجدل وعلم الفقه .

وممن صنعهم مصر على عينيها القاضى الفاضل الذى تعلم فى الكتابة عن ابن الخلال المصرى . والقاضى الفاضل يعتبر أحد أربعة معالم رئيسية فى تاريخ الأدب العربى أو أربع طبقات : ابن المقفع ، الجاحظ — ابن العميد — والطبقة الرابعة على رأسها القاضى الفاضل .

• ومع الرجال النساء •

فقد كان بمصر من النساء المشهورات بالعلم والأدب جماعة ذكرهن السلفى فى معجمه وابن خلكان فى الوفيات ، من بينهم :

تقبة بنت غيث بن على الأرمنارى وخديجة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى المدعوة مليحة والجديدة بنت المشر بن فاتك الدمشقى .

وست الأكياس المصرية التى نوه بها السيوطى فى حسن المحاضرة .

ومن معنيات مصر فى العربية الموسوعات كصبح الأعشى للقلنشندى المصرى . . والقوميس كالذى وضعه ابن منظور الذى يعد أعظم موسوعة لغوية فى اللغة العربية . (وهكذا وضعت مصر لسان العرب) .

ولم تكتف مصر بالتفوق فى العلوم العربية البحتة بل ابتدعت من وحى طبيعتها علوما وفنونا أهدتها الى اللغة العربية فيما أهدت . **فابتدعت مصر فن « الخطط والأخاند »** على يد ابن عبد الحكم يقول الدكتور كامل حسين أن هذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين مما أخذه عنهم مؤرخو مصر الإسلامية كابن زؤلاق — والكندى والقضائى وابن دقماق والمقرئى من أصحاب الخطط . كما يبدو أثر مصر واضحا فى كتاب « المغازى » لابن اسحق .

ونبغت مصر فى فن السير لسابقتها فى تدوين التاريخ وتسجيل الحوادث فملأ الأدب الشعبى المصرى بفن السير . فالمصريون هم الذين وضعوا سيرة «عنترة بن شداد» و «سيرة البدوية» ثم « سيرة الهلالية » وسنفرود للأدب الشعبى فصلا يفصل ما أوجزته هذه الاشارة .

وفى مصر دون باقى بلاد العالم الاسلامى عرفت الكتب العربية التقسيم والتنويب والموضوعية حين جرى علماء العراق على طريقة الأخذ من كل شئ بطرف .

ولعل أسلوب مصر الحضارى فى التأليف يمت الى عراقها فى المعرفة . وقد غلب أسلوبها كشخصيتها حتى أن الفارابى عندما دخل

مصر ومعه كتابه «المدنية الفاضلة» سأله المصريون أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة .

وقبل ان ارد بالبحث مناهل مصر في الشعر والنثر اقف وقفة على عطاء مصر في البلاغة . فقد كانت مصر مدرسة بلاغية أدبية تقابل مدرسة المشرق البلاغية الكلامية . ولمدرسة مصر ، فضلا عن المسامحة ، آثار في المدرسة الفلسفية بالمشاركة القوية والتوجيه الخاص فقد نقدت مصر ، نقدا عليه مسحة من التهكم مدرسة البلاغة الكلامية ورجالها وعلى رأسهم الرازي والتفتازاني .

كانت مصر في تصنيفها للبلاغة تستبعد بروحها الفنية ، الفلسفة الكلامية . استبعادا فيه بغض لها حتى ليسمى رجلنا السبكي ، هذا الاستبعاد ، تطهيرا .

وعمل مصر في البلاغة من خلال صاحب كتاب (عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح) يتميز بثبوتها من جمود الفلسفة وجفافها والاتجاه بها اتجاهها عمليا .

كما تتميز بالموضوعية في البحث ، والتعمق ، والمقارنة ، والربط . والتحقيق والتصحيح ، والاستنتاج ، واللمح ، والأناقة الحضارية ، واللباقة والرفافة ، والدوق الشعري وما يملك من رفيف وتفويف . . والدقة وسمة الألق . والبسطة والرحابة وطول النفس بلا عصر ولا تزمت مما يغلب على كتب البلاغة الشرقية في ذلك العصر .

هذه مصر في البلاغة وهي في (علم البديع) ابداع . فقد وصل المشاركة وعلى رأسهم السكاكي الى تسعة وعشرين نوعا من البديع ووصلت مصر على يد ابن ابي الاصبع الى بضعة وعشرين فوق المائة منها مشرين من ابتكارها بشهادة النقاد في ذلك العصر مع ما في هذه الشهادة من غبن المنافسة الطبيعية بين النظراء والا فلماذا لم يلتفت غيرها الى عشرات الانواع التي لمحتها مصر بالذكاء والتسوقد والبراعة ولطف الحس ؟

وبعض ما ابتكرت مصر أو نقلت اليه مصر بالدوق الحضاري :

النزاهة : نزاهة الهجاء عن الفحش .

والتبليج : وهو فن التعبير عن المعاني بالالوان .

والتصرف : وهو اللعب بالكلام في براعة وغندرة .

والتهكم والتندر : ومصر بخفة الظل لا تجارى فيه .

* وطبيعى ان تهتدى مصر الى هذه الألوان يوحى من طبيعتها ويمدد من ماضيها . ومثل هذا الصنيع فعلته مصر حين اذاعت في الأدب **العربى شعره ونثره فن التورية** ولا احسب غير مصر قادرا على التورية بكل هذا الظرف والرفقة اللذين اشاعهما ابن نباتة في بيتيه وقد اهدى اليه صديق تمرا ردينا :

أرسلت تمرا بل نوى ققبلته بيد الوداد فما عليك عتاب
واذا تباعدت الجسم فودنا باق ونحن على (النوى) احباب

وبعض مطاء مصر في البلاغة والبديع كتب كثيرة منها :

✽ (تنقيح البلاغة) لأبى سعد محمد بن احمد العميرى ،
النحوى ، اللغوى .

✽ (رسالة البلاغة) للقاضى الفاضل .

(الطريق الى الفصاحة) .للشيخ الرئيس علاء الدين .
النفيس المصرى ..

✽ (معالم الكتابة ومغانم الاصابة) لعبد الرحيم بن على بن شيث يخالف فيه اصطلاحات البلاغة الماثورة عن المشاركة .

✽ (سر الفصاحة) لأبى محمد عبد الله بن محمد الشهير بابن سينا الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ) .

✽ (الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز) لسلطان العلماء أبى محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام المصرى (ت ٦٦٠ هـ) .

✽ (بديع القرآن) للأديب الشاعر المصرى زكى الدين عبدالعظيم،
بين فيه ما فى القرآن من فنون البديع فأحصى من ذلك مائة باب وثمانية ابواب .

✽ (تحرير التعبير فى علم البديع) للأديب الشاعر المصرى ابن أبى الأصبح .

ومن رجال مصر فى هذه الحلبة ممن ألفوا الشروح والحواشى والتقاير والأصول ، والمتون ممن حاول الاستاذ الخولى لهم عدا :

الأنصاري - والعزى - والأخضرى - والخفاجى - والعليمى -
والطبلادى - والبهوتى فى القرن الحادى عشر .

والحنفى والمولى والدمنهورى والسندوبى فى القرن الثانى عشر .

والاجهورى ، والامير ، والصاوى ، والباجورى ، والمطار ،
والخضرى ، والمرصفى ، والدسوقى ، والبنائى فى القرن الثالث عشر .

والابيارى ، والانباى والشربينى والطهطاوى فى القرن الرابع عشر

هؤلاء بعض اعلام مصر فى البلاغة وان استيفاءهم لكثير .

وبعد البلاغة ، الشعر .

لقد تحولت مصر الى الاسلام والى العربية ولكنها مع هذا التحول
الكبير لم تفقد شخصيتها بل ظلت واضحة مؤثرة ، متميزة آسرة
فاضطرب العرب الفاتحون الى ان يندمجوا فى المصريين ويتزوجوا من
المصريات فحضرتهم مصر وصقلتهم مصر وكان من اثر صقل مصر لهم
او تهذيبها طبائعهم ان اختفى من الشعر العربى آثار البداوة . فالشعر
العربى فى مصر حتى ما كان منه من نظم القبائل العربية المهاجرة اليها ،
تسمح وجرى سهلا واختار البحور القصيرة التفاعيل وشاعت فيه
الفكاهة المصرية التقليدية والسخرية اللاذعة .

كان من اثر مصر أن سرى فى الشعر العربى السمات المصرية
معانى ، وفكاهة وسهولة . . كل هذا بفعل البيئة المصرية والطبيعة
المصرية المتبسطة فى مساهلة وعذوبة تنفر من التعقيد .

كما ظهرت الحوادث المصرية وصورة البيئة المصرية التى فرضت
على الشعراء عدم ذكر الاطلاق والديار والرسوم .

وظهرت العاطفة الجياشة فى الشعر المصرى فأضفت على الأشعار
المصرية قوة ترواح النفوس اليها كآبيات المعلى الطائى فى اولاده التى
غلبت على أبى تمام حين جمع مختاراته المعروفة بالحماسة فضمنها
هذه المقطوعة التى تعبر عن كل أب :

لولا بنيات كزغب القطا	جمعن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا بيننا	اكبادنا تمشى على الأرض
ان هبت الريح على بعضهم	اشفت العين من الغمض

اما الفكاهة فتتمثل في قصة الشاعر الملقب بالجميل الأكبر مع
احمد بن المدبر :

أردنا في ابي حسن مديحا كما بالمدح ينتجع الولاة
فقالوا اكرم الثقلين طرا ومن جدواه دجلة والفرات
وقالوا يقبل المدحات لكن جوائزهم عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تفنى صلاتي عيالي انما تفنى الركاة
فأما اذ ابي الا صلاتي وعاقبتني الهموم الشاغللات
فيأمر لى بكسر الصاد منها فتصبح لى الصلاة هى الصلات
فيصلح لى على هذا حياتي ويصلح لى على هذا المعات

لقد ظهر الشعر المصري ظهورا واضحا في القرن الثالث للهجرة
وقد تكلم ابن خلكان عن شعراء مصر ، والشعالي .

ومن الشعراء من تأثر بالبيئة المصرية الخالصة كالشاعر كشاجم
الذي كان كلما رحل عن مصر ، عاد به الحنين .

وولد ابو تمام على مصر طفلا فروثه من النيل وروثه من الشعر .
فانشد بها أول انشاده كما يذهب بعض المؤرخين حتى ليعده الكندي
وابن زولاق والسيوطي « مصريا » ودعوه شاعر مصر الأكبر .

وهكذا ، ينمى الى مصر شعراء فحول بالمرى والتعليم بل ان شعراء
مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي كانوا فحول الشعر العربي في الأقطار
الاسلامية قاطبة . وفي هذه الآونة تصدرت مصر في الأدب صدارتها
في العلوم والفنون . . والسياسة وكان ذلك منذ أواخر القرن الخامس
للهجرة .

ويذكر الدكتور اسعد طلس من رجال مصر ما بين القرن السابع
والقرن التاسع :

(ابن نباته المصري (٧٦٨ هـ) وابن ابي حجلة (٧٧٦ هـ) وشمس
الدين الهواري (٧٨٠ هـ) . وهؤلاء شعراء مجيدون خلفوا آثارا تدل
على سمو كعبهم في الادب المصري الاسلامي . ومن الادباء المصريين
الفحول في هذه الفترة الشهاب القلقشندي (٨٢١ هـ) والبدر الدمايني
(٨٢٧ هـ) والشمس النواجي (٨٥٩ هـ) والمؤرخ بيبوس المنصوري
(٧٢٥ هـ) وابن دقماق (٨٠٩ هـ) والمقريزي (٨٤٥ هـ) وابن تغري

بردى (٨٧٤ هـ) وابن منظور (٧١١ هـ) والشهاب النويرى (٧٢٢ هـ) وغيرهم .

وقد كان لهؤلاء الأئمة تلاميذ من الشاميين قصدوهم الى ديار مصر وتعلموا عليهم في الأزهر او في غيره من المعاهد المصرية ، ولو رحنا تستقصى اسماء هؤلاء الطلاب لجئناك بسفر ضخمة .

وصدارة مصر الفنية وثروة مصر المادية جذبت اليها الشعراء والكتاب والعلماء فانتجعوها مسحين . وترطبت السننهم باسمها وترنم شعرهم بذكرها . . حتى الذين هجوها لم ينجوا من تأثيرها وعلى راس هؤلاء الجاحدين :

المتنبى الذى تحدث الدكتور طه حسين طويلا عن اثر مصر في شعره فذهب الى ان مصر اضطرت المتنبى الى أن يعرف شيئا من الهدوء والى ان يكثر التفكير ، وامعان النظر فى الحياة الى أن يحاول ان يستقصى اسرار الحياة ، فظهر فى شعره فى مصر رنة حزن وشكوى الدهر ، ثم ينتهى به الأمر الى لون من السخرية بالدهر وحوادثه ، والى الاستهزاء بكل ما يمر به فى الحياة وان يهزأ بالناس وبالمجتمع وبأمر مصر الذى كان رفعه فى شعره .

المتنبى هذا بكبريائه الجوفاء المصطنعة قصد ، طراى ابواب مداحا كطائفته . . المتنبى تاجر الشعر الذى كان يقول القصيدة فى احد الأغنياء ثم يصرفها الى آخر اذا أمل مطاء أكثر ، كصنيعه مع ابن حنريابة وابن العميد مما يحكيه ابن خلكان .

هان فنهم وهانوا . . هذا المتنبى قصد والى مصر (العبد) كما يقول فلما أهمله هجاه ثم تطاول علينا . . ولو كان كبيرا حقا لما اراق شعره تحت اقدام المدحجين بعامة وكافور بخاصة ما دام (العبد انجاسا مناكيد) أم هم كذلك حين يمنونه فقط ؟ وترك المتنبى مصر وهو يتمزق غيظا لأنه لم ينل منها ماريبا . واذا ادعى الزهد ، وشى بحسره بيته الذى خاطب به سيف الدولة :

من عبيدى ان عشت لى ، ألف كا

فور ولى من نذاك ريف ونيسل

كان حلمه الريف والنيل فلما قصرت يده عن العناقيد المصرية التى لا تقنى شنها حربا على الثعالب الأخرى .

لقد فطن المصريون كمادتهم الى دخيلة نفس المتنبى هذا فأذلوا كبريائه المفتعلة بالأعراض عنه ثم بالتهكم منه ونقده نقدا فنيا .

فقد ورد في كتاب الصبيح المثني وكتاب أخبار سيبويه المصري
لابن زولاق أن محمد بن موسى الملقب بسيبويه كان يقول : مدح الناس
المتنبي على قوله :

ومن لك الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد
ولو قال ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود .
واجتاز المتنبي به ، فوقف عليه وقال : أيها الشيخ أحب أن أراك .
فقال : رعاك الله وحياك . فقال له :

بلغني أنك أنكرت على قولي . « عدوا له ما من صداقته بد »
لما كان الصواب عندك ؟

فقال له . الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ولا يسمى
الصدوق صديقا وهو كاذب في مودته . فالصداقة إذن ضد العداوة
ولا موقع لها في هذا الموضع . ولو قلت ما من مداراته أو مداجاته
لأصبحت . فتبسم المتنبي والصرف ، وسيبويه يصيح عليه أبكم الرجل
وجلائل الله .

في أكثر من صورة ظهرت شخصية مصر في الشعر العربي بل بلغ
من شخصيتها أن شعرها يعلن عنها بغير دليل من أسماء شعرائها
فلا تستطيع أن تنسبه إلى غير مصر . وهذا أقوى ما يطلبه المرء من
دلالة الشخصية .

فالرقة والسهولة والخيال الشاعري والدوق الشفاف الناعم
الثام والموسيقى الداخلية ودلف القلب ومدوية الروح وليوضها كل
هذا الرقيق يحمل على أجنحته عبر مصر وديارها .

حتى الألفاظ كانت من مصر . . نفس الألفاظ التي يصطنعها
الشعب المصري ، والخاصة به هو ، حتى لكأنها لغة في اللغة .

هذه اللغة المصرية أو اللهجة المصرية تمتاز كما يقول الدكتور
إبراهيم أنيس في كتابه (اللهجات العربية) بالميل إلى همس كثير من
الأصوات وهو أمر طبيعي في بيئة مستقرة كالبيئة المصرية ذات الحضارة
منذ القدم .

(على أن لهجة كلامنا قد اختصت ببعض التطورات الصوتية
التي لا نعرف لها نظائر في تطورات اللهجات القديمة ، مثل عنايتها
شخصية مصر ١٨٥

بتلك الأفعال الرباعية المتكررة المقاطع فقد ملئت بها لهجة كلامنا ،
وانخلت في أفواهنا طريقا خاصة ، لا نظير لها في غيرها من اللهجات
العربية القديمة (.

كان الإدياء المصريون كتابا وشعراء ينبعون في كتابتهم عن طريقة
مصر الشعبية في التعبير حتى النحو أخضعوه لهذه الطريقة فنجده أحمد
ابن يوسف مثلاً في كتاب (المكافاة) يستحل من مخالفة الفصحاء ما لا
يحل ، في هرفهم فيطابق بين الفعل والفاعل في الافراد والجمع ويؤنث
ماسلكته قاعدة (التثنيب) من المذكر ويشبّع تام الخطاب ويكثر من
استعمال الالفاظ المصرية الخالصة مؤثراً لها على نظائرها في الفصحى
بل مؤثراً لطريقة مصر في استعمال ما كان مشتركاً من الالفاظ بين
العامة والفصحى فيستخدم كلمة (نفر) .. الدلالة على شخص واحد
حين تعربها الفصحى عن الجمع والتثنيب .

ومن شعراء مصر الذين يمثلون شخصيتها ...

ابن سينا الملك - ابن النبيه - البهاء زهير - الأسعد بن ممانى -
المهذب بن الزبير (الأسوانى) ابن مطروح - ابن الجزار - السراج
الوراق - ابن الفارض - ابن قلاؤس - ابن قادوس الدمياطى .

وقد بدق ابن سعيد حلوة شعر مصر فعلمها مبهورا أو شبه
مبهور :

اسكان مصر جاور النيل أرضكم فأكسبكم تلك الحلوة في الشعر
وكان بتلك الأرض سحر ومابقى سوى اثر يبدو على النظم والنثر

واحلى ما تكون هذه الحلوة .. في الفول ، فالمصريون اهل ظرف
ورقة وهم عاطفيون ومخلصون وفيهم طيبة وصفاء وفيهم ودادة
وسماحة وسخاء .. وفيهم وقدة خس وذهن تريد الدكاء بريقا وسحرا
فهم اذا تغزلوا أفندوا واسعدوا وأطربوا . وقد عبر عنا شاعرنا ابن
النبيه في أبياته الرقيقة الأسرة :

أفديه أن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه حلوا فقد جهل المحبة وادعى

وهذه الصفات النوايغ لم تتخل عن المصريين حتى في العصور
الوسطى عندما اظلمت طبائع الناس . وطبع الناس كما يقول الدكتور

زغلول سلام في كتابه «الادب في عصر صلاح الدين» (طبع الناس في القرون المظلمة وفي مصور الطغيان بطباع العبيد فان نصيب مصر من خلق العصر كان قليلا ، فلم يشتهروا بالدناءة والدس والنعيمية والخيانة كما كان الحال في بغداد في القرن السادس مثلا . وجل ما كان يدور على ارض مصر من دسائس وخيانات انما كان معظمها من صنع الوافدين من الأتراك والماليك في سبيل نزاعهم على الملك ، كذلك كانت الاحداث الدامية . . والثورات من صنع الجند المحتلب او من صنع الأعراب البدو ، في الجنوب وفي صحراوات مصر) .

ويؤيد هذا حكايات اللصوص التي كانت فتنة السمار في ليالى القصص . فالنفس المصرية في هذه الحكايات لاتخلو من مروءة وشهامة وبارقة رحمة حتى ولو كان صاحبها من غير زمرة الاخيار . فكتاب المكافاة يعكس صورة الصنم تجمع الى النهب والسفك ، صفات الوفاء بالعهد والميثاق كفضية محمد النورى واشباه لها غير قليل .

وكم بين احمد الدنف وبين اعراب الف ليلة وليله . .

ومن شخصية مصر في اللغة العربية انها حين تكلمتها طرحت منها ما لا يتفق مع مزاجها المترف وشخصيتها الخاصة . وما لم تطرحه مصر له . فحين كان شعراء العرب في مصر يلتمسون « العمود » والبحور التقليدية ، كان المصريون ينطلقون على سجيبتهم المجنحة الرفافة ، فالالفاظ رقيقة سهلة مضيئة ، والبحور آثروا منها القصيرة التفاعيل ، والقصائد الطويلة استبدلوها بالمقطعات . ولأمر ما سعى المصريون ذلك اللون الذي استحدثوه من الشعر الشعبي « البلايق » . وهو اسم طائر مختلف الوانه ، شجي صوته ، له تطريب .

وفتن شعبنا (بالبلايق) بالفاظها الشعبية المصرية حتى فرضه من افتتانه على سائر الفنون الادبية في عصر الماليك الى جانب فن الموشحات .

ومن الألوان المصرية في الشعر العربي شعر الأديرة . وقد وجد هذا اللون في غير مصر حيث تناثرت الأديرة فتنشئ الجحري بدير العاقول ، وابن المعتز بدير السوسى . ولكن انتشارها كان بمصر ومن ثم كثر شعر الديارات بها .

ومن تكاهات الشعر المصرى في العصر الأخشيدى الشعر

«العلمنتيشي» وهو شعر كاريكاتيري ساخر من كل شيء حتى من صاحبه ... ساخر من القصائد القديمة التي كان يعبث بها فيغير الفاظها وينفض عنها زومتها وتوقرها ويخلع عليها حلة جديدة فكاهية كما فعل عايمر الأنطوطي بالفية ابن مالك . وقد أحب قومنا هذا الصنيع من طرفائهم فعمد إليه ، مستجيبين ، شعراء الفكاهة في العصور الوسطى وما بعدها حتى يومنا هذا فكان حسين شفيق المصري وعبد السلام شهاب ومحمد الهياوي ومحمد مصطفى حمام امتدادا للشاعر أبو الرقعمق وابن مكنسة وأضرابهما .

ومن الألوان التي استحدثتها مصر في الشعر **«فن وثاء الغول»** . وهو كما يقول الدكتور كامل حسين (فن جديدة كل الجدة في تاريخ الأدب العربي) .

حقيقة وصف البحترى أبوان كسرى (ولكن شعراء مصر لم يستمدوا صورهم وعواظهم من التاريخ بل شاهدوا الاحداث وسجلوها وعبروا عن مشاعرهم نحوها) .

حتى ما لم تستحدثه مصر طورته وتفننت فيه **فن الاجازة** مثلا اخضعت مصر لطبعها الحضاري فقسمته قسيتين اجازة معاصر لمعاصر واجازة معاصر لقديم . . وجعلت له تقاليد خاصة لم يكن معروفا بها . واذا فلما فن الاجازة على يد مصر خلقا جديدا اطلقت عليه اسما من صنعها فسمته **(التمليط)** .

ويبدو ان مصر عافت المدح الذي يطبع الشعر العربي ويرخصه فاستحدثت **القصائد الغزلية** التي لا تبقى للمدح الا نلدا من مقال او مجال . واطالت مصر هذه المقدمات لا أدري أسخرية من المدح والممدوح ام حبا في الغزل لمواظمتها طبيعتها الرقيقة الدافئة .

على كل حال استحدثت مصر هذه الطريقة ثم كلفت بها كماداتها ، وسمتها **«الطريقة القزمية»** . ولها في هذا الباب قصة قد يقرأها المرء للحظتها لم يمر بها ولكنها على عفويتها تؤيد معنى كبيرا وتعمق خطأ نمطا على سير التاريخ وعلى طول الزمن : هو نزوع مصر الى السهولة وانطباعها على الطوبى والرقلة والاثالة الحضارية .

جاء في خزنة الادب « لابن حجة الحموي » ان ابن سعيد المغربي خلال زيارته لمصر اجتمع بابن سناء الملك فسأله أن يرشده السبيل الى الطريقة الغرامية هذه فوجهه البهاء زهير الى قراءة بعض دواوين

الشعراء على أن يراجعهم بعد ذلك ، فغاب ابن سعيد مدة أكثر فيها من قراءة هذه الدواوين الى أن حفظ أغلبها .

ثم اجتمع بعد ذلك بالبهاء زهير وتذاكراني الغراميات . وفي غضون
— حديثهما انشد البهاء (يابان وادى الأجرع) وقال اشتهى أن يكمل هذا
المطلع ففكر ابن سعيد قليلا ثم قال :
« سقيت غيث الأدمع »

فقال البهاء المصري : هذا والله حسن ولكن الأقرب الى الطريق
الغرامى أن تقول :

« هل ملت من طرب معى »

لقد كان ابن حجة يسمى مدرسة مصر في التورية مدرسة (السحر
الحلال) وقد لعبت هذه المدرسة دورا كبيرا في شعر هذا العصر .

لم تتكلم مصر العربية ، بالمعنى الجامع ، الا منذ عدة قرون فاذا
بها تستحدث فيها كل هذه الآثار ... وتضج لها قاموسها الأكبر
والأشهر والأصح !! ..

لقد تكلمت مصر العربية ولكن اصحاب اللغة الاصليين يرجعون
عند مظنة الخطأ والصواب الى القاموس الذى وضعه ابن منظور
المصرى : (لسان العرب) .. وكفى .

مصر فى الأدب الشعبى

لهذه الشخصية أكثر من أثر فى الأدب الشعبى وبعض هذه الآثار:
الإنشاء ، والإيواء ، والتحرير ، والتحويل ، والتمصير ، وإشاعة قيم
جديدة ، وتسوية نماذج جديدة أيضا . . حتى السير العربية الأصل ،
العربية الأبطال **مصرها الشعب المصرى** كملحمة بنى هلال أذ نقاها من
نصراقات البذاوة ومرورثاتها ومواضعات حياتها كنظام الرياسة وبواعث
الحروب .

هذب الشعب المصرى هذه السيرة وحضرها وارتفع بها فأبو زيد
الذى لا يمدو أن يكون أحد فرسان القبيلة أصبح على يد مصر قائد جيش
نظامى يعرف التحضير والتجهيز والتحصين والتعبئة . كما مد له
المصريون فى الشجاعة حتى ليأتى بالخوارق فى بابها وفقا لزواج مصر فى
التحويل . وعلومه مختلف العلوم والفنون ، واللغات وهى لغة حضارية
طبيعية من مصر . وعلومه واسع الحيلة يعرف مداخل الأمور وخوارجها
وكانه « ابن بلد » - ينفهمها وهى طائفة - وانعكس هذا على الأمثال
الشعبية المصرية التى تقول : (سكة أبو زيد كلها مسالك) .

والحسن بن سرحان ارتفعوا به من أمير قبيلة إلى ملك الملوك ولكنهم
قيدوه بالشورى . فهو لا يبرم أمرا لا تراه الجماعة ، كما جعلوه كريما
واسع العطاء فى فيض - وكأنه النيل - وجعلوه عادلا عفوا انمكسا لرغبة
النفس المصرية فى العدل والسماحة . وبهذا غدا الحسن بن سرحان
بمجامع الصفات **المصرية فيه** ، رمزا شعبيا حتى لنطلق على وجيهه
السمت والشارة ، بأذخ العطاء ، « الفنجري » : عامل أبو على .

ومصر فى سيرة الهلالية (الحروسة) فحين يتطلع إليها دياب ابن
فانم ترده منها (الاقطاب) . وحفظها المصريون لدياب هذا فالأمر
الأحقق يسمونه (زغبى) نسبة إلى زغبة قبيلة دياب . وانتهى الأمر
بأن يقتله الفئان المصرى مسموما .

وقد استحدث المصريون في سيرة الهلالية : (ديوان مصر) من شعورهم بأنفسهم ووعيهم لذاتهم .

واشاعت مصر في القصص الشعبي **قصص الفكاهة** كما اشاعت فيه **الحياة الاسرية** ... دفة البيت .. وهذا اللون خاص بمصر في ألف ليلة . فالحياة المصرية الخاصة هي وحدها المفصلة في الليالي . فممن يستقبل وليدنا الحياة تسجل الليالي : ففرحة المولود ، .. والسبوح ، والنور ، والتربية ، وممارسة الحياة ، وزفة العرس ، والزواج والزوجة ، والأم ، مادة خصبة في الطبقة المصرية من ألف ليلة وليلة .

واشاعت مصر في القصص الشعبي كالهلالية والظاهر بيبرس وألف ليلة ، **فننا القديم «السحر»** ، فالغزاة المسحورة تستدرج غريمها دبابا ، والجن له ملوك وملكات تنشب بينهم وبين أبطال السير المعارك وكأنها العنف الذي يقابل الوداعة المصرية ويروج سطها الأملس بدوامات الحزبية والهوى انتصارا لهذا الفريق أو ذاك تسلية في بادية الأمر ، ثم حقيقة .

وإذا تم تصوير السيرة تحمسوا لها كالعادة حتى ليخلعون أسماءها على الأبناء ويرسمون صورها على الجدران بل الصدور .

بل ان الشعب المصري «مفرط» الرياسات في الملاحم الشعبية . ففي سيرة الظاهر بيبرس لم تعد الرياسة وراثية كمشيخه القبيلة بل هدت بالانتخاب .. انه نزوع مضر الى الديمقراطية وكأنها تهتبل هذا اللون من الأدب لتبث فيه مثلها حتى ولو لم يسمد بها الواقع . وتمضى مصر تقعد القواعد وترسم الصور للمجتمع والأشخاص وتنقد ما يغير هذا لتؤكد ذاتيتها .

وحين سقطت بغداد في يد هولاكو آوى القصص الشعبي الى مصر .. الى القاهرة فأضافت وحورث وسوت وصقلت كما فعلت في «الهلالية» و «ألف ليلة وليلة» . فبثت في الاولى مواقف الفلاحين واستحدثت في الاخرى طبقتين أو لوتين :

اللون الاول طبقة «السطار» التي شاع فيها **طلب العدل** .. اما اللون الآخر فهو «وصف الآثار المصرية» .

وقد اضافت بلاد اخرى الى ألف ليلة ، ولكن مصر هي التي

يلورتها بعد أن اعطتها اضافات هامة ثم صيبتها في القالب الاخير الذي تعرف به بعد ان لمسها القاص الشعبي المصرى اللسان الأخيرة .

تقول الدكتوروة سهير القلماوى في « الف ليلة وليلة » : (ولئن حملت كل النسخ التي بين ايدينا الاثر المصرى فما ذلك الا لان الكتاب آوى الى مصر فيما آوى اليها من كتب كونت تراث المدنية الإسلامية . ولما لم يكن مكانه المكتبة ، فقد آوى الى العامة وعاش عيشة مطلقة خارج جدران دور الكتب . وهنالك ترك الشعب المصرى فيه اثره الحى القوى . فلما رد الى تلك الشعوب الاخرى التي كانت محتفظة ولا شك ببقايا منه على الأقل ، رد اليها مصرىا قوى المصرية) .

ولسنا وحدنا في هذا القول فقد ذهب اليه لين ونون هامر وشوفان « Chauvin » وليتمان واذا كان البحث المتخصص قد انتهى الى تقسيم الف ليلة الى قسمين قسم بشدادى وقسم مصرى فقد نص كتاب « الف ليلة وليلة » للدكتوروة سهير القلماوى على ان القسم البغدادى غير وحوار واسع في مصر ثم استحدثت مصر القسم المصرى بل وضعت قصصا اقدم من زمن الرشيد . ولا تتردد الدراسة المتخصصة في رد القصص الموضوع في مصر الى اصول في الادب الفرعونى قصة على الزبيقي — يردها تولدته الى القصة المصرية القديمة كنز رامبسينت . Rampsinite وقصة القرد الكاتب يلعب فيها شبيجلبرج Spiegelberg نوت المصرى القديم الذى يصور في صورة قرد .

وبعد صنع مصر هذا اخذت « الف ليلة » طريقها الى اوربوا بالنقل والترجمة بما تحمل من طابع مصر ممثلا في حكمة النصيحة واصطناع الصبر والناة وما الى هذا من مظاهر السلوك والعمل الذى تضرب جلوده كتابتنا في بيئتنا الزراعية . وفي الكتاب من مصر من حيث الشكل ، ظاهرة التكرار وكأنه يحاكي الفن المصرى الاسلامى في تكرار الاجزاء والوحدات الكاملة . والمزاج المصرى يرتاح الى التكرار بما فيه من الطبيعة المصرية .

حتى اولياء الله يتخذون مصر مقرا ومقاما ، وحين تقوم مصر بدورها القيادى في المنطقة على مسرح الاحداث الكبرى ، يؤكد هؤلاء الاولياء دورها الكبير بما قرر في نفوس الجماهير من ايمان مسلم به بالغيبات والكرامات ايمانا يؤيده الادب الشعبي الذى يجعل من شخصيات الاولياء قوى خيبيبة تتدخل في كثير من المواقف تدخلا مباشرا . ففي قصة الظاهر بيبرس نجد السيففة نفيسة تجمع بينه وبين عثمان

ابن الحبلى ويتصافيان فى رحابها وبين جنبات جامعتها ؛ كما نجد
المقادير يجمع بين الظاهر بعبس وجمال الدين شيخه ، ثم يجمعهما
بالقائد البحرى محمد فارس البطريق المغربى . اما السيدة زينب فى
القصة فهى روح .. ونفحات تلهم النصر وتدنيه بما تجمع من صفوف
وتضم من شتات وتوثق من روابط .. روح تبارك المواقف وتسعدها .

ولامن ما يقوم القصص الشعبى الذى انشأه او حور او تطور فى
مصر على (بطولة الام) وحمايتها لولدها . هل يلح المؤلف ولو ،
لا شعوريا ، ايزيس وجورس ؟ ان قصة على الزبيق وهى القصة الشعبية
المصرية الخالصة المصرية تقوم على حماية امه الشجاعة وتوجيهها (حتى
ينتهى الامر بقتل الكلبى قاتل ابيه واسلام مقاليد الامور اليه .. تماما
كما انتقم « حورس » من « سيت » لابي « اوزوريس » .. تماما كما
كان خيال عامة الشعب فى مصر القديمة مفرما كما يقول برستد بتأمل
صورة الام التى اخفت نفسها فى مستنقعات الدلتا التى قامت فيها
بترية « حورس » الشاب حتى اذا (ما اشتد ساعده ، صار قادرا على
الانتقام من قاتل ابيه) .

وقصة الظاهر بعبس وعلى الزبيق وهما من عمل الفنان الشعبى
المصرى تصطبغان باللون المصرى حتى فى الصفات . فقد عمدنا الى
الى عقد البطولة (المهارة ، والحيلة ، والدكاء) الى الفهولة المصرية حين
اسندت قصة عنتره ، البطولة ، الى الغروسية .
والبطل على الزبيق منذ حداثة مولع بالتندر والسخرية شان
المصريين .

وقصة على الزبيق تنبع من احساس خفى بتور مصر فى الايواء
فتيدا القصة بلياذ احمد الدنف ورجاله ومن بينهم والد البطل ، الى
مصر حيث يستقرون بالقاهرة والاسكندرية .
اما قصة سيف بن ذى يزن التى شكلتها مصر او شكلها خوفها
على النيل فهى تجمع الى صفات المهارة والحيلة والدكاء ، علوم الاقاليم
والحكمة والسحر ايضا وهى صفات ومهارات مصرية .

ويحلو لخيال الراوى المصرى ان يقف بسيف بن ذى يزن عند
صومعة فى الجبل يسكنها انسان يرد على نحيبة الملك اليمنى بقوله :
« عليك السلام ورحمة الله وبركاته » . واهلا وسهلا بملك بلاد اليمن
وفيها من الامصار والدمى . الحاكم على هذه الاقطار وسائق النيل من
بلاد الحبشة الى اراضى الامصار ، وتجعل القصة من نيل مصر الها

معبودا حتى «لم يعرفوا لهم معبودا سواه» .. وتجمل القصة لنيل مصر «كتابا» محرزا في صندوق من خشب الأبنوس الأسود ومصفا عليه بصفائح الذهب الأحمر، والصندوق موضوع في تابوت من خشب الساج وبصفحة بصفائح فضة وموضوع عليه مقام عال من الخشب وعليه ستارة من الحرير الملون ومبنى عليه قبة محكمة من حجر الرخام الأبيض وبابها من الحديد الصيني وأفعالها من الحديد والبولاد .

انه خوف مصر التقليدى على النيل من فرط نعلها به الى حد تدب فيه الوثشاؤس والأوهام ..

وكلما لاح الهلال احضر القاص الشعبى المصرى اكابر بلد «قيمر» جميعا والوزراء مع الامراء والنواب والحجاب .. احضر الجميع وعلى رأسهم الملك الذى (يفتح باب القبة ويفتح بعده باب التابوت .وبعد يطلع الصندوق ويفتحه وينظر الى الكتاب - كتاب النيل لانسى - ويسجد له دون رب الأرباب . فاذا فعل ذلك وراه إرباب دولته سجد لذلك الكتاب سجد إرباب الدولة جميعا اتباعا لسجود الملك . وكذلك الامراء والوزراء يسجدون فتنظر الرعايا سجودهم فيسجدون جميعا تبعا لهم ..) او تبعا لرغبة مصر فى تطويع الآخرين لمشيتها ولنهرها المرموق المرموق ..

مقام عال .. قبة من الرخام وركوع وسجود يشترك فيه الملك والرمية على السواء .. كل هذا لكتاب النيل فى نظر القاص الشعبى (الذى يجلب لهم النيل ويجرى المياه) .

بهذا كان يحدث الشعب سماره فى الليالى والحلقات .

بل ان مصر فى قصة سيف بن ذى يزن جعلت لكتاب النيل «كرامات» ..

وقصة سيف بن ذى يزن فى الادب الشعبى عليها طابع مصر فى الاخيلة والأفكار ، فرواسب الفنان المصرى تشكل فى القصة (تابوتا) مصفا بالذهب - كالتابوت الذى تفتت عنه حيلة (سيت) ليضع فيه اخاه (أوزوريس) .. والصندوق الذى وضع القاص المصرى كتاب النيل فيه انما يلج أصبح الشهيد الذى كا الأقباط يضعونه فى الصندوق ويعتقدون أن النيل لا يفيض الا اذا فتح الصندوق - تماما كما تروى القصة - والتقى الأصبع فيه بين مظاهر التوقير والمغاورة ثم يعاد الأصبع الى الصندوق لينتظر العام التالى .

وهكذا صيغت مصر قصة سيفت بن ذى يزن باللون الذى يحلو لها
ان تتلاءم .

ومكذا فعلت مصر فى باقى القصص الشعبى . . . لابد أن تترك
طابعها بصورة ما بحيث تتميزه المين ولا تخطئه فى تارة تكيف أحداث
القصة على هواها وتارة تجعل البطل مصرياً أو تجعل الأبطال جميعاً
مصريين وطوراً تطبع القصة بطابع مصرى ولكن يدق فهمه على النظر
المجلى أو الأدراك غير المتميق فمثلاً فى « الهلالية » تنزع مصر إلى
« التجميع » على يد . . . الجازية « التى كانت صورة للوفاء والولاء . .
ونحن فى الريف المصرى نسمى الجسم الخشبي فى الساقية والذى
يربط أجزاءها ، الجازية » .

بل ان مصر تعمل وجناتها فى القصص الشعبى فتتزع فى قصة
الظاهر ببيرس الى توحيد المنطقة تحت رايته .

وفى قصة الظاهر ببيرس تسخر مصر من « العدل » الحاكم بصورة
عملية فتشبه ديواناً شعبياً لا يرتشى ولا يتجبر ولا يتكبر . . ديواناً مصرياً
لا يمثل فيه « ميزان » العدل ويتقدم اليه أبناء البلد والفلاحون فيجدون
أذناً صاغية وصدرًا رحباً . وكان قصر الأسلامية بهذا الديوان تتجاوب
مع رغبة بعيدة أبداها فى مصر الفرعونيه ، الفلاح الفصيح .

وفى القصص الشعبى حلم مصر الدائم بظهور « المخلص » الذى
يرفع عنها أصرها ، ويوكل اليها أمرها ويعيش بها ولها . ولا يهم الفنان
المصرى فى سبيل تعميق أفكار مصرية معينة ، وتوكيد أغراض مصرية
بعيدة أن يشكل الحقائق التاريخية تشكيلاً يرضى الوجدان المصرى
ويشبع رغباته الحاضرة فيمسح القاص « قراقوش » وزير صلاح الدين
الأيوبي ويجعل منه أضحوكة ولو كان رأى التاريخ فيه غير هذا ولكن
مصر تكره « أجنبية الحاكم » وهى تريد أن تعكس بغضها للحكم الأيوبي
والمملوكى وكرهها للأتراك ، فيؤلف فنائها الشعبى النوادر الساخرة
والحكايات التى تظهر « قراقوش » هذا شعبياً أحقق متعسفا . ويؤيد
رأى مصر وينتصر له (ابن ممانى) فى كتابه « الفاشوش » . وحاكاه
فى هذا (السيوطى) فالف « فاشوشيا » آخر . وتبعه ثالث قائل
« الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » لتشجيع مصر ضحكاً على
دولة الأيوبيين .

بل أن القصص الشعبى تجاوز « قراقوش » الى صلاح الدين
نفسه حين جعل القاص المصرى « على الزبيق » يلعب بالسلطين ولم

تستثنى « صلاح الدين » الذى يعتبر عادلا نسبيا ومحبوبا نسبيا .
لم تنس القصة الشعبية كلية انه غريب فانتصرت لعلى الزبيق ومنحته
الجرأة ليهجم على بيت السلطان ويسلبه خزانة المال . ثم تجعل
القصة صلاح الدين عاجزا عنه ، تقصر يداه عن النيل منه ! بل تجعله
يقرب بعجزه وقصوره فلا يجد بدا من مسالته فينادى السلطان بالامان
لعلى الزبيق ليضمه الى رجاله الذين يحفظون الامن ! ويطلب منه أن
يثبت مهارته باحضار « صندوق التواجيل » من المدينة المرصودة .
وبالطبع يظهر على الزبيق بالصندوق بعد كفاح « شاطر » .

وتتصل سلسلة انتصارات على الزبيق فيتولى درك مصر ثم يضم
اليه - كالعادة - درك الشام ودرك بغداد .

وتتنفس مصر فى الأدب الشعبى فتتقد نقدا كاريكاتوريا فما
لا يعجبها من خصال ومظاهر سلوك ، تسلط عليه النكتة اللاذعة ، أو
« القفشة » الباردة (١) ، أو « القافية » المحبوبة فتسخنه مسخا
يفقد بعده مضحكة وهزاة .

وكم وضعت مصر على لسان جحا من اقوال وحكايات وتعليقات
حتى ليعد جحا رمزا مصريا وأن عرفته شعوب اخرى فى الشرق
وحملتة أشياء .

وكانت مصر تسخر من حكامها الأجانب باللقاب والأسماء
والكنى . فعبد الله بن عبد الملك الذى رفع الأسماء (المكيس) ، وكافور
(أبو المسك) ، ونائب بيبرس الأجرد (دفين) ، وطشتير (حمص
اخضر) . ومثل هذا فعلته مصر بالرومان فالقيصر سبسيان دعتة
(تاجر السردين) (٢) .

وكانت مصر تسخر من الأجانب ، فى عصر المماليك ، بالزجل
الهزلى كما فعلت بفيل تيمورلنك .

سخر المصريون من كل طبقة فالشعراء والزجالون بل الأمة
المساجد اشتركوا فى السخرية الوانا . فالف ابن سودون ديوانه الهزلى
« نزهة النفوس ومضحك العيوس » الذى سخر فيه من كل شيء حتى

(١) حتى الامثلة العامة لا تغلو من هذه « القفشات » وكانها سليقة وطبع فى المصريين ،
ومن مظاهر الامثلة الشعبية « عيشك كويس يا خالتي من سوء بعضى يا بنت اخي » .
(٢) حتى فيما بينهم يطلق المصريون اللقب والكنى على اصحاب اللوازم منهم أو
الست الخاص وخاصة بين الادباء .

اللهجات فيعتذر « فنين » في خطابه بأنه لو كتب الذي في خاطره لكان الكتاب (يجيء من هون لفين) . كما ألف واعظ آخر من شربين كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » الذي سخرت فيه مصر من السلب والنهب والحرمان بل سخرت فيه مصر من أسلوب خطبة الجمعة « وكليشياتها » . ومن مخاطبتها بطونا خاوية وأجساما ضاوية لا ينقصها الوعيد والتهديد بالعذاب .

انى اتجنب الشواهد الا لضرورة ملحة ولكنى أورد خطبة جمعة، لدلالاتها العميقة على باع مصر في السخرية من كل شيء إذا ارهقتها المظالم :

(الحمد لله مزيل الحزن - أمنية يباعد منها الواقع المرير - ومزين الأرض باللين ، وأشهد ان اللحم الضانى سيد الأطعمة . ومصلح للبدن - أن الشهادة الدينية أمر مسلم به والا فقيم الصلاة - واعلموا ان النقطة لا تترك وان المهلبية أحسن وأبرك ، فتهيأوا لآلكم . وشربكم واعملوا انكم غدا بين يدي الله موقوفون ، وباعمالكم محاسبون ، وعلى رب العزة تعرضون ، وسيعلم الذين جاؤوا اى منقلب ينقلبون . اللهم وأرض عن الأربعة الأعيان : التين والزيتون والخوخ والرمان وأرض اللهم عن السبعة الباقية من العشرة الأطعمة المتخثرة : الماوردية ، والمهلبية والشعرية بالزغليل المربية ، والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر والكثافة المتبلبة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ، والقطايف الغارقة في السمن والعسل والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلادة الموصوفة ، والخرفان المعلوفة ، واليخنى السمين والقرمزية . متعنا الله وإياكم بهم . أجمعين . اللهم وادم النضر والتأييد والثبات ، وأجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السكر النبات ابن القناني من أصله من القصب الملوانى . اللهم أيد به أرماع القصب وبسياط الرطب وبعناقيد العنب . وأجمعنا عليه من أول النهار وفى وسطه وآخره . اللهم وأهلك الثلاثة الفجار : العدس والبسلة والبيصار .

هؤلاء هم الفجار الذين يواجههم الشعب إما الفجار والكفار ، الخ من الأمم البائدة فهو لا يعرف عنهم شيئا ولا يضره الجهل بهم . ولا يزيد المعرفة .

عباد الله من أراد حلل القبول أن تسدل عليه فليأكل الموز بالسكر بين والديه ، وتكفوا قبل الطعام واقتدوا بسنة خير الانام ، ولا تتضاربوا ولا تتخاذلوا ، وكونوا قباد الله اخوانا) .

في هذه الخطبة مرام بعيدة للسخرية اقربها ان الجائع المحروم لا بال له ولا فراغ في صبره او صدره للخطبة الموضوعية والالفاظ المصنوعة والدعاء المتكلف الذي لا روح فيه ولا مسوغ له والا فكيف يعد كل هذا الحرمان يطلبون منا الدعاء لهم بالنصر والدوام والتأييد، انما الدعاء للعرس الغارب ان يعود .

ان خطبة الجمعة لا معنى لها الا ان تعيش في مشاكل الناس الحقيقية .. في الامهم .. في آمالهم .. اما ان تدعو للظالم ثم تنتهي "تخدر المظلومين بالجنة" وتحدّر الضحايا من سوء المنقلب وعاقبة الظلم - وهم عاجزون عنه ورأسبون فيه ! - فلا .

هذا هو أسلوب مصر العبدى في النقد اللاذع .. أسلوب راسخ بما فيه من أعماق وبما يبقى منه على الزمن ، ويلحق اللعنة بمن تحيفوها ..

وهكذا كان الأدب الشعبى المصرى يتعقب الباقى ويدمغه حين كان الأدب الفصيح يتزلف اليه ، ويمدحه وهو ناظم عليه (فاذا استولى نفر قليل على المدح المبهين الكاذب ، تحدثوا في الزهد أو الولاية .

وهكذا تسخر مصر من الحكام ، خاصة ، الغرباء بالنكتة تارة وبالقصاص الشعبى آونة أخرى .

وحين نقول النكتة لا نعنى أمراً سهلاً . فالنكتة المصرية ورامها بديهة حاضرة وذكاء لمّاح وقدرة على اصطناع التورية وتخديم الألفاظ في براعة وسرعة وفن ولباقة أيضا .. لقد كانت النكتة المصرية وحدها ترعب الأقوياء ، حتى حرم الرومان على المحامين المصريين المرافعة في محاكم الاسكندرية لأنهم كانوا يفضون من هيبة القضاة الرومان بالمزاح والدعابة ، في أثناء الدفاع وشرح القضايا !

وهكذا تشكل النكتة المصرية عنصراً من عناصر الشخصية المصرية ، ومقوماً من مقوماتها بما لها من دور وظيفى وسلوكى في صراع الشخصية المصرية مع الأحداث التاريخية . انها نكتة مرتبطة وأن كان لها وجهان :

الاول : حفطها للذات بما تنفس عنها وتوعضا شعوراً بالاستعلاء على الطرف الآخر الذى تنتقصه و (تكشفه) في آن .. والاخر : انها عامل تمويق اذ تصرف الانفعال الإيجابى خاصة في المواقف التى يستطيع الانفعال ان يوقف البغى أو التماذى فيه .. وهى تصرف الانفعال

بإثارة الضحك الذي يحدث خلخلة في صرامة الموقف تضعفه فتستحيل تارة إلى دمار ! وكفى الله القتال المؤمنين والكافرين على السواء ...
وبعدها نحس السلبية والتفريط فنستعمل عليه بالافراط في البهاة ،
والتزيد في الحديث ، والمبالغة في التصرف مما يكبدنا في حياتنا اليومية
الكثير في سبيل مظاهر خارجية نتوسع فيها بقدر رغبتنا في تأكيد
الذات .

بل أن عملية التعويق التي تقوم بها النكتة من الخطورة بمكان
اذإنها بالجانب السلبي منها وراء الكثير من عيوبنا الاجتماعية .

ومن عمل الشخصية المصرية في الأدب الشعبي آثار مصر في فن :
« خيال الظل » .

إن ابن دانيال اعظم المبرزين في فن خيال الظل لم يستقم فنه
الا بعد أن أوى إلى مصر عندما دهم التتار بلده الموصل . ومع تبريره
وتفوقه لم يقر على فرض تمثيلاته على مصر أو يحمل فنانيها على
إدائها وعرضها بل التفتت مصر هذا الفن ومارسته بطريقتها هي
فأخملت ابن دانيال حين عفت فضلت تمثيلاتها من الجون والاقذاع
واتسمت كدائها في فنون الأدب بالفكاهة والنقد . بل همدت مصر
إلى بث الحياة المصرية في هذا اللون من الفنون الشعبية وقبسته بعضا
من تاريخها وفرضت عليه أماكنها وصور العيش فيها . أمعانا منها
في ربهه بمجالتها . في تمصيره .

وراحت مصر بعد هذا ماير في التقاليد التي وضعها ابن دانيال
فوضعت تقاليد فنية جديدة في الاستهلال والختام فكانت تمثيلاتها
« لعبة التمساح » و « لعبة المنار » اللتان عثر عليهما المستشرق
(بول كاله) فيما عثر عليه من مخطوطات القاهرة سنة ١٩٠٩ ، طبقة
أخرى غير ابن دانيال حتى لتعبر الدراسة المتخصصة « التمثيلية المصرية
« حرب العجم » أو « لعبة المنار » . من أدوية ما خلفه فن خيال
الظل .

وفي هذه التمثيلية وحدها دلالة كبيرة على شخصية مصر وعملها
ونزوعها إلى الفن وإلى الجد والتجميع والكفاح والظفر بالنصر والتغنى
به غناء يغرى ويشهد المرائم للجهاد في الحروب الصليبية التي أخذت
مصر فيها دورا طليعيا قياديا من حيث الفن الحربي والتبعا . هذا
حين نجد ابن دانيال الذي يقرن به فن « خيال الظل » يخدمه - وفي

نفس العصر والظروف تخديما غشا مبتذلا فيعرض كما يقول الدكتور عبد الحميد يونس (لمناقرة الديكة وتناطح الخراف ومصارعة الثيران ويستعرض الانحراف الاخلاقي ويسخر ببعض الأوضاع) .

ولقد بدت خصوصية مصر وصقلها في أسلوب التمثيليتين فقد كان أسلوبا فنيا راقيا يعتمد على التصوير والأدب معا ويجعلهما صالحتين للعرض أمام الخاصة المثقفة والعامة على السواء .

ولقد دخلت التمثيليتان بما وفرت لهما مصر ، الفن الشعبي ، حين أخرجت منه الدراسة المتخصصة بابات ابن دانيال على شهرتها .

وعن مصر أخذت تركيا فن خيال الظل وتأثرت بها فاستعارته اليونان . ومن مصر أخذته الشمال الأفريقي . . وعن مصر أيضا انتقل الى شمال حوض البحر الأبيض المتوسط .

وهناك فنون من الأدب الشعبي وعلى التحديد من الشعر الشعبي، نشأت في غير مصر مثل « التوما » و « كان كان » ثم لحقتها مصر وأدخلتها بوتقتها فأنجحت حتى لتروع ابن خلدون حين يتحدث من هذه الفنون فيقرر ان (أهل مصر القاهرة أنوا) فيها بالغرائب وبحجروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لفهم الحضيرة فجاءوا بالعجائب) .

ومثل هذا فملته مصر بالموشحات التي أقترنت بأسماء شعراء مصريين بالأصل أو المولد أو المربي . . بل ان الشاعر المصري ابن سناء الملك هو الذي ألف في فن التوشيح كتاب « دار الطراز في عمل الموشحات » .

وزكى شاعرنا ، الصفدي في كتابه « توشيح التوشيح » كما زكاد صاحب كتاب « المقتطف من أواخر الطرف » الذي نقل عنه ابن خلدون موشحة ابن سناء الملك التي طارت شهرتها شرقا وغربا : (حبيبى ارفع حجاب النور من العذار) وان كان هذا لم يحل دون نقد الدكتور الاهواني له في كتابه : « ابن سناء الملك ومشكلة القلم والإبتكار في الشعر » .

ويسلمنا الحديث عن الموشحات الى الوان من الأدب الشعبي كان لمصر ذوق خاص فيها كالوال .

نشا الوال في بغداد ولكنه تفتح وازدهر في مصر .

فقد استحدثت مصر في فن الموال من الناحية الفنية « السجع المشطر » فنظمت لأول مرة « البسيط » مجزوءا متصرفا في عدد اغصان الموال . ومضت تتصرف في عدد شطرات الموال ، وفي القافية ، وتنوع في الوزن دون أن تخرج على البحر . ويتمثل صنيعها هذا في الموال الذي استشهد به ابن خلدون في مقدمته .

هذى جراحى طربا والدما تنضح
وقاتلى يا اخيا فى الفلا يبرح
قالوا وتأخذ بتارك قلت دا انبح

وبرعت مصر في فن الموال حتى طعمت به امثالها الشعبية .

وفي القرن التاسع عشر اريد بالموال شر فاشرى الحاكم التركي متشبهه بالسلبية والاستخذاء للذين انعكسا على الموال ليشيع هذين المعنيين حتى يتها لحكمه ان يعيش . فكان الموال ينمطى من الكسل ، ويتباطا في التردد ، ويتكرر بال تكرار والمط ، ويتهلى بالبدر والحسن كان كل شيء على ما يرام ، وكان مصر فرغت من همومها ولم يبق الا ان تتلى . ولأمر ما سمت مصر الموال الشائع في ذلك الوقت « الموال الأعرج » وان كان للتسمية أصل فنى .

وشاعت مواويل الصبر لا تسليما بالأمر الواقع ولكن احساسا بمرارته ، الاحساس الذى يسبق الانتفاض . فقد مهد الفنان الشعبى لهذا الانتفاض بممارسة أسلوبه الأصيل إبان المحن والشدائد فسخر الموال من الحكماء فى « أدهم الشرقاوى » كما سخر منددا بالغاصبين من أتراك وفرنسيين وانجليز . فلما وقعت واقعة دنشواى انطلق الفن الشعبى من اساره يتوعد فى موال (زهران) ، ووجد نفسه فى موال : (مصطفى كامل) . وبدأ يؤرخ للأحداث ويفسح عن رايه متخلياً عن سلبية بغيضة . وتدعمت ايجابيته على الأيام لشارك في التعبير عن واقعنا الاجتماعى إبان الحرب العالمية الأولى ، حتى اذا كانت ثورة سنة ١٩١٩ انطلق الموال مع الجموع المصرية يردد صيحاتها ويندد بأعدائها ويدعو الى مقاطعتهم اقتصاديا ، وبهذا تكون مصر قد اضفت على الموال « قيمة » يوم جعلته مكلفا مشاركا .

ومن فناني الموال في تلك الحقبة يرم ومحمود رمزي ونظيم وحسين شفيق المصرى والدكتور سعيد عبده الذى يعد من رواد الموال المصرى بكل خصائصه الفنية المصرية فضلا عن أن مواله كان هادفا فهو يشتمل

ثورة على الانجليز ، وهو يقطر الما لنواحي النقص في مجتمعنا (موال الجامعة) وهو يناقش السياسة والساسة بالموال .

كانت مواويل الدكتور سعيد عبده تطب لنا على طريق المقاومة وكانت تمنحنا الجلد عليها ، ولتفحنا بالقوة الدافعة بما تصفه من نضالنا ، وبما تبده من أوهامنا حتى لم يعد المستعمر في عنفوان بطشه، أسطورة ، كما كان يحسبه البسطاء .

واستخرجت مصر من البحر البسيط بقدرتها على اللعب الفنى ، **صوراً عدة للموال** من حيث التنسيق والقافية . فالموال الأعرج والموال النعمانى وهو من تخريج أهل الصعيد ومواويل « الفرش والغطا » التى يشدها المغنون على طريقة « الموال النعمانى » **بل بلغ الصعادية بفن الموال مبلفاً ينظّمون معه المواويل ارتجالاً على البديهة فى سرعة ولماحية** وشفافية أيضاً . وهم يسمون عملهم هذا أو فنهم هذا : « الرمى » وهم حين « يرمون » فأنما يتناولون جوانب الحياة كلها فيكون موضوعهم سياسياً أو اجتماعياً أو وطنياً أو فكاهياً أو اقتصادياً . وفى كل الحالات نجد الحكمة ماثلة والحداثة مسرودة ، والمعنى الغريب مقتنصاً فى براعة وحلق ، والصياغة بعد هذا لا هى بالمكرورة ولا بالمستهجنة .

وفى مجال الابتكار فى صياغة الموال يأتى بىرم المصور بالمعجب فيجرب الأشرطة ويفاير بينها فى الطول ويخدم مع القافية الأصلية قافية داخلية وينوع فى وزن الموال ويقفى أشرطة .

وقد أجاد بىرم « آله » فى الأوله ، والثانية ، والثالثة . . وهو طراز . . راقى الرجالين فخفوا الى تقليده وما زالوا على تقليده عاكفين حتى اليوم .

وحين خدمت مصر الموال تخديماً جديداً فنزلت به الحياة وعبرت به عن ألوانها ، تطور الموال على يدها فى أغراضه والفاظه والحانه، وفنونه حتى غدا فناً شعبياً يضيف اليه أبناء الشعب على اختلاف مشاربهم وأعمالهم حتى ليكاد أبناء البلد يوقعون أحاديث نفوسهم على أرغول .

واذ بلغ الموال هذا الحد من التنوع والاطراف ، غدا قادراً على بلورة معانٍ بعينها وبث مفاهيم جديدة بل إشاعة قيم حاضرة يملأ لها المد الثقافى والحضارى والاجتماعى الراهن .

وبأخذ الموال في حياتنا الحاضرة دوراً ذا قيمة فهو يؤرخ لها ،
 ويسجل انتصاراتها ويعكس مشاعرها ، ويروي أحداثها ، ويغنى للجموع
 الهادرة ، ويبارك القوى العاملة ، ويدعو لكل حركة بناءة ، ويتفتح
 للحياة المصرية بل يعيشها متجاوباً معها في حب وفرحة . فحكى الموال
 وقص وصور وعاش مع الشعب فنبت منه وخفق له ، ومعه ، وجرى
 بأسلوبه البسيط والفاظه الصادقة الرضية السهلة ، وحمل شجاءه
 فجاء صافياً رقيقاً عذباً حبيباً الى القلوب والأسماع .

هذه ألوان من شخصية مصر في الأدب الشعبي ... بعض ألوان .

شخصية مصر فى العصر الحديث

كثيرون يعدون الحملة الفرنسية بداية يقظة اى انها ايقظت مصر من سبات عميق . ولكن مصر حتى فى ذلك الوقت قاومت نابليون الذى كان قد اجتاحت اوربا قبيلها بدون مقاومة . قاومته مصر حتى خرج منها ليلا ، وقتل فيها قائده الاول كليبر ، واسلم بها قائده الثانى مينو وتزوج مصرية من رشيد . . واذا الحملة الفرنسية تنحسر عن مصر بعد ثلاث سنين !

حتى الثقافة حين شحذتها الحملة الفرنسية فيما استخدمت من اسلحة ضد مصر قاومتها مصر بهذا السلاح نفسه اى بالوراثة الثقافية فيها والدكاء فكشفت لعبتها ولم يخلصها اشراك رجالها فى الحكم ، او الدراسة العلمية ، او اسلام مينو .

وحاولت انجلترا ان تخدم الثقافة أيضا وركزت على اللغة فتكلمت الهند الانجليزية ، ولكن مصر تزودت بالثقافة الانجليزية دون أن تنكلم الانجليزية نفسها فى حياتها اليومية . وفشلت انجلترا فيما نجحت فيه فى الهند . وظلت مصر تنكلم العربية وتعلمها لأبناء الدول العربية والشرقية فى الأهر .

ازاحت مصر الحملة الفرنسية ، وازاحت الحملة الفرنسية الرماذ من الجدوة المصرية التى لا تنطفىء أبدا فقامت فى مصر حركة علمية من أوائل القرن التاسع عشر ازدهرت فى عهد اسماعيل فعممت المدارس وانتشرت الصحافة وقام التمثيل وترجمت العلوم اذ قام بمصر قلم للترجمة سنة ١٨٤٢ على رأسه رفاعة الطهطاوى ترجم الكثير من الكتب العلمية الأجنبية فى مختلف العلوم الحديثة .

واحمد الاحتلال الانجليزى هذه النهضة ولكن مصر ما لبثت أن
مبت من جديد توفد البعث الى الخارج وتنشئ المدارس فى الداخل
وتعمل لحريتها ومقلها معا حتى بلغت من الاثنين غاية تعدها نقطة
انطلاق الى ما هو اكمل .

لم يعق الاحتلال على عتوه وجبروته ، مصر عن أن تنشئ
« الجامعة » فى القاهرة ثم فى الاسكندرية . وبهذا توهجت الشعلة فى
يد مصر على الرغم منه اذ غدت جامعتها وازهرها قبلة الطلاب من
سائر العالم العربى والاسلامى . . . يدين العالم العربى لازهرها بالقيادة
الروحية ، ويدين لجامعتها بالقيادة العلمية ، ويدين لادبها بالقيادة
الفنية . فحين تدهور الأدب العربى فى العصر التركى ووهنت اللغة
حتى كادت أن تكون جثة باردة لا نبض فيها ولا حياة ، اقامت مصر
المشرقة على يد البارودى . وتمد لحركة البعث حافظ ، وشوقي الذى
عقد له لواء الشعر ، وبويع بامانة القوافى ، ومطران ربيب مصر . . ثم
جاء العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى فلم يكتفوا بعملية الاحياء
والبعث بل دعوا الى التجديد والاستشراف الى آفاق أخرى بعيدة .

واذ بعثت مصر الشعر ، وطورته وجددته ، شرعت مصر الكتابة
السهلة المألوفة بعد ان غرق العصر الى اذنيه فى مقامات الحريري
وتقليدها ! فكانت كتابات لطفى السيد وكتاب (الجريدة) صبيحة فى
عالم الكتابة العربية تحررها من ربة القيود الصناعية بأسجاعها الثقيلة
ومعانيها المتهافنة .

واذ اشتد الاقبال على الثقافة الغربية وتوسع الاطلاع بها ، بلغت
مصر بالنثر الفنى كما يقول رجل الأدب الاستاذ الزيات (منزلة لم يبلغها
فى عصر من عصوره) على يد العقاد والمازنى وطه حسين وحسين هيكل
والزيات وأحمد أمين ورصفائهم .

ولمصر ، وباسمها ، هذه القيادات الأدبية بما لها من سبق الريادة
واشاعتها .

يقول الأخ السورى الدكتور أسعد طلس بعد ان نوه بالجامعات
المصرية (وأما الطباعة المصرية على اختلاف دورها وتعدد مذاهبها فانها
ذات فضل عظيم على القارئ فى الشام من اقصاه الى اقصاه . ولولا
كتب مصر ومجلاتها ونشراتها لكان للادب فى الديار الشامية شأن آخر) .

ففى ميدان القصة شرعت مصر الترجمة والاقتباس فعرف الادب العربى القصة بمفهومها الحديث فى الادب الغربى ثم اكدت مصر دورها بقصة « زينب » للدكتور هيكل و « عودة الروح » و « اهل الكهف » لتوفيق الحكيم و « ابراهيم الكاتب » للمازنى و « سارة » للعقاد وما قدم طاهر لاشين ويحيى حقي ومحمد تيمور ومحمود تيمور وما تبع البداية من آثارهم حتى سامت القصة العربية المستوى العالمى هند نجيب محفوظ مع مصربة الروح والطابع والمكان .

ثم استحدثت مصر **الشعر التمثيلى** على يد شوقى ، وعلى نهجه سار عزيز اباطة .

وفى مصر كتبت المسرحية . . كتبها توفيق الحكيم . وهى فى باب الادب المسرحى زيادة امتدت آثارها الى يومنا هذا ، واقول زيادة من حيث المفهوم الفنى للمسرحية كما يتمثلها الادب الغربى ، ولا يناقض هذا نشأة التمثيل العربى فى لبنان لعامل الارساليات الأجنبية . ولكن التمثيل شئ والتأليف المسرحى شئ آخر .

ويتصل بعامل الارساليات الأجنبية ان عرف لبنان الصحافة وأسس الصحف . ولكن الصحافة فى القرن التاسع عشر التمسدت فى مصر البيئة الصالحة فمؤسسو بعض الصحف ، من باب النشاط التجارى ، لبنانيون أو سوريون ولكنهم عاشوا وعاشت صحفهم فى مصر ، **وبالقلامها** ، بل ان اول صحيفة عربية بالمعنى الفنى كانت الوقائع المصرية (١٨٢٨) . وظلت وحدها فى الميدان أكثر من ربع قرن .

على أن مصر انشأت مجلة (اليسوب) الطبية .

وفى سنة ١٨٦٦ اصدرت مصر صحيفة « وادى النيل » ، « فنزهة الأفكار » ثم مجلة « روضة المدارس » .

وتوالى بعد هذا صدور الصحف والمجلات علمية ، وادبية ، وفنية لتؤدى فى مصر ، وتؤدى عنها ، **رسالة النور** .

وهنا تطل شخصية مصر .

تصدر الصحف ثم تقرأ صحف مصر .

وتعمل الاذاعات وتسمع اذاعة مصر .

وتنشر المؤلفات وتنش البلاد العربية بما آلت مصر وهى ثقة غالية دونها الثروات وحساب المكاسب والتجارات .

وتحقق الكتب ولكن البلاد العربية تعتمد بتحقيقات مصر العلمية .
ان مائة مليون عربى قبلتهم مصر فى اللغة بعلومها وفنونها ، وأربعمائة
مليون مسلم قبلتهم مصر فى الدين .

وفى الطب . . وفى الدرة . . وفى الهندسة تتألق فى سماء مصر
الاسماء الكبيرة ، والكثرة على المستوى العالى مما شهد به لهم الغرب
وأذكر على سبيل المثال لا الحصر (دكتور على ابراهيم) و (دكتور
نجيب محفوظ) و (دكتور مصطفى مشرفة) و (دكتور سيد كريم) ،
ولصر فى الرسم والنحت والعمارة أساليب وفنون ومدارس
وريادات . . وروائع .

وقد تكون ريادتها فى العصر الحاضر ليس لها التفرد العالى الذى
ذهبت به فى الماضى ، ولكنها مركز إشعاع لما حولها وما بالليل هذا
ولا بالهين الشأن .

وهنا تطل شخصية مصر .

تغنى أصوات كثيرة ولكن القلوب تهفو الى أم كلثوم ، والاسماع
العربية ترهف لام كلثوم .

مصر تبعث أعذب الاغاني وأرقها .

ومن مصر تسرى اقوى الألحان وأبقاها .

ومن مصر تصدر الأفلام .

ومن مصر تتجه مختلف الاذاعات .

وتقوم الجامعات فى البلاد العربية ولكن بأساندة مصر .

وتنبعث النهضة ولكن بمساندة مصر بالرجال والخبرة . وتهب
حركات التحرير فتأازرها مصر بالتأييد والتوجيه والاذكاء .

ويمتحن الأحرار فيطلعون الى اللياذ بمصر وفيها تحلّت حول
جمال الدين الأفغانى الندوة . . واليها قصد الكواكبى . . وبها اتصلت
حياة الأحرار ، وأسباب أصحاب الدعوات .

ثم واصلت مصر الدعوات الى الحرية السياسية يقوم عليها
مصطفى كامل ومحمد فريد ولطفى السيد ومحمد عبده الذى سافر
لنا فى الشام فالتف حوله السوريون ١٨٨٥ م (يتلقون عنه دروس

العلم والحكمة والخير) كما يقول الدكتور اسعد طلس . كما احدث
الشيخ محمد عبده في بيروت (انقلابا عظيما) .

بل ان بعض الدعوات السياسية في بعض بلاد الشرق يخطط لها
في مصر اذ قبل ان تولد الباكستان كان رجالها يلعبون بالقاهرة ليضعوا
الخطط لتحرير بلادهم . وليس الى الشك من سبيل ان جزءا كبيرا
من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب في مصر . وفي مصر كتبت فصول
من قصة تحرير اندونيسيا .

بل كذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد افريقيا
وآسيا .

ان القاهرة حلم الملايين في الفاتين .

كما قامت في مصر الدعوة الى الاصلاح الديني على يد محمد عبده
والرافى . ومن مصر نبتت الدعوة الى تحرير المرأة اضطلع بها قاسم
امين وتبعه الزهاوى في العراق .

دعوة الدعوة الى القومية العربية تصدرها مصر ، وينبع في البلاد
العربية موهوبون في كل فن ولكنهم لا يتألقون الا في مصر ، فاذا نادروها
انطلقوا ! . والأمثلة كثيرة .

ومن مصر تخرج اليوم البعث العلمية بصوت المدرسين شرقا
وغربا وجنوبا لتنشر رسالة مصر التعليمية فيما حولها وتمد اشعاعاتها
الى مسافات بعيدة .

ان مصر اليوم تمارس في المنطقة عملها التقليدي الذي مرت عليه
منذ قديم .

وبعد : فاني حين اذكر لمصر عطائها الباقي في الفنون والعلوم
انما اتفيا رسم ملامحها وبراك شخصيتها واظهار دورها التقليدي لأننا
بحاجة اليوم الى التعرف الى هذه الشخصية والتبلي من هذه
القسمات .

وقد سلكت الطريق العلمي والتزمت الحقائق المجردة الثابتة التي
لا يقوى على جحودها انكار أو مكابرة . فاذا بدت الحقيقة كبيرة شامخة
فهذا واقعها بلا تفاخر أو مباهاة انما هو انصاف وتسجيل يحتمه موضوع
الكتاب ويمليه طبيعة البحث .

حقائق نحرص عليها

حين تلف آثار المجد المسمى مستقرة ثابتة ، شامخة
لا تنال منها الأحداث أو الناس أو الزمن نفسه ، يتحارب
نور على قلب الحقائق حتى يجدوا نفرة إلى النفس المصرية
تهز ثقنها أو تشككها في ذاتيتها .
والمصريون يواجهون مثل هذه الحملات أو التحديات
بالدفاع أو الصمت ، ولكن الأجدى أن نتناولها في
موضوعية علمية أبقي من الجدل والفرغ والأجفاف .

- الأهرام والسخرة
- مصر والغزاة
- أصل الشعب المصري
- اسم مصر
- مصر في القرآن الكريم
- فرعون .. وفراعنة
- الأقباط والمسلمون

الأهرام والسخرة

الهرم

يقف الناس منه فريقين :

بعض يراه صرحا للعمارة والعلم وبراعة الإدارة وخلود الفن .
والبعض الآخر يراه صرحا شاهدا على الاستعباد والسخرة .

إن الاستعباد قد يستطيع أن يبني هرما ولكنه لا يستطيع أن يحقق اتفاقا أو يفجر فنا سعيدا في بغداد ، فالنقش في الهرم وفي المعابد المصرية فيه فرحة وغنائية يندر وجودها في فن آخر .

وقد أثبتت الدراسات حرص الطبقات الكادحة على أن تدفن على مقربة من هرم خوفو بعد موته بأربعة قرون ، بما رسخ في نفوس الشعب من سيرته ومآثره .

أى أن الأهرامات كانت مساجد ذلك العصر فبنائها كانوا يتبركون ببنائها ، ويتبركون بأصحابها .

يقول الدكتور أحمد فخري : (أن دارس التاريخ يجب ألا ينسى أنه من الخطأ الكبير أن تحكم على ما حدث في العصور الماضية بآرائنا الحالية ، أو ما تؤمن به الآن من قيم أخلاقية أو مبادئ . كان خوفو ملكا مقدسا ، ولا شك أن رعاياه كان يسعدهم أن يشتركوا في إقامة مبانيه الخالدة . وقد شيدت في إيامه كثير من آيات العمارة والفن . فإذا كان هذا الشخص حقيقة ملكا ظالما متسلطا عاتيا فمن غير المعقول أن يكون في استطاعته ترك البلاد في حالة اقتصادية مستقرة ساعدت ابنه (خفرع) على بناء الهرم الثانى ، وهو بناء يكاد يماثل هرم أبيه في عظيمته .

(١) كتاب (الأهرامات المصرية) ص ١٥١ .

وإذا كان لادعاءات أولئك الكتاب - المعارضين - أى نصيب من الحقيقة ، لاستحالة الاستمرار فى حفظ الطقوس الدينية الخاصة بالملك (خوفو) قرونا كثيرة ، فلدينا من العصر البطلمي ، أى أكثر من ألفى سنة بعد موته ، آثار تشير الى استمرار وجود كهنة (خوفو) حتى ذلك العهد .

وعلى النقيض من هذا ، المؤرخ الشهير « بلىنى » الذى لم ير فى الاهرامات إلا (استعراضا سخيفا ، لا فائدة منه لثروة الملوك) . ولكنه لم يلبث أن تساءل فى دهشة لا تخفى : كيف استطاعوا رفع الاحجار الى هذا الارتفاع العظيم ؟

ويبدو أن « بلىنى » لم يكن ، فى دهشته ، وحده فقد راع الهرم ، الكثيرين حتى لقد قدم بعض المغمين بالاحصائيات ، كما يقول الدكتور فخرى ، كثيرا من العمليات الحسابية ، ليعقدوا مقارنات بين ارتفاعه وحجمه ، وبين الآثار الأخرى الشهيرة . واستنادا الى تلك التقديرات يقول عالم الآثاريات أن (مساحة الهرم الأكبر يمكن أن تتسع لمجلس البرلمان ، كاتدرائية القديس بولس فى إنجلترا ، ويبقى منها بعد ذلك مكان كبير غير مشغول . وهناك حصة أخرى يتضح منها أن المساحة التى تشغلها قاعدة الهرم تكفى لأن تشيد فيها كاتدرائيات فلورنسا وميلانو والقديس بطرس فى روما ، وكذلك كاتدرائية القديس بولس ودير وستمنستر فى لندن .

ولو أننا قطعنا جميع أحجار الهرم الى أحجار صغيرة ، حجم كل منها قدم مربعة واحدة ، ووضعنا هذه الأحجار كل منها الى جانب الآخر لأصبح طولها ثلثى طول الكرة الأرضية عند خط الاستواء . وعندما كان نابليون فى مصر حسب أنه يوجد فى الهرم الأكبر ، وما جاوره من أهرامات ، أحجار تكفى لإقامة سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وسمكه متر واحد ، وقد أيد أحد الرياضيين الذين كانوا بين علماء الحملة الفرنسية هذا التقدير الذى حسبته نابليون !

ويغيب فى البحر حقيقة أخرى رائعة وهى الطرق الصاعدة التى أكدت الاكتشافات الأثرية وجودها بالضرورة لبناء أى هرم . وتشيد الطرق الصاعدة عمل كبير ومجهود ضخم لا يكاد يقل عن تشييد الهرم نفسه) .

وغير الطرق الصاعدة يلحق بكل هرم معبد جنازى وهيكىل وسفن وسور خارجى مما يسمونه (المجموعة الهرمية) .

يقول الدكتور احمد فخرى مرة اخرى (ان العقل ليحار اذا ما اعملنا التفكير في كمية العمل الذى يحتاج اليها مثل هذا البناء حتى لو استخدمنا المعدات الميكانيكية الحديثة) .

واحترار العلماء (١) . . انه مع التسليم بأن المهندسين المصريين احلوا القوة البشرية محل القوة الآلية في تشييد هرمهم ، الا أن ذلك لا يفسر المعجزات الفنية والعمارية التى تجمعت فى بنائه وانما يضيف اليها معجزات بشرية لا تقل عنها فى صعوبة تفسيرها ، ذلك انه من السهل أن نتحدث عن حشد آلاف من الرجال ، وليكونوا ثلاثين ألف رجل مثلاً ، كيف تم تشييدهم .

كيف تم تدريب الفنيين منهم .

كيف امكن تحقيق التعاون بينهم ؟

الهرم معناه تنظيم جبار للمجموعة الانسانية التى قامت به . هذا التنظيم والتخصيص والتصميم والتنفيذ . والاشراف هو فى ذاته **حفاوة فى مستوى رفيع** .

ان توجيه العمال الراغبين فى العمل الى القيام بأعمال الشايلة يستلزم وجود الزعامة المصحوبة بقوة الابداع .

ان الهرم المصرى ليس بناء فحسب ، وليس نقوشا فحسب ، ولكنه جراءة ايضا . . الملك المصرى الذى وقف على الهضبة وحلم بأن يكون له فوقها هرم باذخ ثم انطلقت من نفسه ارادة التصميم ثم عزم التنفيذ فاذا بالحلم حقيقة . . هذه المراحل غير المنظورة فى الهرم من ابلغ معانيه . . جراءة تضر ان تسوى الهضبة وتنقل اليها الأحجار الضخمة وتبنى ثم تعلى البناء فيكون لها ما تريد . . جراءة .

الهرم معناه ان الانسان المصرى والفنان المصرى قد اختار . اختار أن يضع نفسه فى مجال الخلق . وان يجعل من نفسه مرقبا ومنطلقا للتشكيل . . للبناء . . للتشويق الى الرائع والجليل .

وحين بنت مصر الهرم الأكبر . بنت الانسان المصرى على طريقتها فى بناء الهرم .

ان اكتشاف **قالب الطوب** ، اكتشاف عظيم . . وتشكيل الحجر ، اكتشاف عظيم . . فما أصنعه يصنعنى ، وما أبنيه يبيننى . . فدخل التجربة خبرة ، وقدرة ، وتشكيل للنفس .

(١) اقرا جورج سارتون فى كتابه (تاريخ العلم) .

ان العروض في الشعر لون من ادراك النظام والحساب الدقيق .

والهرم او ذلك الكيان الرياضي الصارم الاخاذ الجليل . . انه طائر ذو اربعة اجنحة . ولهذا يجب على من يزوره ان يقف قبالة الزاوية ثم يرفع بصره الى القمة ويحتضنه من الجناحين في عملية تجديد للنفس وللوجود البشرى المصرى .

بنت مصر الهرم الأكبر . وبعده بنت هرم خفرع ثم هرم منقرع ، وقبله بنت هرم زوسر وهرم سنفر .

ان ولع مصر بالبناء ، لون من البناء النفسى . ولعل البناء اكسبها النضج النفسى .

هل الحجر أوحى اليها القوة ؟ ام ان قوتها اختارت الحجر للبناء ؟ وهذا يفسر ان مصر الاسلامية في اول عهدها بالاسلام ، بنت بالطوب في مرحلة الانطواء لتتبعين الجديد . . حتى جامع ابن طولون على ضخامته مبنى بالطوب .

واذ اتخذت مصر في الاسلام دورا قويا ، بنت بالحجر وبالروح القديمة نفسها - والروح غير الطراز - وخير شاهد على هذا جامع السلطان حسن .

نعود الى السؤال التقليدى : هل تم البناء رهبة او رغبة ؟ سخرة او رضاء ؟

الدكتور عبد العزيز صالح أشار الى ان البناء كان يجرى في مواسم الفيضان ، والى ان البناء كان يعفى منه طوائف المتعلمين من موظفى الحكومة وكهنة المعابد وربما كبار الشخصيات من أهل المدن والقرى أيضا ، اى كان قاصرا على الديوين .

كما أشار الى ان العمال كانوا مسحرين بالمعقيدة الدينية ، فالملك كان رأس الديانة وورث الأرباب من الناحية النظرية على أقل تقدير ، بل كان يعتبر ملكا في الآخرة أيضا ، والجهد في سبيله شفاعته .

كما أشار الى ان العمال خصصت لهم شئون الفلال وخصصت لهم مساكن لا يوائهم . ولم يتركوا في العراء ، وقدم لهم الطعام والشراب ، وتضمنت النصوص قول بعض من تولوا رئاسة الأرباع والصناع :

(لم اضرب انسانا وقع تحت يدي ولم استعبد احدا في العمل) .

وقول احد اثرياء الاسرة الرابعة :

(كل صانع عمل في مقبرتى ارضيته)

وقول آخر : (انفتحت على قبرى هذا من متامى الحلال ولم يحدث
اطلاقا ان اغتصب متاع شخص ما) .

انه اذا كان لكل طائفة من الحكام آفة ، وكان من آفة حكام بلاد
النهرين الاقدمين حب البطش وسفك الدماء والنهم الى الجبروت ،
وكان من امر الحكام الرومان الاقدمين مثل امرهم ، وكان من آفة حكام
العصور الوسطى بذل جانب كبير من موارد دولهم وبيوت اموالها في
سبيل بناء القصور وحياة الاستمتاع ومذائح اشعراء فقد كان من هوى
ملوك المصريين انهم اهتموا بالمعابد والاهرام .

وقد يتساءل بعض الناس لماذا لم يهتموا بالنواحي العمرانية
التي تعود على الشعب كله بالخير ؟

وهنا اقول ان ملوك الاهرام بدلوا الكثير من اجل التعمير
والتحضير . وبعض هذا ، الزوارة ، علم ذلك العصر وصناعاته بما
وراءها من رى وشق الترع والقنوات ، والتقويم السنوى وكل ما حمله
عصرهم من حضارة بفتونها وعلومها . .

فعلوا هذا قبل بناء الاهرام ، بل لعلهم بسبب هذا كله وبه ، بنوا
الاهرام . . بمائد الزوارة وغيرها . . وبدافع استمراء نعيمها واستبقائه
بعد الحياة . فما يفكر في الخلود محروم او مجهود ، ولكن نعيم الحياة
في مصر جعل جنة المصريين ، مصر خالدة .

بل ان امين سامى (باشا) صاحب كتاب تقويم النيل يقول ان
النيل كان يجرى في ذلك العهد بالقرب من الهرم . فكانت الرمال تطمر
مجراه . وكانوا يقاسون في ازالتها اشد العذاب فبنوا الهرم ذا السطوح
المائلة التى اذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية
الانعكاس . وضمنوه فوائد اخرى منها انه يمكن به تعيين الجهات
ومعرفة الفصول .

ودفن خوفو به من قبيل دفن اصحاب المساجد فيها . .

ثم لماذا الاهرام دون سائر الآثار فى مختلف الحضارات القديمة
تسلط عليها فكرة السخرة ؟ مع انها بنيت فى بيئات لا تنتظر انفسار

فيضان ، او يوثق علاقتها بالحاكم نهر مقدس يجعل مرضاته باعتباره سيد النيل ، بركة وضرورة معا ؟

ليس رمز السخرة .

ولكن الهرم رمز الصمود والثبات في الشخصية المصرية .

ان الهرم حصاد بلد زارع . والزراعة استقرار فجاء الهرم في انزانه واستقامته دعوة للنفس المصرية أن تأخذ هيئتها ، هيئة الهرم ، المتزن المستقر .

ان الهرم مثال لتماسك الذات المصرية بما هو بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا .

في العمارة المصرية ، من مصر ، روح الايمان . يتطلع المصري الى الهرم في المحنة . ويرى السحاب يمر من فوق الهرم . يتحرك وهو ثابت . يمثل السحاب الأحداث . ويمثل الهرم القلب المصري في ثباته واستقراره . ثبات عرفته مصر حين بنت الهرم ورفعت المسلة وهي قاعدة تحلم بالقمة فتلمم نفسها وتجمع اطرافها لتعلو وتنفتح للضياء .

وتعتنق مصر بعد هذا الاسلام . وترفع المثانة على مثال من المسلة . حتى الشموع في العصر الاسلامي شكلتها مصر على هيئة المسلة او المثانة .

وتحتفظ الشمعة بكبريائها مهما بكت . اذا قلبت الشمعة تسقط منها دمعة . ولكن اللهب يتجه الى اعلى لا الى اسفل !!

تماسك وتمسك بالشمعة . بالوهج . انها روح مصر .

ان الهرم حوار بين الانسان المصري والمطلق . كتلة تطمئنه وسط الفضاء اللانهائي . كتلة تملأ جزءا من الفراغ ثم عاد الانسان المصري فلناها حين صقل سطح الهرم بالطلاء الأبيض استزادة من النور .

وهذه الثنائية في الشعور عبرت عنها اساطيرنا حين جعلت البطل يقدم قدما ويؤخر اخرى .

ان الهرم مصعد الى الشمس فان (اشعة الشمس عندما تسقط مضئة بين فجوات السحب في السماء فانها تظهر كما لو كانت اهراما هائلة الحجم تربط بين السماء والارض . وتقرأ في اكثر من موضع في

نصوص الأهرام وصفا للملك الراحل وهو يستخدم أشعة الشمس كطريق صاعد يرقى عليه الى السماء .

انه معراج للروح الى السماء .. الى نور النور .

ان الهرم يرفعنا من الأرض الى الأفق ، وينتقنا من الوهاد الى اشراق واشراق القمة .

ولو جاز أن نجارى من يقول ان الهرم قبر لخوفو فان فكرة تمييز القبر ، كانت كومة من التراب توضع فوقه لتدل عليه .

اذن مصر حولت الكومة الساذجة المتواضعة الى احدى عجائب الدنيا السبع .. والوحيدة الباقية . الى الهرم الكبير .

هذه صناعة الثقافة .

هذا فن خلق القيم .

ويكمل سيمفونية الهرم ، أبو الهول .

قرار واستقرار وطمانينة .

لقد حققوا فيه حبهم للنور .

انه فى هيئته ووضعه من الهضبة يمثل فكرة انتظار مشرق الشمس .

كان أبو الهول ، فى الأصل ، صخرة ضخمة تعترض طريق المصرى الى الهرم فشكلها تمثالا واحال العائق الى فن رائع .

كم تخطت مصر الصعب .. كم اقتحمت العقبات .

ويتصل بالهرم معبد الوادى .

ومعبد الوادى قطعة من الأدب المعماري تقف امامه فيهبول العين حتى يدوب فضولها فلا تنطلق الى الداخل ، ولا تتسلل نظرتها من فتحات النوافذ كالأبنية الحديثة ، فان البناء المهيّب يحجب ما بداخله . ان معبد الوادى يلزم الزائر بالوقوف على الباب والصعود البطيء من مدخل ضيق ينفث بعده على المعبد .. معبد أرضه من المرمر رمزا الى الماء ، وجدرانه من الجرانيت رمزا الى الصلابة والقوة .

ان معبد الوادى يترجم معماريا الهضبة والصحراء ، حين يترجم معبد زوسر معماريا الوادى ذى النبات بللمسة الحنان فيه .

معبد زوسر أو معبد الهرم المدرج ، يمر الدالاف اليه بممر ضيق
لويل ليخرج الى الرحابة الرحبة في البناء وفي المكان . هل يوفر الفنان
امنتحب للمكان عنصر المفاجأة ؟ عنصر الدهشة الجمالية ؟

هل هو درس نفسي أن الضيق بعده الفرج ؟

والمر الضيق الصاعد ببطء في المعابد المصرية لون من الأدب
المعماري ..

انه تحضير للدخول ، وتحضير للنفس ، وتحضير للصمت ، يفتح
بعدها المكان قلبه وجناحيه .

وينشرح الصدر .

وكان الزائر سلم .

...

ان الهندسة المجردة Geometry قياس الأرض . ولكن الهندسة
المصرية ، أكبر تجربة لتحقيق القيمة ، حين ترتفع الى صفاء النفس .
الهندسة المصرية عليها غلالة شفاقة من مشاعر القدسية والرفه
الذي هو أناقة حضارية . عمارتها تتحول الى بستان .

ان عاصمتها بمعناها الكبير الجامع أي (منف + عين شمس +
الفسطاط + القطائع + القاهرة) أحظى عواصم العالم معماريا
بأهراماتها ومعابدها وكنايسها ومساجدها وفنونها التشكيلية .

...

نعود مرة أخرى الى السؤال التقليدي .

هل الهرم رمز السخرة ؟

أنا أراه رمز مصر وحضارتها بفنونها وعلومها ومعتقداتها في البعث
والخلود ، الخلود الذي يقف الهرم شاهدا عليه بشموخه الثابت ،
وثباته الشامخ حين يتغير في العالم كله : الزمان والمكان والناس .

مصر والغزاة

حيث يوجد الكنز ، يكثر اللصوص .
قالوا ان مصر تعاقب عليها لغزاة . وقصدوا بهذا أن يرموا
الشعب المصرى بالاستكانة والخضوع ، بل حاول الاستعمار تعميق هذا
المعنى في نفس الشعب حتى يستسلم لقدره فيه .

قضية او نظرية آن الأوان لكي نناقشها .

ان موقع مصر الجغرافى وخصوبة تربتها فرضا على المصريين أن
يدفعوا عنها في غير انقطاع الهجمات التى تأتياها من الشرق والغرب من
أولئك الذين تدفعهم قسوة الحياة في بئنائهم الأصلية أو أولئك المغامرين
الذين يحلمون بالمجد .

ولكن الزراعة علمت المصرى الثبات كالجنود ولهذا لا تثيره كثيرا
العواصف . كل العواصف تزول ويظل هو الباقي . ان غزاه في نظره
برابرة همجيون أو بداءة « محرومون » . وهو اللفظ الذى أطلقته مصر
على الهكسوس على الرغم من انتصارهم واستيلائهم على الدلتا . وهى
صفة توحى باعتزاز النفس المصرية بدائها المعنوية والمادية . . بدائها
الحضارية حتى ولو غلبت سياسيا .

لم يضع هدرا ، النضج الحضارى الذى استقر في اعماق الانسان
المصرى ، والذى كثيرا ما يكون قد قر تحت قشرة متواضعة أو خشنة
أو فقيرة ، ولكن المصرى المتواضع أو الفقير يعرف (الاصول) و (العيب) .
يقول الدكتور زكى نجيب محمود :

(كان من المستحيل على المصرى أن يجتاز هذه الحضارات التى
يكمل بعضها بعضا دون أن يمتص حقيقتها . . ومن بين ذلك الرقيق ان

يفرق بين ما هو عابر وما هو دائم ... ومن هنا جاءت صفة الصبر
عنده .. وجاءت صفة السكينة والهدوء التي يقابل بها الأحداث عادة
لأنه موفق أن المستقبل له آخر الأمر) ...

ان الغزاة في القديم غزوا مصر بعد ان نعمت طويلا بالحرية والرخاء
والفن . والأمم كالأفراد يضعفها الترف . وكل أمة يتعاورها المجد
والاضمحلال ... لم توجد الأمة التي أطرد مستواها على وتيرة واحدة
... وتلك الأيام نداولها بين الناس .

ثم ان النصر في الحرب لا يدل على افضلية مطلقة ... هل تزن
اسبطة في التاريخ وزن اثينا وهي التي قهرتها وحكمتها ؟ أين اسبطة
من اثينا في القديم والحديث ؟ .

ان الذي القى القنبلة على هيروشيما كان يعمل لحساب رئيسه
في أمريكا ، فلا يدل هذا على أن القائد الأمريكي أكفا من القائد الياباني .

هذا حين لا تصلح الفاندية بدون غاندى .

ان الفكرة اخلد من العصا .

ان فرنسا هي الأوبرا وفولتير وروسو ... وانجلترا هي بيكون
وشكسبير .

الأمم بالروس لا بالعضلات .

ويوم يسود الفكر سيبتل عمل الجيوش . ان الذي أنهى حرب
فيتنام ان وجد بين المجندين الأمريكيين من يقول لماذا ؟ (ليه ؟) .

والذي أنهى استعمار فرنسا للجزائر ان قالت فرقة فرنسية أمرت
بالسير الى الجزائر لماذا ؟ (ليه؟) .

مثل هذه الاصوات تفيق الطفافة ..

لقد قتلت القوة الفاشمة ارشيميدس بخبطة عصا .. وكذلك
العالم الفرنسى « لافوازيه » فى لهيب الثورة الفرنسية ...

ان العالم القديم كان اشبه بموجات تغلو دولة موجة ،
وتمتد ثم تهبط وتنحصر لتأنى وراءها موجة أخرى . وهكذا بدأت مصر
العرض .

وهى فى جميع الاحوال لم يغب الأضواء عن قسماتها ابدا . لما جاء

الاسلام كان يحمل معنى ونظرية « الأمة الواحدة » (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . فكل وال مسلم غلب اسلامه جنسيته ، فلم تحس مصر الغربية خاصة بعد اعتناقها الاسلام ثم تحمسها له وهبتها للدفاع عنه ووقفها معه وتمكينها له .

وعبدوا على مصر قائمة من أسماء الحكام ... ان ابن طولون والأخشيذ والعز وصلاح الدين كل هؤلاء اتخذوها منطلقا وحكموا منها ، وبها قبل ان يحكموها .

حكموا باسم مصر وتوسعوا في الفتح بطاقات مصر واسسوا الدول يظاهرهم موقع مصر وثرواتها وقدراتها الكثيرة مما لم يتوفر لهم في بلادهم الاصلية وبين اقوامهم ... انها عبقرية المكان أو روح المكان بما وهبه من امتياز الموقع وشخصية الحضور فان الوجود في مصر شيء في ذاته يمنح صاحبه من طاقة القدرة ما لم يمنحه حتى في بلده الاصيل . والمثل عندى صلاح الدين ونور الدين فليس الاول بخيرهما ولكنه الأسعد حظا بوقفة مصر معه .. تعرف هذا مصر فضلا عن اعتبار الدين واللغة . ولهذا عندما جاء الأجنبي الحقيقي نابليون لم تطلقه فلم ينصرم على وجوده التلق بها ثلاث سنوات حتى كانت أجلته جلاء تاما من ترابها . وليست مصر بدما في هذا فقد استطاعت البابوية ان تحكم اودبا على الرغم من الحدود قرونا بتأثير الفكرة الدينية .

الم يدافع زعماء منا متطرفون في وطنيتهم متحمسون في حبهم لمصر من السلطان التركي باعتباره الخليفة وأمير المؤمنين ؟ ...

من يدري لعل كثيرين نظروا الى سليم الأول على انه المنقذ من المماليك ! أو الرمضاء .

وفي تاريخنا ترسم علامة استفهام كبيرة :

كيف تسقط مصر بنفسها الوالى التركى « خورشيد » ثم تنصب (محمد على) لا (عمر مكرم) !!

اقول :

ان الموقف هنا كان يتطلب معرفة القوى الموجودة في الساحة ووزنها بميزان دقيق . كما يتطلب مهارة في اللعب بها ، ومعها . وقد عرف التاجر المقدونى من أين تؤكل الكتف كما يقولون . ولم يكن علم هذا عند عمر مكرم ، مع انه تاجر أيضا ولكنه ابن بلد طيب .

يضاف الى هذا بهرنا التقليدى بالغريب .. ويضاف اليه
حلمنا الدائم بالخلص فيشبه لنا - بفتح الباء - .

وحين يحدث في تاريخنا ، افراج مفاجيء ، كان نتجج في خلع
الطافية أو الوالى التركى مثلا ، يحدث هذا الافراج عندنا ، دهشة
قومية تصيبنا بالندفاع عاطفية نحو ما نسميه عادة ، المخلص . وفي
هذه الاندفاع ، يندفع بدورهم ، هوة ظهر الوجه ، الى السلطة .

وليكن ... ان هناك اناسا عندهم استعداد للحكم ... هل معاوية
في التاريخ خير من على ؟ ان اصحاب القيم عادة لا يصلحون للعصا .

وقبل محمد على ، كانت مصر تدفع ثمن المالك من مالها ثم تنظر
اليهم وهم يعتلون الكرسي .. دون أن تعير هذا الذى يحدث واصحابه،
التفاتا ... حين تلتف حول رجل الدين المعتر بنفسه ، العزيز بايمانه،
وتسميه (سلطان العارفين) .. **هنا هو السلطان الحقيقى في عين**
مصر . فعلت هذا مع (ابن الفارض) سلطان العاشقين ، وفعلت مع
الحسين أبى على وهو السلطان أبو العلا (سلطان العارفين) صاحب
المسجد العروف في بولاق . ان السلطنة للمعرفة في تقدير مصر .

ان الشعب المصرى يعرف أنه على مسار تاريخه كله هو الحاكم
الحقيقى من خلال علمائه وعظائه .. من خلال سخطه ورضاه على
السواء .

بل ليكن الحاكم من يكون فسد أم صلح ما دام لا يتعرض للأرض
أو العرض أو الرزق . أما اذا مس أحد هؤلاء فان مصر تتمرد عليه
كأقصى ما تكون أمة كما يقول الاستاذ العقاد في كتابه عن سعد زقلول .

وليكن هناك ناس عندهم استعداد أو موهبة الحكم . هل معاوية
في التاريخ خير من على ؟ ان اصحاب القيم عادة لا يصلحون لحمل
العصا . لقد رفض كثير من القضاة ، القضاء والولاية ومنهم رجلنا
الليث بن سعد . لقد عرض عليه حكم مصر فرفض كما رفض القضاء
ولكن السلطان والقاضى كان كل منهما يفشى لى نوابه وسوائجه مجلس
الليث التماسا للرأى أو التأييد فان استحقه جاد عليه به امام مصر
وفقيها . واذا انكر رجلنا الليث من السلطان أو القاضى امرا كتب
الى الخليفة فما يلبث أن يأتى الحاكم ، العزل !

لقد كان الليث ينهى عن مدح السلاطين وقد تكفل بمنصور ابن عمار حتى لا يقف بباب السلطان ويمدحه رغبة أو رهبة .

ان استمرار مصر في صناعة الحضارة كان فيه رضى لنفسها . فالخلق والابتداع والتفنن هواها وهوايتها منذ القدم . . اما الحكم فلم يكن يهمها منه كما قلت الا العدل فيها والتعفف من اموالها او عدم الجشع والسطو . كان الحكم في نظرها مهما بلغ وظيفه ادارية لا فن فيها حتى لتسميه في سخرية لا تخفى (القسطنطين والربط) .

من أجل هذا كله زهد المصريون في الحكم واعتزوا بالسلطات الحقيقية : السلطة الروحية او السلطة الأدبية والفنية .

ان السلطان الحقيقي في عين مصر هو الفنان الذى لا سلطان لأحد عليه ولو كان من أهل الحرف .

ان الواحد من هؤلاء اليدويين (معلم) ، ولعلميته أصول وتقاليده وله احترام خاص وسمت معين ، وحين نتج سليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين وحملهم معه الى القسطنطينية . ودلالة هذا بهر الغالب بفن مصر بهرا يسيل لعبابه حتى ليعجز عن مقاومته . . . ولم يؤثر عن سليم انه أخذ فنانين وصناعا من مكان آخر في الشرق كله .

اعتبار آخر . . . ان المصرى حريص على ما يملك . . يبقى ويصون . الخبز في مصر دون سائر البلاد (نعمة) و (عيش) . والمصرى لا يرمى لثمة . . . واذا وقعت منه على الأرض ينحنى يلتقطها ويرفعها في محاذاة عينيه ثم يقبلها . . . الماء نعمة والأرض نعمة النعم . . والمصرى لا يبهذل النعمة . ولهذا يفكر ألف مرة في (كيفية) رد العدوان عليه . . . ان الروسى يحرق الأرض بعد ان ينسحب منها حتى لا ينتفع بها الغير . ولكن المصرى في الغزوات التى ابتلى بها كلها لم يفكر مرة واحدة في حرق الأرض . . . كيف ؟ انه يعيشها . . لا يهون عليه حرقها . . . السلب أهون ولو انه أحلى المرين . انه واثق انه سيجمع أمره ويستردها . . . ومآلها اليه وحده فلا يشوه نصره الماويل باضرار المحبوب .

والمصرى لا يقامر . . حين طلبنا وقف القتال سنة ١٩٦٧ الحزينة كان هم مثقفينا ، القاهرة . . الخوف على كنوز التاريخ فيها ، كما أعلن الفرنسيون ، باريس مدينة مفتوحة .

لكل شعب طريقته في المقاومة وفلسفته .. الشعب المصرى كان ينظر الى الحاكمين نظرة الشاعر فى اعماقه بقيمته وحضارته وتراثه ووراثاته الى البرابرة الذين لا يملكون الا العضلات . فكان همه كله أن يحافظ على ذاتيته .. على قيمته وحضارته وتراثه ووراثاته باتقاء شرهم أو اعتزالهم لا سيما اذا اتقوا ظلمه ...

والمصرى دعونا نقولها واضحة وصريحة .. **المصرى حكاهم لم لم ينصفوه** فالحكم مفسدة للقريب والغريب .. لعل المصرى عند الغزو قال فى نفسه : أيموت دفاعا عن كرسى هؤلاء ؟ من يدري لعل هذا منبع حكمته التى تقول (ما يموت على السد الا قليل الفلاحة) .

ما دام الشعب المصرى لا يفهم من الحكم مغنما حقيقيا فليتصارع على الحكم المتصارعون أبا كانوا ، ولیمكف هو على عمله الذى يحبه ويحقق ذاته فيه .. ان حكمته واقعية لا نظرية وكم فى أعماق البسطاء من حكم ...

فلسفة الشعب المصرى أن يتوقع على نفسه النفيسة ويصيح من دموه فى محاربه او عزله ، **لؤلؤة** .. فنا وصناعة وطرفا .. يتوارث مهارتها خالفا من سالف ويعتز بمعطياته فى هذا المجال فيجعل كما اشرت لكل (صناعة) حيا ومعلما .

ان الذى أمسك علينا شخصيتنا بعد سنة ١٩٦٧ أننا لم نعتبرها هزيمة أمة .. ولو فعلنا لانسحقنا . ولكننا فسلنا عازها بعد ست سنوات هى فى عمر الأمم لحظة أو بعض ساعة ...

لاكانت سنة ١٩٦٧ ... لقد جرحت الهزيمة حتى البسمات وسنابل القمح ، ورقة الياسمين .. جرحت السنين فى شيفوخة الآباء ، وجرحت نضارة الطفولة فى الأبناء ... جرحت السرور فى القلب والكبرياء .. جرحت الثقة والقدرة والآباء .. جرحت الليالى ... ليالى القاهرة فلم تعد عذبة ولم تعد فائنة ساحرة ... وبكى الفجر فى الحقول حتى بلل الصبر ، وثشابهت الأيام فلم يدر بهسا العمر ...

ومع هذا لم تعرف مصر ولم يعرف تاريخها حائط المبكى .. كانت مصر فى الأعوام الستة تلمم جراحها وتجمع نفسها ، وتستوعب خصائصها فى عملية تحضير للعب الدور الجديد الذى بدأ بالعبور .

أين الغزاة ؟

ان مصر لا تموت ..

مصر هذه ذات الحضارة كانت شخصيتها من القوة ، حتى في عصور الضعف السياسي بالدرجة التي فرضت تأثيرها على الآخرين فامتد هذا التأثير جنوبا الى النوبة وأوغندا وإثيوبيا سواء في اللغة أو الدين أو الحضارة ، وشمالا الى فينيقية التي كانت تعيش على تقليد مصر تنقل هذا التقليد الى شعوب البحر الأبيض شرقه وغربه .. مع التجارة .

لقد تهافت الاغريق على البلاط الفارسي ، ولكنهم لم يتمكنوا من فرض فنههم على الفرس ولكن مصر وهى في نكستها السياسية استطاعت ان تفرض على الغالب منها وطبها وتنجمها ، ففي اطلال اصطخر Persepilés الدليل القاطع على هذا القول ففيها استخدمت اشكال العبارة المصرية وهناصرها . وفي مصر شيد (دارا) اثرا منقوشا باللغتين (المصرية والفارسية) يظهر فيه فن فارسي ذو مسحة مصرية ، جنبها الى مع الأسلوب المصرى القديم .

ومصر في عهد الصاوى هى التى احتضنت الفن الكلاسيكى الاغريقى في مهده ..

وان اقدم التماثيل الاغريقية لتدين لمصر دينا واضحا تؤيده الروايات الاغريقية نفسها .

وفي كل عصر كانت مصر دائما كما يقول الدكتور مؤنس ، منبع الحضارة الاغريقية ومصدرها فما اتصل بمصر من بلادها تحضر في مدارج الرقى ، وما لم يتصل بها بقى في مكانه .. فان أهل روديسيا مثلا يعيشون في ظروف مناخية ومعاشية تشبه ظروف السودان الشمالى ، بل ان بلادهم أغنى وأوفر خيرات وصلتهم بالهولنديين والانجليز ليست بأقصر مدى من صلات أهل السودان بمصر ومع ذلك فإن روديسيا من السودان .. أين بلد ما زال في عداد المستعمرات، يجرى فيه الناس على الفطرة ويستغلهم الأوربى كيف شاء من بلد يقف الآن على قدميه ويجرى فى ميدان الحضارة أشواط ما كانت تخطر على البال .

فإذا لم يكن هذا أثر مصر فائز من يكون ؟

وإذا كان بعض المصريين ابان الحكم البطلمى ، في محاولة ارتقاء طبقي أو صراع طبقي قد تأغرقوا سطوحيا فاصطنعوا الاسماء الاغريقية

واتخذوا الملابس الاغريقية وتكلموا اللغة الاغريقية ، فان الافريق ايضا قد تأقلموا وتمصروا بالقدر نفسه ، فتعلموا اللغة المصرية وعبدوا الالهة المصرية ، بل اتخذوا اسماء مصرية وعادت مصرية .

ولا ينال من شخص مصر او شخصيتها اخدها بمطلق الاحداث ... لقد تكلمت مصر العربية لأن الاسلام كان ينطلق في المنطقة من (كلية) معينة ... كان (وحدة) تريد أن تأخذ دورها في المنطقة . . وفي .. التاريخ ومصر قلب هذه المنطقة بلا ادعاء او تواضع . . . قلب المنطقة في العصور القديمة ، وفي المسيحية . . . وما كان للقلب أن يغير مكانه في الاسلام ... لقد اخذت مصر دورا منذ عهد عثمان . . . ومن لا يغيب عن المسرح لابد أن يتكلم لغة الرأية التي تدور على خشبته .

لقد تمسكت فارس بلفتها بعد الاسلام وما ذلك الا لأنها بموقعها بعيدة عن الاحداث وعن العيون الا ان تكون مصدر فتنة او مؤامرة . ولكن مصر الاسلامية كانت القلب الرائع والناض للطاق الذي يمتد جناحاه من جنوب الصين الى جنوب اسبانيا .

وهذه (الكلية) في الحضارات نادى بها اخيرا في العصر الحديث « سبطس » . . . فمصر حين تكلمت العربية لم يحدث فيها (انقطاعية) في حضارتها كما يقول الاستاذ الدكتور جمال حمدان في كتابه العظيم (شخصية مصر) مؤيدا رأى توينبى في المصريين المحدثين ومقاييرتهم للقدماء .

ان لغة الحروف ليست كل الصلة بالماضى .

هناك لغة التشكيل التي امتدت عبر العصور موحدة الأسلوب والنض والأداء في المعبد والكنيسة والمسجد . . في النقش والحفر والنسيج والنجارة . بل في عادات ونظام الحياة .

ليس هذا كله امتدادا واستمرارا ؟

على أن مصر كانت تنظر الى اللغة باعتبارها أداة فقط . وفي العصر اليوناني الروماني حين كانت اللغة اليونانية لغة عالمية ، في ذلك الوقت ألف علماء مصر باليونانية حتى ادخلهم البعض بعد هذا في تراث اليونان العلمي . ألف علماؤنا باليونانية دون غشاة كما يؤلف المثقفون اليوم بالألمانية والانجليزية حين يريدون تعريف الهيئات العلمية المعنية بموضوعهم ، وجهة نظرهم او عطاء جهدهم في هذا الميدان .

هذا حين كانت تحرص مصر على العادات والتقاليد وأسلوب العيش والعقائد . وحين لا يصددها أحد في هذه المقدسات فهو من فضيها بمنجاة .

يقول الأستاذ العقاد في كتابه سعد زغلول : (انما هي أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل وأصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من غيرها على المال والثروة ، ثم هي أمة ذات أرواق مطردة ومعيشة مستقلة لا يعنيها صلاح الحاكم كما يعنيها صلاح الأرض . . والسماء والعوارض والأجواء فإذا دعاها الحاكم الى حرب لا تعنيها فذلك شأنه وليس بشأنها وتلك خسارته وليست بخسارتها أما اذا أصيبت في عقائدها وموروثاتها أو ظهر لها الجور على أرواقها ومرافقها فهنا يستعصى قيادها كاشد ما يستعصى قيادة أمة) .

ثم هناك عامل اجتماعي سياسي وهو تعريب الدواوين في أواخر القرن الأول الهجري مما اضطر الموظفين الأقباط الى تعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم وتبع هؤلاء أهلهم ومن يعيشون في كنفهم .

وتشير بعض الكتب الى أن بعض الأقباط - في العصور المتأخر - درس في الأزهر تحت اسم معدل . وسواء اصح هذا ام لم يصح فان دلالاته تشهد برغبة الأقباط في التكيف الكامل للاسهام في الحياة المصرية الجديدة تفاديا للتخلف .

هذا فضلا عن الثنائية اللغوية التي كانت موجودة في مصر . فقد كان الصراع بين المذاهب الدينية يقابله صراع آخر بين القبطية والارثوذكسية يكافح فيها الأنبا شنودة (١) كفاحا مستميتا من أجل القبطية .

وسط هذه البلبلة لم تكن مهمة اللغة العربية أو أى لغة حاكمة بله دينية صعبة في أن تتسيد الموقف - ولو في ونا وبطء - على الرغم من حركة تكيف موظفي الديوان من الأقباط مما سبقت الانتصار اليه - كما حدث في مصر ، والمغرب ، والاندلس وان كانت في مصر

(١) كان زعيما شعبيا تزعم حركة معارضة اللغة اليونانية في مصر : فكان يكلم القبط بلغتهم القبطية لا باليونانية لغة الحكام . ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب القبطي وقد تخلف عن جهاده الديني واللغوي تراث باللهجة الصعيدية التي كان يؤثرها . وعلى يد هزمت اللغة القبطية ، اللغة اليونانية وتراجعت الأخيرة حتى أن العرب عندما فتحوا مصر كانت اللهجة الصعيدية هي لغة الأدب القبطي عامة .

بمقاومتها. الظاهرة والخفية ، أبداً انتشارا كما شهد بذلك العرب أنفسهم في كتاب (القضاة والولاة) ويؤيد هذا ما رواه الطبري في حوادث سنة ٢٠ هـ .

قد يقال أن (فارس) حافظت على لغتها ولكن فارس لم تتعرض للضغط الذي تعرضت له مصر التي كان كل وال همه أن يستقل بها حتى لقد نقل المعز رفات آبائه في طريقة إليها قبل أن يراها مما يكشف عزم الاستيطان عنده لما عرف عنها من طاقات المكان والانسان هذا حين لم يتهافت العرب على فارس بدليل أن الدعوة ضدهم وأن تمسحت بالعباسيين ، استطاعت أن تنمو فيها ، بل أن النوبة التي لا تبلغ شأو فارس في ماضي السلطان استطاعت أن تحتفظ بلغتها لعامل البعد ، أيضا ، عن دائرة الاهتمام .

لقد سعى عمرو بن العاص بدالة النسبة الى قريش ان يقصى الامويين عن الخلافة ليستحوذ عليها فلما اُتِىَ بالنسب لرجحان بنى أمية على بنى سهم في العصبية القرشية قال قوله الماثور عنه :
(ان ولاية مصر جامعة تعمل الخلافة) .

على ان بعض العرب تعلموا القبطية ، بل تخاطبوا بها كالقاضي خير بن نعيم . وقصص فهم العرب للقبطية متعددة كقصّة ابن حديج وقصة محاكمة البطريق يوسف سنة ٨٥٠ م . يقول د . هول :
(ولم يكن في الامكان احداث مثل هذه الانقلابات في العصور القديمة بمصر) .

يقصد عصور القوة ولكن ماذا يصنع الشعب وقد وجد نفسه بعضه يتكلم اللغة الجديدة (العربية) وبعضه يتكلم القبطية . لقد رأى أن الحل - العملي - هو في التقارب والتجانس حتى لا يفقد وحدته . والوحدة خط عريض من خطوط الشخصية المصرية في فنها وأسلوبها في الحياة ونظامها في الحكم ونزوعها في العادات والتقاليد .

ولما كانت اللغة العربية في ذلك الوقت - بعد بضعة قرون من الفتح - قد دخلت الدواوين والمدارس كما دخلت الكثير من البيوت فقد أخذ الباقون يتعلمونها مع محاولة المجموع صبغها بالصبغة المصرية كالعادة .

ان كثيرا من الالفاظ في اللغة العامية المصرية واسماء المدن الفاظ قبطية . وكان بعضها قد اختلفت تسعة قرون بفعل اليونان الذين وضعوا

لها أسماء يونانية وكان اختفائها البيات الشتوى الذى تلجأ اليه مصر حتى تستجمع قوتها فتنتفض من جديد . ان مصر لا تستسلم أبداً وان طال المدى .. ان ذاتها لا تبلى . ان طريقها لا تمحى . قد تتناسخ ولكنها لا تنسخ .

وليس الالفاظ فحسب ، بل أيضا طرائق التعبير والمصطلحات وتركيب الجمل ، فالنقى والاستفهام فى العامية يجرى على أسلوب اللغة القبطية فهما . كما يطابق نطق بعض الحروف العربية نفسها ، نطقها فى القبطية ، وكذلك الحركات .

وما زالت العامية المصرية التى هى لغة الشعب .. لغة الكثرة .. لغة الحياة اليومية فيها الكثير من اللغة المصرية القديمة واللغة القبطية التى عاصرت دخول اللغة العربية والى هى امتداد اللغة الهيروغليفيه . وعامية مصر هى أعذب العاميات فى الأقطار العربية وأسهلها فى الفهم وأصحها أيضا ، وأيسرها وأكثرها شهرة بما ذاع من غناء مصر وأذاعتها وفنونها فى السينما والمسرح .

هذه هى مصر وليسست كما يقول رينان فيما رواه الدكتور حسين فوزى ، فى حديث له عن أحياء البحر الأحمر والبحر الأبيض ، ومضمونه ان مصر حينما يتعين عليها أن تلعب دورا يتصل بالنفع الانسانى العام تكون الضحية الدائمة ... حيادها لنفع غيرها والروح الوطنى مقضى عليه فيها وسوف تحكم مصر بمجموعة دول متحضرة وبلاستغلال العلمى المنظم للعالم سوف توجه الانظار الطموح الى وادى النيل !!

لا رد لنا على رينان فالعالم مملوء بمقول رينانية . كان الفزائى يقول : ان القلم على رومته ، أروع منه اليد التى تمسك به ... وأروع منه الشخص المحرك الذى يملأ عليه ... وانطلاقا من هذا المنطلق الحكيم للامام ، نقول ان أروع ما شيدته مصر : « الشخصية المصرية » . التى استوعبت الغزو امتصته .. أو دحرته . استعلت عليه فى الحالين . وفى كل مرة تمضى فى رسالتها من جديد ...

ومن هنا يجب ان تكون دمايتنا فى الوقت نفسه دعوة لا قضية ... ان من يكتفى بإعلان انه مظلوم ، متمسول أنصاف لكن قيمتنا فى استيعاب قيمتنا الحضارية .. فى فهم دورنا المعطاء .. وكنهه المعطاء الجديد الذى سيضيفه .

واستيعاب الماضي تحضير للعب الدور الجديد في عملية صعود الى
المرح ثانية استيعاب الماضي بوصلة قومية ترشد بها الخطى
وتعصمها من الضلال ...

لقد دانت مصر بالاسلام وتكلمت العربية وهى نقطة تحول مست
القلب واللسان ولكنها لم تمس الحياة المصرية اليومية بمواضعاتها
وتقاليدها .. لم تمس صميم الجنس المصرى فان الاختلاط ، والتزاوج
والانصهار كان نقطة في محيط .. واذا تدخل مصر في الاسلام تعمل
الشخصية المصرية عملها فاذا بمصر تصبح مع الزمن دون سائر البلاد
الاسلامية بما فيها الحجاز مهد الاسلام ومهبط الوحى ، قاعدة القوة
الاسلامية قاعدة انطلاق الاسلام وامتداداته واذا بمصر تحمل عبء
حماية الاسلام والخلافة والثقافة العربية .. بما فيها من وراثات
حضارية تدفعها ولو تلقاها الى المحافظة على التراث فحين سقط
المشعل من يد اثينا واسيرطة رفعته مصر وحين وهنت بغداد انتقل
مركز الثقل الى مصر ، بل كانت مصر تنافسها حتى في زهو عزها
ان اكثر من نصف المخطوطات العربية في مصر وحدها والباقي موزع
على بقية العالم الاسلامى شرقا وغربا وهذا الاخير لم تبعه مصر ولكن
غيرها تاجر فيه وقبض الالوف بما تشهد به مقدمات فهارس المخطوطات
في مكتبات اوروبا وأمريكا . لقد انقلدت مصر الاسلام في الصواري
وحطين وعين جالوت من مواقعه الحاسمة ثم راحت تجمع ما نجا من
تراثه من التتار وصانته ثم آوى الاسلام منها الى مرفا أمين مرة رابعة
عندما انحصر عن الأندلس والمغرب امام المد المسيحى .

ولقد ضاع الكثير من معالم تراث حضارة الاسلام من معظم البلاد
الاسلامية الا مصر التى احتفظت بجانب كبير من هذا التراث الثمين ،
بل ان ما احتفظت به ينفرد بمزية ذات قيمة تاريخية اذ تكون الآثار
الاسلامية بمصر (سلسلة متماسكة الحلقات تنتظم العصور المختلفة
للحضارة الاسلامية) .

وحفظ مصر للتراث الاسلامى له دلالة معنوية حضارية فلم تكن
لنحتفظ به لولا شعورها الاصيل بالتراث وبالقيم الفنية لسابقتها في
الحضارة وطول ممارستها لها . لهذا سبقت مصر البلاد الاسلامية في
الكشف عن التراث الاسلامى وتجليته وصيانتة بالتقوية والاستكمال
حتى يبدو كما تركه صانعه المصريون ، مسلمين واقباطا في العصور
الوسطى ..

بقيت الحياة اليومية المصرية كما هي الى يومنا هذا بعداتها في الميلاد والأعياد والوفاة . ان عادة تلفين الميت ما يقوله ، وسعف النخيل - المسيحية حد السعف - والمسلمون يحملونه الى قبور موتاهم . والاربعين والاربعين . . كلها عادات مصرية مازلت نمارسها الى اليوم مسلمين ومسيحيين ولا وجود لها في غير مصر .

والبصل قرب انف المريض في بداية الربيع وعندما يولد الطفل وهكذا نفعل نحن في شم النسيم وعند الميلاد . ويبدو أن اليونان أخذوا من مصر البصل فيما أخذوا حتى أوصى سقراط بأكله في إحدى الحفلات .

وليلة النقطة : هي الليلة التي تنزل فيها دمعة ايزيس في النيل فيفيض النهر من الدمع المسكوب .

وكعك العيد المستدير المنقوش بطريقته المبهودة هو نفسه الكعك الذي كان يقدم قربانا لايزيس في هيلدها وكانه قرص الشمس الذي اخذته اختاتون شعارا .

والام المصرية في الريف ، بل والمدن حين يقع ابنها على الارض فتقول - اسم الله على اختك قبلك - توددا الى - القرينة - حتى لا يصاب ابنها بسوء امتداد لاعتقاد المصريين بأن لكل انسان قرينا . . وعمل عروسة وتخريجهما بالبابايس لتفقا عين الحاسد .

وفي الصعيد من مناداة التحبيب للصغير قول الوالدات تعال يا (با) و (الب) بلغة قدماء المصريين هي (الروح) كما وردت في النصوص الدينية وفي نصائح بتاح حتب .

وعلم ايداء الحيوانات وخاصة القطط ليلا هو امتداد لايمانهم بالتقمص والتناسخ .

وليلة الحناء والصباحية والنقود والسبوع .

مارست مصر هذا كله وتمارسه لازل في حضرة الاديان السماوية بقدرة شخصيتها على الامتداد والاستمرار .

ولعل بلدا من بلاد الارض كما يقول الدكتور حسين مؤنس لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فان مصر المكتملة المتحضرة قامت منذ خمسة الاف سنة وما زالت هي بعينها اليوم ، لم يتغير فيها الدين طول هذه الاحقاب الا مرتين ولم تتغير فيها اللغة الا مرتين ايضا ، على حين أن بريطانيا مثلا لا يرجع تاريخها الى ابعد من الف سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع

مرات على الأقل ، واسبانيا يرجع تاريخها الى الفين وخمسائة
سنة تغير الدين خلالها ثماني مرات واللفة ست مرات . اما
جنسنا فلم يتغير في جملته خلال هذه الأعصر **التغيرات طفيفة في حين**
ان بلدا كإيطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان
تغييرا تاما أكثر من مرة ..

يقول بترى في كتابه (الحياة الاجتماعية في مصر القديمة) عن
الشعب المصري : (شعب مجد قوى ، يعتوره الضعف كل بضع
مئات من السنين ، سنة الله في خلقه ، فتعرض بلاده للغزاة من الجنوب
ومن الغرب ومن الشرق ، فيتعرض لمؤثرات مختلفة ولكنه على الرغم
منها ظل يحتفظ بطابعه وصفاته القومية ، وشخصيته الواضحة
العالم .

وخلاصة القول ان المناقب العالية ، والصفات الحميدة التي
وهبها الله لهذا الشعب المجيد ، وكذلك ثبات دعائم حياته ،
واستمرارها ووفرة الكنوز التي تدل على امجاده التاريخية .. كل ذلك
خليق بأن يجعل منه أهم وأعظم مجتمع انساني جدير بالبحث والدراسة
سواء اكان ذلك من الناحية الاجتماعية او السياسية او من ناحية
الاختراعات والابتداعات التي قام بها .. فاقبستها العالم المعاصر،
وعبرت اشراقاتها البحار والمحيطات الى العالم الجديد ا)

يقول آربري A. J. Arberry (ان مصر تقوم من وسط العالم
الاسلامى فى الصميق ومن ثم كانت لها **صلاحية الدور القيادى فى**
الحركات الاسلامية بما هى مهياة له .. تماما كما فعلت فى العصور
الافريقية والمسيحية اذ كانت بمثابة مستودع تلقى فيه افكار وثقافات
الشرق والغرب وحتى اليوم يعجب المرء من أن مصر لا تزال تمثل هذا
الدور . تقدم الغرب الى الشرق الاسلامى ، وتقرب بنفس القدر
والاهمية الشرق الاسلامى الى الغرب .. كان هذا ولا يزال عمل مصر
الأرنع وفى هذا العمل لعبت مصر دورا لا ينكسر ولا يجحد فى مقدرات
الاسلام) .

يقول العالم الاثرى الاستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه « طرز
العمارة الاسلامية فى ريف مصر » :

(ولقد ادت مجموعة المساجد المبعثرة فى انحاء الريف رسالتها
الثقافية بجانب الازهر وغيره من المدارس وذلك فى مساجدها الجامعة

ثم في مدارسها التي انتشرت في ربوعه وخاصة في الصعيد ، وقد كان عامرا بالمدارس ودور الحديث ، وفيها تلقى العلم وتخرج صفوة من العلماء والشعراء . وكذلك الاسكندرية فقد كانت عامرة بالمساجد والمدارس والربط .

وفي الوقت الذي ارتفعت فيه النجارة في الدولة الفاطمية لارى بينها ما يماثل دقة الحفر في حشوات منبر مسجد الصالح لطلوع بقوص (سنة ٥٥٠ هـ ١١٥٥ م) والدقة والجمال في ظهر جلسة الخطيب به ، فان لها طابعا خاصا انفردت به وفي الوقت نفسه ، فهو منبر فريد تنوعت زخارفه تنوعا غريبا .

ان الدقة والتفرد والتنوع في الفن مهارات مصرية قديمة وهي هنا وفي العصر الذي يتحدث عنه رجلنا الاثرى حسن عبد الوهاب وفي مثل هذه الظروف لون من مقاومة مصر ومصالوة شخصيتها التي تآبى ان تنماع او تنصاع بل تتماصك متميزة تعكف على الفن - وهو وحده الباقي - فتخلد نفسها فيه وتعكس ذاتها في آثاره حين يفرح الدخيل بالحكم زمنا ثم يمضي وتظل مصر هي مصر . هي الباقية .

وليس الفن وحده .. حتى رهبانية آباء الصحراء فيها مفتاح من مفاتيح النفس المصرية من ناحية تعلقها بالمطلق : فالصانع المصري والفلاح المصري ، عملية العكوف على عمل .. على شيء .. وعملية الخلوص الى حقل .. الى زرع .. هذه هي عملية الراهب المصري فهو الآخر « يزرع نفسه » .

على ان هناك نوعا من الحكم تمارسه مصر ، في انتصار ، اiban عصور الضعف السياسي ذلكم ، هو السلطة الروحية . وهذا اللون من السلطة يمثلها الكهنة قديما الدين قاموا بدورهم في المقاومة المصرية حين خلق بطليموس سوتر عبادة سرابيس (أوووريس . أبيس) استرضاء للمصريين واعترافا بقيمتهم العقائدية فلقيت (العبادة الجديدة نجاحا بين الأفارقة ولكن الكهنة المصريين الذين كانوا مسيطرين على هذا الميدان مدى ١٢٠٠ عام رفضوا هذه البلمعة فباءت بفشل سياسي مريع) . كما يقول توينبي .

ويمثل في المسيحية فالاسلام انطونيوس الذي اقام اوربا واقعدها في العصر المسيحي ، وذا النون ، والليث بن سعد ، والبويطي الذي تذكرنا صلابته امام المأمون صلابة سابقة اتصف بها ضحانانا في المسيحية امام طاغية الروم هرقل .. صلابة الصف بها هارمينا

المجايي امام والى الروم بالاسكندرية .. الاصرار نفسه من جانب مصر والمساومة من جانب الطغاة الذين يتهددونها وهم يخافونها في قرارة نفوسهم .

لقد امتحنت مصر في المسيحية .. ثم في الاسلام .. امتحنت في صبرها الصابر .. واصرارها العنيد العنيد الفدائي واحسبه يتعمد الفدائية لاعطاء التاريخ المصرى ذخرا من بطولة يعيش عليها . لقد اكره المأمون هرقل الاسلام ، فقيه مصر البويطى على القول بخلق القرآن فلم يذعن ، ويحمل فى غل الحديد الى بغداد فلم يقر ، ويطرح فى السجن مقيدا الى انصاف ساقيه مغلوله يداه الى منقته ولكنه لا يتطامن ! ويموت على هذه الحال كما مات ضحايا هرقل فى المسيحية لينتظم منهم جميعا مسيحين ومسلمين على تتابع الدينين **موكب الاحرار المصريين** . يرتاد لنا كلما اغطش ليل طريق الحياة الكريمة على ضوء كلمة البويطى وقد حمل فى ائقال الحديد من مصر الى بغداد (لئن ادخلت عليه - يعنى الخليفة - لاصدقته ولأموتن فى حديدى هذا حتى ياتى قوم يعلمون انه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم) .

لم يمت فى عداد الرجال اعلام الانسانية ، البويطى ، ولكن مات المأمون .

ان الحاكم فى كثير من البلاد الأخرى من جنس مغاير ولا يعنى هذا تبعية البلد له بل تبعيته هو لها ولو تبريرا لوجوده .

ان انجلترا عائلاتها المالكة من الخارج تستجلبهم استجلابا حتى ان جورج الأول كان لا يعرف الانجليزية لغة الشعب الذى جىء به ليحكمه . وكان جورج الأول يتجنب حضور جلسات مجلس الوزراء - فقد كان الملك يعتبر رئيس مجلس الوزراء - لهذا السبب . ولما طال تخلفه عن الحضور بحث عن مخرج فاختار من بين الوزراء وزيرا سماه الوزير الأول ينوب عنه فى حضور الجلسات ويكون حلقة الاتصال بين القصر والوزارة . وبهذا « سقط » على الأيام حق الملك فى رئاسة جلسة مجلس الوزراء .

ومن هنا يسمى رئيس الوزراء فى انجلترا : Prime Minister (١) . فمصر لا يحسب عليها اجنبية الحاكم بالصورة الشاملة التى تمس ذاتيتها أو استقلالها الحقيقى .

(١) تستجلب انجلترا الحاكم من دم ملكى محافظة على الاستقلال عليه .. على الدم . الأزرق .

ان ابن طولون والاشيد وكافور والمعز وصلاح الدين هؤلاء حكموا باسم مصر ، وتوسعوا في الفتح بطاقات مصر ، واسسوا الدولة بظاهريهم موقع مصر وثروتها وقدراتها الكثيرة مما لم يتوفر لهم في بلادهم الأصلية وبين اقوامهم . انها عبقرية المكان بما وهبه من امتياز **الموقع وشخصية الحضور** فان الوجود في مصر شيء في ذاته يمنح صاحبه من طاقة القدرة ما لم يمنحه له حتى بلده الاصيل . والمثل عندى صلاح الدين ونور الدين فليس الأول بخيرهما ولكنه الأسعد حظا بوقفة مصر معه .

ان البلد ليس الحاكم فحسب .. بل السماء والأرض والزراعة والصناعة والتجارة والعمارة والفن والعلم والعادات والتقاليد والروح والطابع وهذا كله ظل مصريا خالصا متميزا بل مؤثرا في غيره بقوة شخصية مصر وغلبة طابعها ، حتى سليم الأول افتقر وهو الغالب الى النفائس الحقيقية فانقض عليها في مصر كما ذكرنا ، وحمل الى الاستانة ما استطاع الوصول اليه منها .

ان المقاومة المصرية تكيفها عوامل كثيرة وتقف وراءها اعتبارات شتى ... هناك عامل التغذية : كل دخيل كان ينقض على الخير المصري كبقرة حلوب يعصرها ويستنزفها . والانسان حين يقاوم أحد اثنين اما بالجسم او بالروح . والجسم المصري بعد العصر الفرعوني ضعيف لانه مسلوب الغذاء فكان طبيعيا أن يقاوم بالروح لا سيما وأن وراثاته الروحية ترجع هذا الاختيار .

وتاريخنا يقول أن المقاومة العارمة الساجقة للاعداء كانت مقاومةنا للهكسوس وللفرس أى فى العصور الفرعونية .

ان ثورة ١٩١٩ تقتزن دائما فى بين المؤرخ بالرواج المادى عقب الحرب العالمية الاولى ان الوفور لا يقبل الضيم ... والوفرة ثقة وطموح

حتى اذا جاء اليونان توددوا الى مصر منذ اللحظة الاولى حتى ان اعداء الاسكندر كانوا يعيرونه فيما يحسبون بانه ابن امون كما يدعو نفسه . والحضارة الهلينية التى استحدثها اليونان فى مصر هى حضارة مستمدة من الحضارة الفرعونية او هى انعكاس لها حتى الدين قام على عقيدة مصر فى اوزوريس ، ثم ان اليونان اختاروا الاسكندرية وهو عين ما يطلبه الشعب المصرى من بعد الحاكم عنه فلم يجد حافزا

ملحاً لمقاومتهم . وهناك رأى يلوح البيئة الجغرافية فيقول : ان جغرافية مصر جعلتها كالزجاجة والقاهرة منقها فمن يستولى على القاهرة يمسك بعنق الزجاجة ويتحكم في مقاومة الاضطراب داخلها . فاذا راعينا بدائية المواصلات في تلك العصور قدرنا تعدد الاتصال وانتقال الاخبار . فالشعب في الريف والصعيد والمدن الصغيرة لا تصل اليه اخبار الحاكم فان وصلت ، تكون قد فقدت عنصر الجدية والاثارة .

أين الأمن من اليوم فأخبار القاهرة تسمعها اسوان في الراديو معها في الوقت نفسه لهذا لم يكن غريباً أن يكون الحاكم في واد ، وسواد الشعب في واد .

ان العصور التي توارت فيها المقاومة واعنى المقاومة السياسية هي العصور التي اقترن فيها السلطان الزمنى بالسلطان الدينى . فالعرب سهل مهمتهم اقتران الفتح العربى بالاسلام واقتران اللغة العربية بالقرآن . ومع هذا قامت الثورات ضدهم ، وقصة المأمون مع مصر معروفة . حتى الترك بغوا وطفوا وتجبروا فكانت غضبيات الشعب تتكسر على صخرة الدين واقتران الخلافة فى الأذهان بالاسلام حتى ذهب قوم منا بأن الخروج على الأتراك خروج على الخلافة أى خروج على الدين .

ولقى رفاعة الطهطاوى ومحمد فريد ولطفى السيد هنتا شديداً فى الدعوة الى المصرية الخالصة ، ولأمر ما اشتدت مقاومتنا للفرنسيين والانجليز وليست مصر بدءاً فى هذا فقد استطاعت البابوية أن تحكم أوروبا رغم الحدود قروناً بتأثير الفكرة الدينية .

ان تجريد الشعب المصرى من السلاح قروناً طويلة صرفه عن الحكم الذى يستلزم قوة ضاربة لأن مهمته الضبط والربط وحفظ الأمن . لهذا بين اسباب أخرى ، اختار عمر مكرم والعلماء (محمد على) لأنه ضابط فرقة وراءه جند وسلاح ولم ينصبوا واحداً منهم لأن الشعبية وحدها لا تكفى مع قيمتها الكبيرة حتى أن الحاكم ولو كان طاغية يتلمسها ويدعيها .

وقد فطن الى معناها محمد على منذ اللحظة الأولى فاستكتب العلماء طلباً الى الباب العالى يعلن اختيارهم له وتأييدهم حكمه .

وهناك ظاهرات قد تبدو بعيدة عن موضوع المقاومة المصرية وهي منه في الصميم . فازدهار الأدب الشعبى فى مصر بالتشكيل والتحويل والخلق والنماء لون من مقاومة الشعب المصرى فى ذلك الحين .

على أن احتفاظ مصر بطابعها الأصيل حين تشكلت أنجلترا أو غيرها ، نوع عظيم من المقاومة . يقول سير (ارنست باركر) فى باب القومية على ضوء التجارب العصرية : (ليست الامة حقيقة بدنية من دم واحد ولكنها حقيقة عقلية أو نفسية من تراث واحد) .
ما أوجنا الى وقفة هادئة نستخلص فيها حقائق ناطقة من كل ما سبق .

من الباقى :

- العلماء أم الملوك ؟
- الخليفة المتوكل أم ذو النون ؟
- الامام الليث أم خليفة بغداد ؟
- الشعب المصرى أم الممالك ؟
- الشعب المصرى أم سليم الاول ؟

العلماء والملوك :

قال الجبرى فى تاريخه : اصناف العدل من الخلائق خمسة :

- (١) الانبياء
- (٢) العلماء
- (٣) الملوك وولاة الامور اذا عدلوا !!
- (٤) اوساط الناس
- (٥) القائمون بسياسة نفوسهم .

وفى الجزء الثانى يقول الجبرى :

(صلاح الملوك تابع لصلاح العلماء . وفساد اللازم بفساد الملوك فما بالك يفقده . والرحى لا تدور بدون قطبها) .

وهذا فى نظره بحق وراثه النبوة لأن العلماء امناء الله فى العالم . لقد ترجم الجبرى فى الجزء الاول من تاريخه للامراء والمقصود امراء الممالك فاذا بايامهم كر وفر . هروب ووثوب . غدر وقتل . . ولهذا نجد الجبرى يقول عن الاستثناء من هذه القاعدة (مات على فراشه) . حتى اذا اترعوا كالوحوش الضارية من الدماء المسفوحة كفروا عن

جرائمهم ببناء المساجد ولهذا نجد أكثر العصور بناء للمساجد .
عصر المماليك والأتراك ...

وحين يصف الجبرتي نهاياتهم بالقتل والفتك يقول عن خاتمة
حياة العلماء :

(مات) الشيخ الامام الصالح عبد الحي بن الحسن بن زين
العابدين بن الحسين البهنسي المالكي نزيل بولاق ... اخذ عن
وصلى عليه بالجامع الكبير في مشهد حافل وحمل على الأعناق
الى مدافن الخلفاء قرب مشهد السيدة نفيسة .

ومات الشيخ امام السنة ومقتدى الامة عبد الخالق ... وصلى
عليه في الأزهر في مشهد حافل ودفن بالمجاورين .

وبعض العلماء وهو الشيخ القناوى كان يوصف بأنه (سقف على
مصر من نزول البلاء) ج ٢ ص ٢٧٩ .

ويصف الجبرتي الشيخ محمد الزهار بقوله :

(كان على وجهه قنديل من النور .. وله صدقات خفية
وظاهرة ... وكان راتب بيته من الخبز كل يوم نحو الأردب .
والطاحون دائمة الدوران ليلا ونهارا . ويجتمع على مائدته الأربعون
والخمسون والستون .. وشاع ذكره في أقطار الأرض .. وأقبل
عليه الوافدون بالطول والعرض ، وهادته الملوك وقصده الأمير والصعلوك
فكل من طلب شيئا من أمور الدنيا أو الآخرة وجده ، وكان رزقه فيضا
الهايا ...) .

انها السلطة الروحية التي يعتز بها الشعب المصرى ويستطيع
ساعة الجد أن يعلو بها على السلطة الزمنية التي لا يعنيه منها الا
العدل ...

والجبرتي في تاريخه كان يمثل نبض الشعب المصرى و (رؤيته)
للعصر ورجاله ... وهى رؤية صادقة .

ولعل المقارنة بين الملوك والعلماء لا تبلغ عزها ، بلنها في موقف
الشيخ العز بن عبد السلام من المماليك وهم ملوك عصره . فقد نظر
اليهم من محرابه فلم يثبت عنده أنهم أحرار . وصرح بوجوب بيعهم
وضم ثمنهم الى بيت مال المسلمين . وتثور ثائرتهم . ولكنه لا يأبه
لهم ويصر على موقفه . وبين ثورتهم وأصراره أحداث لم تردده الا رسوخا
وشموخا .

ونادى سلطان العلماء على الأمراء أى الممالك المجلوين واحدا واحدا .. وباعهم واحدا واحدا وقبض بيد مصر ثمنهم وضمه الى خزانها .

وهكذا تبلغ شجاعة الراى فيه ، قمة ذروتها فى انسان ..
انه سلطان العلماء الذى يتولى الملوك الوساطة عنده للسلطين ،
بغية أن يهادنهم ، فقد حدث أن شفع عنده الملك الكامل للسلطان
الأشرف حتى قبل اعتذاره .

وحين اختار جوار الله وخرجت القاهرة فى وداعه ، قال الظاهر
بيبرس لبعض خواصه (اليوم استقر امرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ
لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك منى) ...
نزول العروش واصحابها ويبقى للتاريخ وللشعوب عطاء العلم
وسلطان العلماء .

ال خليفة المتوكل وذو النون - قصة

السنة : ٢٣٢ هـ

ال خليفة : المتوكل

الوالى فى مصر : منبسه بن اسحق الضبى (٢٣٨ هـ) ... اسم من
اسماء وهو على كل حال آخر وال عربى على مصر .

ميزانية الخلافة : أى ما تحصله من اموال من اقاليم الشام ومصر
والحجاز واليمن ، عدا اقاليم المشرق ، ٨١٧٠٠٠ ر.
دينار .. تدفع منها مصر فيما ذكره ابن خلدون
٢٠٠٠ ر. ٩٢٠ دينار .

والدينار يساوى ١٥ درهما فى ذلك العصر غير
الغلات والعينييات .

كان الخليفة فى بغداد يملك هذه الملايين التى يدفع الشعب
المصرى وحده نصفها من عرق الكادحين ، ويملك الخليفة مع المال ،
الحياة والموت فيعطى الف دينار لشاعر يمدحه ، ويأمر السيف
بقطع رقبة عالم يخالفه فى الراى ! ومع كل هذا الجبروت كان خائفا
مدمورا يتربص به اقرب الناس اليه .. وانتهى امره بأن قتله ابنه
المنتصر (فكان الموتور بالدم واتره) . كما يقول الباحثرى .

حين كان هذا يجرى في عاصمة الخلافة ، كان ذو النون في مصر يضع أسس التصوف الاسلامي .
وعذب ذو النون فيمن عذب من رجالنا عندما امتحنا (يخلق القرآن) .

واستمرت مصر في اثناء الدين والعلم والفن . . . واستمرت الخلافة ، بعد المتوكل مشغولة (يخلق القرآن) الذي انزل هدى ورحمة للناس وتورا يسمى بين ايديهم لا سيفا مسلطا على اعناقهم .
في عهد المتوكل كان الشعب المصري يبني مقياس النيل في الروضة . .
ويضيف اليه مع القيمة العلمية في الرصد ، قيمة الفن في نقشه بالآيات الكريمة من اجل النيل المبارك شغل مصر الشاغل والحي الكبير في قلب الشعب المصري .

وهكذا كانت مصر تابعة سياسيا للخلافة ولكنها حضاريا غلبتها بالرأى ، وبذاتها بالخلق والفن والعلم
وكم بين صناعة الحكم وصناعة الحضارة .

الامام الليث والسلطة الروحية

السنة : ١٣٦ هـ

الخلافة : ابو جعفر المنصور . . احد خلفاء كثيرين وان كان اقساهم باستثناء اخيه عبد الله السفاح .
الوالى على مصر : صالح بن على العباسي .

وقبل ان يكون صالح بن على العباسي واليا ، عرض حُكم مصر على الامام الليث بن سعد « الامام الليثى » احد اقداد معدودين في حياة الشريعة الاسلامية فرفض كما رفض القضاء . ولكن السلطان والقاضى كما اشرت ، كان كل منهما يفتى في نوائبه وحوائجه مجلس الليث بن سعد التماسا للرأى او التأييد فاذا استحقه ، جاد عليه به امام مصر وفتيها . . . واذا انكر رجلنا الليث من السلطان ، او القاضى امرا ، كتب الى الخليفة فما يلبث ان ياتى الحاكم . . العزل .
كان الليث اماما . . وكان موقفا .

كان له في الدين رأى ، وله في المجتمع سمت خاص . استعان بالتاريخ ، بحاسة بلد التاريخ ، على تفسير النصوص ومضاهاتها

والخُلوص الى رأى يقرب الاطراف المتعارضة ويجمع الكلمة في وقت
هزت الأحداث السياسية الدولة الاسلامية وصدمت شعوبها
وهو في هذا ينبع من طبيعة مصر السلامية واسلوبها التقليدى في
الوفاق منذ وفق قبله فيلون الفيلسوف الاسكندري بين المسيحية
والفلسفة اليونانية ، ووفق الشيخ تقي الدين السبكي بعده بين المذاهب
الأربعة . في القرن السابع الهجرى .

رفض الامام الليث الحكم . وهو رفض للتبعية ولكنه حكم
باسلوبه هو اذ جعل له أربعة مجالس : المجلس الاول يراجع فيه أعمال
الولاية والقضاء ويقيسها على الكتاب والحديث والسنة فاذا وافقتها
اعتمدها فان اقراره الشخصى بمثابة اعتماد . . ورفضه لها ابطال
وبطلان : اليس في استطاعته عزل والى والقاضى ؟

والمجلس الثانى : خص به أصحاب الحديث .

والمجلس الثالث : اختص به الناس يعرضون مسائلهم .

والمجلس الرابع : لأصحاب الحوائج . وكم فرج الامام الليث

كربات وقضى حاجات ... فحياته للافتاء
والايواء حتى نسجت حوله في هذا قصص
اشسبه بالاساطير ...

لقد كان الامام الليث ينهى عن مدح السلاطين وقد تكفل بمنصور
ابن عمار حتى لا يقف بباب السلطان ويمدحه رغبة أو رهبة كما اشرت :

يقول البغدادي (ان منصور بن عمار وفد على مصر واتخذ مكانه
فى المسجد الجامع وأنشأ يعظ الناس ويقص عليهم من أنواع القصص
ما استهوى نفوسهم واستأثر بمكان الإعجاب منها حتى أبكاهم . وكان
الليث حاضرا يومئذ فاستمع اليه ثم سألته عن السبب الذى حدا
به الى الوفود الى مصر ، فأشار الى حاجته الى المال ، فأعطاه كفايته
وطلب الى أولاده ان يعطوه فأعطوه مثل ما أعطاه الليث) . وفى رواية
ابن خلكان انه قال له : خذ هذه وصن حكمتك .

وقولته الوجيزة والعزيرة دستور للعلماء وأصحاب الحكمة ،
فى الكرامة .

كم من قصص وملاحم لا يذكرها ذاكر أو شاعر أو كاتب أو جامعة
الا نادرا حين يغمزون مصر من وقت الى آخر بالفز والفزاة . . ونو

خطر لهم ان يقارنوا بين العارض والباقي أو بين التحضير والتدمير «
لعمروا ان نار الغزو كانت تكشف اكثر من نفاسة معدن مصر .
فقد كانت النار تصهر معدنها الكريم ولا تذيبه .. تجلوه بعد ان
تنفض عنه المحنة ، تراب الايام والرتابة فيتألق في البناء ويتألق في
الانشاء ليكون التألق في الحضارة والعمارة ، ودا على التفوق في الحرب
والضرب سلاح المغير .

وهذا مثال من تاريخ مصر .

السنة : ٧٥٧ هـ - ١٣٥٦ م .

الحاكم : السلطان حسن بن محمد بن قلاوون .

كان المماليك يتصارعون على الحكم ويتآمرون بالحاكم ويقضون
أعمارهم في خلع هذا ونصب ذاك .. فاذا بقي عندهم وقت صرفوه في
التهب والسلب أو في التفاخر والتكابر والظهور . حتى اذا ثقلت عليهم
وطأة الاحساس بالذنب بنوا المساجد تكفيرا وتغطية وأكثر المهود بناء
للمساجد تلك المهود التي اشتد ظلم أصحابها للناس .. فعصر المماليك
في مصر حافل بالمساجد . ويحكى أستاذنا الدكتور أحمد أمين في كتابه
(قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية) انه في العصر العثماني
كان التركي يقف بباب المسجد يوم الجمعة وفي يده الكراباج يضرب به
السائرين في الطريق لحظة مرورهم امام المسجد ليدخلوه ويؤدوا
الصلاة !! رؤية للدين على كل حال وان كان الدين منها براء ..

مماليك بحرية ومماليك برجية الوف الوف .. لم يبق منهم احد
... الذي بقي هو الشعب المصري الذي كان أثناء هذه يبنى المساجد
والقباب والمحاريب ويضع بصمته عليها مستمدا القدرة بما أسلف
في فن العمارة والنقش والزخرفة حتى لتعد زخارف الفنان في واجهات
المساجد والمآذن امتدادات لفن مصر القديمة بما حوت من عناصر
زخرفية .

في السنة التي نتخذها وقفة ، سنة ٧٥٧ هـ بنى الشعب
المصري مدرسة السلطان حسن (مساحتها ٧٩٠٦ أمتار مربعة ، وارتفاع
المدخل ٣٧٧٠ من المتر) .

ومدرسة السلطان حسن أو جامع السلطان حسن أربع مدارس
للمذاهب الأربعة ومسجد وضريح ... التقاء بين الدين والعلم في وحدة
... ان ايوان جامع السلطان حسن يقنع الحجر بالالتقاء بعضه مع

بعض ليقابل التلاقى فى الصحن بين الايوانات فيذكرنا بفن البديع فى الأدب وخاصة (المقابلة) ففى جامع السلطان حسن مقابلة معمارية .. فراغ يحيط به اكتظاظ المدارس بطلابها واساتذتها .

مقابلة بين الصوت والصمت فعلى الجدران صمت تلزمه المساحات الكبيرة الخالية من الكتابة والنقمة .. وترصيع يزيده غنى فراغ الجدار حوله .

مقابلة بين الحياة المفتوحة فى المدرسة ، وبين الموت فى الضريح عند نهاية الجامع .. موت ثم بعث من جديد .

مقابلة بين بساطة الضريح وعظمة المكان حوله حين يرتفع الى بعد بعيد وكأنه مراقى الروح تصعد فيها الى أعلى حيث القبة تنتهى الى نقطة يعلوها هلال هو رمز الميلاد الجديد فى عملية اختزال رائع للحياة : ميلاد وعمل باقى ثم موت تعيد بعده الحياة نفسها كرة أخرى .

ان جامع السلطان حسن جامع ومدرسة وشفاء ايضا بما يزرعه فى النفس المصرية من معانى الفن والجمال والايمان .

ولكن الممالك لم يفهموا من البناء الشامخ معنى المدرسة او المسجد فقد اتخذوا منه حصنا أى موقعا استراتيجيا يضربون منه الممالك الآخرين المتحصنين بالقلعة مما أدى الى تخزيه وتلفه حتى أصلحته ، فى العصر الحديث ، ادارة حفظ الآثار العربية !

وعند الجزاء يخرج الشعب المصرى من المولد ، بالقيراط الخامس والعشرين كما يقول استاذنا الدكتور حسين فوزى .. ففى الدولة الملكية يحكى القلقشندى ان (الاقطاعات تجرى على الأمراء والجند وعامة اقطاعاتهم بلاد وأراض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف يشاء .

وكان السلاطين يلقبون أبناءهم (بالأسبياد) وأبناء الأمراء الآخرين (بأولاد الناس) . وقد أعطى الأسبياد وأولاد الناس (الجوامك - أى المرتبات) وكذلك منحوا الإمارات المختلفة باقطاعاتها ... ولكنهم ذهبوا جميعا وبقيت مصر للشعب المصرى .

الغالب والمغلوب

السنة : ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م .

الحاكم ؟ السلطان سليم الأول .

قبل هذا وهو بمثابة مقدمة لما حدث في تلك السنة ، كان المماليك يهزلون وكان الشعب المصرى يجد بطريقته الخاصة .

كان المماليك والولاة على رأس الحكم وكان الشعب المصرى على قمة اخرى ارفع . كان يبدع الفن ويصنع الحضارة ويكتب الادب ويعلم ابناء المنطقة كلها في الأزهر ويسمى القناديل (قرايات) في واصل بين النور والعلم .

القناديل هيون او قلوب . فالتعديل حمى للمصباح من عبث الهواء ، والقلب حمى للمعانى من عبث الأهواء .

والأساطير الشعبية حين ترمز الى الظلام والشر ، تجعل المغرير يطفى اللبنة فالشر دائما يرتفع في الظلام .

كم احتفلت مصر بالقناديل وشكلتها تشكيلا ، وجمعتها تجميلا . فلما جاء العصر التركى جمع سليم الاول الصناع والفنانين ورحلهم الى القسطنطينية عاصمة ملكه .

ولما أفاق سليم من بهره بفن مصر ، وهو الفانى المنتصر ، نقل ما رآه من عمل مصر في التذكيت والترصيع ، الى السيف ، لعبتهم المفضلة ، فعرفت السيوف التركية ، كما يقول الفنان عبد الرؤف في كتابه « القاهرة » ، هذه الفنون الجمالية حين عطلت منها المشكاوات في العصر التركى . . . مع أن المقريرى يحكى لنا عن ازدهار التذكيت في أيامه - أى قبل دخول سليم - حتى أنه لم يخل منه جهاز عروس فقد كان تقليدا ، أن يضم طلقا من النحاس المكفت .

هذا هو الفرق بين حامل القلم والريشة ، وبين حامل السيف .

♦♦♦ ♦♦♦ ♦♦♦ ♦♦♦

لقد بنى الفنان صانع المشكاة ، ببقائها ، لا يلبغا حامل السيف ، ومن الطريف أن (يل) في التركية معناها = اصفر ، و (بقا) معناها = ثور . وهما معا (يلبغا) الثور الاصفر .

وحين فتح سليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين وحملهم معه الى القسطنطينية بل حمل معه (أكثر ما في القلعة وما في منازل السلاطين والامراء من الذخائر والنفائس كما اخذ ما كان من ذلك في المساجد والأربطة والزوايا حتى أعمدة الرخام وبلغ ما أخذه من النفائس حمولة ألف بصير غير ما سلبه رجاله وجنوده حتى مقام الإمام الليث ومقام الإمام الشافعي سطوا عليهما) يقول الجبرتي (فقد من مصر ، نيف وخمسون صنعة) ولم ينس سليم في عملية التخريب الشرسة أن ينفي العلماء والقضاة ..

اغتنب الفلوس والروس ... ودلالة هذا وعبه وهو المنتصر من مصر وبهره وهو الغالب بفن هذا الشعب بهرا يسيل لعبابه حتى ليعجز عن مقاومته لافتقاره اليه وغرابته عليه ولم يؤثر عن سليم أنه أخذ فنانين وصناعا من مكان آخر في الشرق العربي ...

لقد دعا الفاتكان في روما مهرة هؤلاء الصناع ، قبل أن نبثلى بسليم ، للقيام برخارف (باقيه الى الآن في مثلث الجمالون الكبير مع ما كتبوه من الكتابات التي كتبوها باللغة العربية) .

ولكن المدرسة المصرية تصر على أن الذي انتصر سنة ١٥١٧ م هو سليم ... ولم تقل شيئا عن « الباقي » بعد الهزيمة والنصر وهو الشعب المصرى .

مصر

إن اسمك مصر ليس مجرد اسم وطن ولكنه دون الأسماء يعنى حضارة الإنسان وتاريخ الأديان و ... يعنى آلاف السنين قبل التاريخ وبعد التاريخ يا أم التاريخ وأم الحضارة وأم العمارة وأم العلوم وأم الفنون يا أمى ... يا مصر .

إن الأمم العريقة لا تقاس بانتصارات الحروب أو هزائنها ولكن بانتصارات السلم ، وانتصارات العلم ، وانتصارات كرائم الإنسان فيها

لم يصدقنا عدوك الحديث حين قلنا أنك أكبر من الهزيمة بارادتك وطاقاة الصمود نيك وقدرة الإصرار والاستمرار لأن غروده أعماه ، وجهله بتاريخك أو تجاهله ، أقره ، وحسب نفسه كبيرا فلم يفق إلا على هتفة الأبطال : الله أكبر ...

حولة انت في الفرج ، وكريمة كنت في الجرح سلمت جراحك ،
ونور ليلك وصباحك ، وعادت الابتسامة الى السمراء الجميلة .. اليك
يا أمى يا مصر .

ان جعبتك مليئة بالقصص .. التذكرين .. اغرى خصبك المنشور
وخيرك الموفور الأمم والطامعين ، والمحرومين ، وطلاب المجد فحلوا
جميعا بالظفر بك .. راما كلهم غزوك : الفرس واليونان والرومان
وعمر و الطولونيون والاششيديون والفاطميون والايوبيون والمماليك
والترك والفرنسيون والانجليز .. اين هم ؟ كلهم راحوا .. انداحوا
وبقيت انت وجرى الليل ...

وكانت لك فلسفتك في المقاومة بالسيف قاومت ..
وبالاستعلاء قاومت وبالنكتة الذكية اللاسعة قاومت ... التذكرين يوم
تميز القضاة الرومان في محاكم الاسكندرية من الفيظ واشتعل
غضبهم من استخدام المحامين المصريين النكتة والسخرية والتورية
فحرم الرومان عليهم المرافعة حماية لقضائهم الغاضبين ؟ ! وضججت
انت ملء شعاعيك من الغالبين ؟

التذكرين يوم جاء الاسكندر وأصر ابنائك على شهر السلاح في
وجهه وابتسم كاهن امون وقرر ان يحاربه وحده ، وفي هدوء شديد ..
استدرج الحكيم الراهب ، الفلام - فقد كان المصريون يعتبرون الاغريق
اطغالا بالقياس اليهم - استدرج الحكيم الراهب ، الفلام المعتز بقوته ،
الى واحة سيوه وهناك عرف كيف يمتصه ويستوعبه ويستقطبه ...
همس في اذنه انه ابن الاله امون وانه اقوى الناس واحكمهم واعلمهم
وما شاء الغرور ان يسمعه حتى اذا انزع فطرسة ، تركه لنفسه
يقتله غروره ويفريه بالاعتداء والفتح حتى سقط في نهاية الطريق
وبداية العصر .. وبقيت انت .. انت مصر .. انت وحدك بنت امون .
... يا مصر ... يا شهرزاد العصر ... غير ان قصصك ملايين
الليالي

أصل الشعب المصرى

كلما راعت الحضارة المصرية ، مشاهديها ، حلا للبعض التشكك فى نسبتها إلينا ، لونا من المعجز أمام الإعجاز ، أو تحقيقا لأغراض سياسية تستهدف الحط من روحنا المعنوية ، أو إخماد الجذوة المشتعلة فى الروح المصرية حتى من تحت الرماد .. وسيلتهم إلى هذا التلويح بالغزوات أو الهجرات .

أما الغزوات فإن الفترة المصرية الخالصة أطول وأكبر من الفترة الهجينة التى تبدأ من الإسكندر على أن هذه العهود لم تعرف القومية الإقليمية والوضعية المحلية . أن الإسكندر نفسه ادعى بنوته لامون :....

كانت الغلبة السياسية فى ذلك الوقت موجات فتصعد أمة المسرح، وراءها أمة أخرى .

لقد حملت مصر مشعل الحضارة والثقافة والأديان ، حقبا وإزمانا .

ومن يسهر طويلا ينام .

وقد أغفت مصر وجاء الأفريق

ثم الرومان

ثم العرب فالترك ... الخ

وفى هذه الأثناء وفدت على مصر ككل مكان وفادات من جهات مختلفة ولكن مصر كما يقول بحث الدكتور حزين : (سكان مصر ودراية تاريخهم الجنى) : (لم يصلها فى أى وقت من الأوقات هجرات

كبيرة العدد تغطي على حياتها وتطمس معالم عمرانها السابق ، وتغير صفات سكانها الجنسية تغييرات أساسية كما حدث في بعض البلاد الأخرى المجاورة ، لمناطق بها كثرة من الرعاة) .

★ ★ ★

ان الذين هاجروا الى مصر من شمال أو جنوب ومثلهم الذين اتوها من شرق أو غرب ، كل ما فعلوه انهم اضافوا الى ثروة مصر وسكانها في المميزات الجنسية المتوارثة ولم يغيروا الطابع العام للسكان . فبقى المصريون على مر الزمن جزءا من سلالة البحر الابيض المتوسط اضيفت اليه دماء خارجية فاستومعها بفضل عدده الكبير وحياته المستقرة وتوافر العوامل الجغرافية التي حفظت على مصر شخصيتها في السلالة والتكوين الجنسي العام . تلك الشخصية التي لا تزال تحتفظ بكيانها وطابعها حتى يومنا الحاضر .

ان العرب ، فلاحين ومستوطنين ، لم يتلبثوا بمصر الا في الفترة التي ساد فيها حكم العناصر العربية ..

على ان الهجرة العربية الى مصر ارتد بعضها الى موطنها الأصلي ، واتخذ البعض مصر معبرا الى المغرب وبقي البعض على الأطراف اقرب الى الصحراء (البادية) منهم الى الوادي ثم انقطعت هذه الهجرة في العصر العباسي اللهم الا هجرة طائفة من عرب الأندلس الى الاسكندرية سنة ٢٠٠هـ ثم ازاحتهم عنها سنة ٢١١هـ . واذ آل الحكم الى الأيوبيين الاكراد ثم المماليك الاتراك والجراسكة ثم العثمانيين كان ذلك ايدانا بانتهاء النفوذ العربي البحت بما يغرى من هجرة أصحابه أو استيطانهم أو تغلغلهم . وتوقف التيار العربي تقريبا وجاءت فترة استطاعت مصر فيها ان تهضم العرب النازحين .

— (ان الغالبية الساحقة من المسلمين في مصر لم يكونوا غزاة وانما هم في الأصل اقباط تحولوا الى الاسلام « تدريجيا » ولم يؤثر دخولهم في الاسلام في تكوينهم الجنسي) .

— (أن الطابع الجنسي العام للمصريين قد وجد واتخذ صورته المميزة قبل ان يكون هناك اقباط أو مسلمون .

— ان اختلاط الصفات الجنسية في شعب مصر كان على الدوام سرا هائلا من أسرار قوة هذا الشعب وحيويته ومقدرته . على أن يحتفظ بشخصيته . وأن يفال بالزمن ويبقى رغم أحداث التاريخ التي انت على كثير من الأمم القديمة ..

يقول الأستاذ العقاد (ينفض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية . فمن الحقائق الواضحة ان المسلمين والمسيحيين سواء في تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتماء الى هذه البلاد ، فإذا كان بين المسلمين المصريين أنماض وفدوا من بلاد العرب أو التترك فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة ودانوا بملذهب الكنيسة المصرية أو بغيره من المذاهب المسيحية ويبقى العدد الأعظم بعد ذلك سلالة مصرية عريقة ترجع بأبائها وأجدادها الى أقدم اليهود قبل الميلاد المسيحي وقبل بعثة موسى عليه السلام) .

نخلص من هذا الى ان حضارة مصر إنما هي مصرية خالصة ولم تقم كغيرها من الحضارات على اكتاف الآخرين ، وهنا أيضا يقول الدكتور حزين (ان أغلب أمم التاريخ الكبرى في العهود القديمة كاليونان والعهود الوسيطة كالعرب (١) والعهود الحديث كبريطانيا إنما استطاعت ان تحقق ما قامت به من دور خاص في التاريخ بفضل تنوع تكوينها الجنسي) .

ان النظريات التي تصر على استيراد سكان مصر الاول من مصادر خارجي ، أثبتت الأبحاث الحديثة ، كما يقول الدكتور جمال حمدان ، جبروتها وأنها بنيت على شبهات لم نمت بالتأويلات حتى سقطت بالفعل علميا ، لتظل الحقيقة وحدها قائمة وهي ان المصريين القدماء الأصليين يبدوون كما يقول مايرز وهم جنس متجانس أساسا في صفاته وتركيبه وأن أي أثر لاختلاط تضاعف منذ بداية عصر الأسرات حتى ليقول « كون » : (لابد ان تظل مصر القديمة أبرز مثال معروف في التاريخ حتى الآن لمنطقة معزولة طبيعيا أتيح فيها للأنواع الجنسية المحلية الأصلية ان تمضي في طريقها لعدة آلاف من السنين دون ان تتأثر إطلاقا باتصالات أجنبية ١٠٠٠٠) .

ويقارن هذا بما حدث في أوروبا فيجد (ان التغيرات التي لحقت النمط الجنسي في أي جزء من أوروبا خلال السنوات الخمسة الأخيرة كانت اكبر منها في مصر خلال خمسة الاف) .

لقد تعرضت مصر لهجرات ممثلة في :

الهكسوس

(١) يحصل الحديث في هذا ابن خلدون في مقدمته .

الاسرائيليون

العرب .

وثلاثتها كما يقول الدكتور جمال حمدان من الرعاة أصلا .
والرعاة عنصر حركى غير زارع أى لصيق بالأرض ، وغير صديق
للاستقرار . فمصر لهؤلاء ممر لا ممر . حتى العرب الذين يمثلون ثلثة
الهجرات واكبرها لم تغير التجانس الأصلى للسكان على الرغم من
تكلم مصر العربية واعتناقها الاسلام (اذا كانت العرب قد عربت مصر
لغويا ودنيا فقد مصرتهم مصر حضاريا وماديا) ان كل غزو خارجى
تقابلته مصر بغزو داخلى يمس الجوهر والكيان حين لم يستطع غاز
ان يغير منها أكثر من شكل خارجى سطحى هو تكيف قشرى هياها
ان ينقل الى الصميم أو يمس الأعماق .

**لقد مصرت مصر المسيحية وجعلتها فيها دون بقية البلاد
قبطية .**

وقد احتوت مصر العربية وتجاوبت مع الاسلام بكل ما يعنى
التجاوب من تبادل الأخذ والعطاء . لم تكن يوما عنصرا سلبيا بل
ايجابا مؤثرا واثيرا . أما الغزوات فهي حركة (ذكرية) فقد تكفلت بها
طبيعة وظيقتها الحربية التى تعنى الوفاة المبكرة للغالبية فى الميدان فمن
تبقي ، تصارع وأفنى بعضه بعضا وصولا الى السلطة .

نأتى الى العناصر الوافدة فى العصر الاسلامى : اتراك الدولة
الطولونية ، ومغاربة الدولة الفاطمية ، واكراد الدولة الأيوبية وما اشبهه .

يضاف اليهم الرقيق الأبيض من الشراكسة ، والرقيق الأسود
من الحبشة وافريقيا ويضاف اليهم طبيعة مصر الآسرة التى قلما غادرها
وافد عن رغبة . الا ان يكون قسرا واضطارا .

هؤلاء الوافدون ، من حاول منهم الاندماج صهرته البوتقة المصرية
بقدرتها التقليدية على الصهر والتدويب والامتصاص . ومن لم يحاول ،
صهره الصراع . وطالما أفنى بعضهم بعضا لا سيما المماليك

حتى المماليك منهم طائفة اطلق عليها الجبرتى الامراء المصرية .

ان مصر يقف وراءها ازاء هذه الوفادات عاملان :

* **صحراؤها** وهى للغريب ماصة كابسة او مصفاة ترشيح
ونقير .

* مجتمعا الذى درج منذ القدم على التزاوج المبكر والتناسل السريع والتكاثر المطرد جعل الكثافة البشرية المصرية بحرا متسلاطم الأمواج يبتلع كل غريم .

ويأتى الفارق الحضارى فيميز الفارق البشرى والجغرافى ويكون بدوره (عامل ترشيح جنسى) .

وتكون النتيجة كما يقول ارمان (ان الشعب الذى سكن مصر القديمة يعيش الآن فى السكان الحاليين) .

على أن مصر فى عملية ارتفاعها الدائم والدائب على الأحداث ، أحالت النعمة الى نعمة فكانت (تتجدد بمقدار هذه الهجرات والعناصر الداخلة ، وتكتسب عروقها دماء جديدة مهما كانت كميتها ضئيلة محدودة ، وتلك ظاهرة صحية ومفيدة ومنشطة للبناء البشرية للسكان) واستقطبتهم فكان مصر احتوت الهجرات والغزوات والوفادات وامتصتهم لا سياسيا فحسب بل جنسيا أيضا .

وراحوا جميعا .

وظلت هى الباقية .

اسم مصر

أما اسم مصر فكثيرون يعتقدون أن اسم مصر هو ، التسمية العربية أى تسمية حادثة في القرن السابع الميلادى فهى ليست بالاسم الأول القديم .

والحقيقة أن المصريين القدماء فتنوا بواديهم الأخضر وسموه أكثر من اسم . فهو ، أى مصر، عندهم (كيمه) أو السمراء ، و (لاكيمه) أى الحمرة ، و (تاوى) أى الأرضين و (ايدبوى) أى الضفتين . ولم يكتفوا بهذا كله بل أضفوا عليها من ولعهم بها صفات شاعرية كما يدل المرموق المشوق فقالوا (أبرة رع) أى عين الشمس أو عين رب الشمس وقالوا (وجاة نثرو) أى عين رب الأرباب و (اترى) أى ذات المحرايين و (باقة) أى الزيتون فهى خضراء دائما ..

أما جيرانهم من كنعانيين واششوريين وفينيقيين وبابليين فكانوا يسمونها مصرى ومشرى ومصرم ومصرايم « التوراة » ومصرين وختبها القرآن الكريم بلفظة مصر .

ومن الوثائق الخارجية المحفوظة رسالة بعث بها أمير كنعانى في الربع الثانى للقرن الرابع عشر ق م يطلب حماية فرعون ويستأذنه في إرسال اهله الى (ماتو مصرى) أى الى أرض مصر .

أذن كلمة مصر تمتد في الزمن الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد :

وتقارب هذه اللغات في اسم مصر يطرح احتمالا مؤداه أن هذه اللغات أخذته أصلا من أصحابه ... من اللغة المصرية القديمة فإن أسماء الأعلام تؤخذ كما هى الى حد بعيد ...

يقول الدكتور عبد العزيز صالح (ليس من المستبعد إطلاقا أن تؤدي الاكتشاف الأثرية المقبلة إلى إظهار وثائق مصرية تذكر اسم مصر في صراحة ، ولكن حتى تظهر هذه الوثائق يمكن ترتيب الآراء المحتملة في ضوء المصادر المعروفة حتى الآن في تحليل اسم مصر ومترادفاته القديمة ، في أربعة آراء تنتهي جميعا إلى اعتباره لفظا ساميا مشتركا يؤدي معاني الحاجز والحد والصور ، ويترجم عن صفتي الحصانة والحماية) .

★ ★ ★

ويؤيد هذا الرأي ما نراه في النقوش والرسوم والتماثيل من احاطة كل عزيز عليهم وخاصة ملوكهم بقرص الشمس الممتلئ وبماء النيل . وتسرب هذا عبر الزمن ، ليثا في قول ابن البلد (مصر المحروسة) .

وهناك رأى يقول أن كلمة مصر مركبة من كلمات ثلاث بمعنى (بلد أبناء الشمس) . والكلمات الثلاث هي « ما » بمعنى موضع ، و « سى » بمعنى ابن ، و « رى » أو « را » بمعنى الشمس . ومنها « راع » الذى ينسب إليه بعض الفراعنة . ويستند إلى هذا ثقات يطلقون اسم « مسرى » على شهر الفيضان أو شهر النيل ، ويربطون كما فعل العلامة « ماسيرو » بين اسم الشهر واسم البلاد .

ومن حب المصريين مصر ، كان قداماؤهم يسمون أنفسهم شعب الشمس ، والشعب النيل ، وشعب الاله ، بل تصوروا أنهم نبتة منه صيغت من جسمه ، أو أنهم خلقوا من عينه ونزلوا من دمعه . وكان ملكهم كان ينطق بلسانهم جميعا (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ؟) .

قد تكون القوة والثراء والرخاء والسيادة ... قد تكون هذه الصفات مجتمعة ومتفرقة ازدهت فوصفوا أنفسهم بهذه الصفات . ولكن عصور الضعف بما تورثه من تخلف وتسيب وانحطاط ، هل كان الشعب المصرى يرى نفسه ، فيها ، دموع الله أم دمعه هو ؟

في عصور القوة بمكاسيها .

وفي عصور الضعف بمثالبها .

نحن مصريون .

مصر في القرآن الكريم

مصر في القرآن الكريم جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة .
يقول الكندي : وصفها بما لم يصف به مشرقا ولا مغربا ولا سهلا
ولا جبلا ولا برا ولا بحرا .

(كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا
فيها فاكهين) .

ومصر في القرآن الكريم : أمنية الممتنى وجواب السائلين :
(اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) .

وحين خرج اخوة يوسف من الشمال ووفدوا على مصر ، حدث
أخوهم بنعمة ربه عليه وعليهم فقال (وقد أحسن بي اذ أخرجني من
السجن وجاء بكم من البهو) .

هل هي مقابلة بين السجن والبدو ، وبين مصر .

وهي وطن هاجر أم إسماعيل ومارية أم إبراهيم وهي وطن قارون
الذي أتاه الله من الكنوز - أي كنوز مصر - (ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة
أولى القوة) .

انها خزائن الأرض التي دعا يوسف ربه أن يجعله حارسا لها .

وهي وطن البناء أصحاب الصروح : هامان ورجاله .

اذ يطلب فرعون الى هامان أن يوقد له على الطين (فاجمل لي صرحا)
القصص .

انها الوادي المقدس طوى .

وهى بلد اهل الراى المتحضرين . ففرعون حين ضاق بموسى لم يستبد بالراى بل جمع رجاله وشاورهم فى الامر . وفى حس حضارى يلقى بعرض مصر اخلصوا فى الراى وارتفعوا الى مستوى المسئولية والموضوعية .

فرعون يخاطبهم : فماذا تأمرون ؟

اذن الامر للجماعة ... الامر شورى . والرجال الكبراء يقولون (ارجه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحاح عليم) .

ولا ادل على عظمة هذا الموقف من الملك المصرى ورجاله ، من موقف حاكم آخر ورجاله .

نمرود يأخذ راى اتباعه فى ابراهيم عليه السلام : فيقولون فى منجبية وحق (حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) .

ومن السحرة المصريين من آمنوا فى شجاعة راى وضمير .



اتها مصر قبلة الانبياء

راعتهم وساندتهم

حتى آدم (ص) الذى فتح عينه على الجنة راعته مصر ايضا . والعهد على السيوطى . فقد عقد فصلا فى كتابه الكبير (حسن المحاضرة) يروى فيه أن آدم عليه السلام عندما راى مصر وقع من سحرها فى بحران من الدهشة السكرى يتمتم :

(لا خلكت يا مصر بركة ، وما زال بك حفظ ، وما زال منك ملك وعز .. يا ارض فيك الخباء والكنوز ... ولك البر والثروة . سال نهرك عسلا . كثر الله زرعك ، ودر خربك ، وزكى نباتك ، وعظمت بركتك .)

كان كعب الاحبار يقول : لولا رغبتي فى الشمام لسكنت مصر ، فقيل : ولم ذلك يا ابا اسحق ؟ قال : انى لاحب مصر واهلها ، لانها بلدة معافاة من الفتن ، واهلها اهل عافية ، فهم بذلك يعافون . ومن ارادها بسوء كبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لاهله فيه .

والكندي في فضائل مصر يورد من كان بمصر من الأنبياء فيذكر
منهم : إبراهيم الخليل واسماعيل ويعقوب ويوسف واثنا عشر نبيا من
ولد يعقوب وهم الأسباط وموسى وهارون ويوشع بن نون ، وعيسى
ابن مريم ، ودانيال عليهم الصلاة والسلام .

وعد من كان بها من الصحابة ومن أشبههم الزبير بن العوام
والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وعبد الله
ابن عمرو ، وعمر بالطبع . وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر
الذي روى عنه قوله : من أراد أن ينظر إلى الفردوس فليتنظر إلى أرض
مصر حين تخضر زروعها ، ويزهر ريحها ، وتكسى بالنوار أشجارها
وتفنى أطيافها .

وعد من كان بها من الفقهاء والعلماء

ومن كان بها من الزهاد

ومن دخلها من الشعراء والخلفاء

ونيل مصر حظى بشرف الذكر في القرآن الكريم في مواضع عدة ،
فلم يرد نهر في سياق الفخر غيره ، ولم يطلق على نهر اسم (البحر)
غيره . . ولم يطلق على نهر لفظة الجمع (الأنهار) غيره فهو في القرآن
. . اليم . . وهو . . البحر . . وهو الأنهار .

فملك مصر فرعون موسى قد ازدهاه الفخر بحق فقال كما حكى الله
عنه (يا قوم اليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا
تبصرون ؟) .

وفي قوله : « يا قوم » دهشة لا تخفى . . كيف يواجهه ملك مصر ؟
والنيل ؟ كان فرعون مزهوا بالأنهار تجري من تحته . فهتف هذه الهتفة
في عزة المالك وقوة التحدى . . وأبضا في غبطة السعيد .

وقد ذكر الله لفظة « بحر » في ثلاثة وثلاثين موضعا . منها ثلاثة
مواضع قصد بها النيل وهى قوله تعالى :

« نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا »

« واتخذ سبيله في البحر عجبا »

« اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر »

ويؤيد هذا التفسير ما أورده البخارى في ذهاب موسى عليه السلام
في البحر إلى الجحش .

والنيل في القرآن الكريم هو اليم في قصة موسى . وما دار حولها
من آيات .

وهو وراء قصة يوسف وحلم العزير . ويلمحه آخرون وراء
الآية (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) .
والقريري يقول أن (يوم الزينة) عند بعض المفسرين هو يوم وفاء
النيل .

اكتفى بهذه اللمحات هنا حيث فصلتها تفصيلا في كتاب آخر ،
قائم ، عن النيل . وعليه .

ما أريد أن أوضحه هو أن مصر بنفسها أو من خلال النيل حظيت
بالذكر في الكتاب الكريم بما لم يحظ به بلد آخر في الدنيا على كثرة ما
بها من بلاد وانهار وهو شرف ودلالة وقيمة محسوبة اذ عدت مفاخر
الأوطان .

فرعون . . وفراعة

قالوا (فرعون) وعنوا باللفظة التجبر والتكبر ، وأحيانا الشر والكفر
فيقول المثل (تحسبه موسى تلاتيه فرعون) .

وعند المثقفين المصريين يعنى لفظ (الفراعة) المجد كله والفخر
كله . لنناقش كلمة (فرعون) .

كيف تكونت ؟ ما هى دلالتها ؟

يقول الدكتور عبد العزيز صالح انه لقب (جمع بين صيغة
مصرية قديمة ، وصيغة عبرية قديمة ، وصيغة عربية قديمة . صيغته
المصرية القديمة برعا أو برعو » وتشبهها الصيغة الاشورية برؤو أو
برعو » وصيغته العبرية « فرعو » بعد قلب الباء فاء وتشبهها الصيغة
الاثرية « فاراو » وصيغته العربية « فرعون » بعد اضافة نون أخيرة .

اما الصيغة المصرية فهى تعنى البيت العالى ، أو البيت العظيم .
وتلقب الملوك والرؤساء ، شىء معروف فى القديم بل لا يزال مألوفاً فى
عصرنا الحاضر .

ما الذى يجعل هذا اللقب سىء الوقع عند بعض الناس ؟

هل هو فرعون موسى ؟

هل من طبيعة البشر أو طبيعة الأشياء أن يصدق فرعون بكل
هيله وهيلمانه ، وللهولة الأولى ، داعيا ، فى نفسه منه ما فيها . .

وقد كذبت قريش بعد أن قطعت الانسانية من عمر الزمن دهورا
بعده ، الزكى السرى الصادق الأمين وهو الدؤابة منها شرفا ومحتدا ؟

لم يكن عندها عذر عصبية الجنس أو عقدة الثأر القديم أو مبرر الاستعلاء .

لقد كان موسى في نظر فرعون كما جاء في القرآن الكريم قاتل أحد وجاله وهو في نظره ، ربيب قصره حتى ليقول له في عتاب أو تأنيب أو كليهما : (ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك ستين .. وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين) .

ولم ينكر موسى (قال فعلتها اذا وانا من الصالحين) .
سورة الشعراء الآيات ١٧ و ١٨ و ١٩

كيف ؟

القرآن الكريم يقول : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى فقتل عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مبسل مبین . قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلان اكون ظهيراً للمجرمين)

سورة القصص الآيات ١٤ و ١٥ و ١٦

(قال رب انى قتلت منهم نفساً فاخاف ان يقتلون) القصص آية ٣٢ .

الا يخطئ من ليسوا انبياء ؟

وعندما يخطئ فرعون موسى هل ينسحب هذا الخطأ على كل فرعون ؟

الم يكن اخناقون متسامياً موحداً نبيلاً ؟

هل كل ملوك الفرس قبيح ؟

هل كل خلفاء بنى العباس ، السفاح ؟

هل كل الفاطميين « الحاكم » ؟

واذا جاز أن يحسب علينا خطأ فرعون واحد فان من المقابل ، أن يحسب لنا امجاد قرامين ، يكفى الواحد منهم امة بأسرها في باب المفاخر ..

على ان من ائمة المسلمين والواصلين من براً فرعون من الكفر .
فالامام محبى الدين بن عربى يقول فى كتابه « فصوص الحكيم » (بايمان
فرعون ايماناً لازماً ، وانه قد لقي ربه طاهراً مطهراً ، سالماً من العيب،
برئاً من الذنب) وظهره فى هذا الامام جلال الدين البوانى فى رسالته
الخطية الموجودة بدار الكتب . مستندين الى الآية الكريمة (آمنتم
انه لا اله الا الذى آمنتم به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) سورة
يونس آية ٩٠ ، وجعله ابن عربى ، آية على عنايته سبحانه لمن يشاء
حتى لا يياس احد من الله تعالى .

(قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم) .

شرف ونعمة ان نكون مصريين وان نكون فراغنة .

اننا نحب الحرية للآخرين ونحترم اوطانهم فلا يستكثر علينا
احد ، ولا ينكر علينا احد ان نعلى راية (المصرية) دون ان يتعارض
هذا مع القومية العربية . فالعرب فى سائر بلادهم ينتمون اولاً الى
الوطن الام ثم ينتسبون الى العروبة بحكم الدين واللغة ومسار التاريخ
فى الاربعة عشر قرناً الاخيرة .

ونحن فى مصر لا نطلب اكثر من هذا لا سيما واننا نحمل اسمها
عرفته الدنيا قبل الديانات واللغات والقوميات فنحن مصريون اولاً
ونحن مسيحيون ونحن مسلمون ونحن عربيو اللسان والهدف
والمصير .

ان الاستاذ ساطع الحصرى فى كتابه الكبير عن (القومية العربية)
يسمىها « رابطة » ونحن لا ننكر هذه الرابطة ، ولا نستطيع . وليس
فى مصلحتنا ان استطمنا ولكن « الرابطة » مهما عزت ، لا تبلغ الاصل
المربط والمربوط بل ان وجودها رهن بوجوده .

من هنا ندمو الى معرفة تاريخنا حفاظاً على الاصل ، واتخاذ
منطلقاً للتجديد والخلق حتى نكون لنا شخصية متميزة ثم نتمسك بها
فى اعتزاز وحب وانتماء .

لقد أخذت اليابان بأسباب العلم الحديث بل اضافت الى علوم
العصر ، ولكنها تمسكت ، بأسلوبها فى الحياة ونظامها فى العيش .

انها لماساء ان تحتاج الحقائق الثابتة الى اثبات .

الأقباط والمسلمون

ان المثقفين من المسلمين والأقباط يعلمون بالدراسة والوعى التاريخي ، ان مصر اعتنقت المسيحية ثم الاسلام .

المسيحية جاءت من فلسطين .

والاسلام جاء من الجزيرة العربية .

وبعد تفكير وتمحيص للدين الوافد ، ولوقفها هي ، اختارت مصر المسيحية بل تبنتها ودافعت عنها **بالرأى والروح** .

ولاعتبارات فصلتها في هذا الكتاب دخلت مصر في الاسلام افواجا . ولم يكن غريبا عن طبيعتها ، ولا عن مسيحيتها . ولهذا لم يكن اسلامها مسaire أو تسليما ، ولكن كان اسلامها موقفا واستجابة وإيجابا ، فلم تلبث ان تحمست له ، ودافعت عنه **بالرأى والروح** .

وكما نشرت مصر المسيحية وأضافت اليها كما لم يفعل احد .

نشرت مصر الاسلام ومكنت له كما لم يفعل احد .

وبما تمثل المسيحية من وقفة مصر وموقفها .. من رأيها وشخصيتها ، نعتز بالمسيحية مسلمين وأقباطا لأننا مصريون .

وبما يمثل الاسلام من سماحة مصر وتفتحها .. من احساسها بداتها حتى لا تخشى الجديد ، لأنها بالتاريخ الطويل تعرف ان لها في كل مسرح مكانها ومكانتها .. بهذا ، ولهذا ، نعتز بالاسلام اقباطا ومسلمين لأننا مصريون ..

وامتداداً لهذا ، حين تمد مصر للعروبة يدا داعية او مستجيبة لما يخدم هذا من مصالحها ويعزز دورها ويساندها ، لا املاء من فرد ، أو تحقيقاً لطموح شخص ، أو اندفاعاً مريضة ، فان العروبة هنا ، بما تمثل من رأى مصر نفسها ، نعتز بها أقباطا ومسلمين لأننا مصريون ..

فلا يخلط كائن بين الدين والجنسية ، كما والى فى الماضى المسلمون (بعض منهم) الاتراك ، والأقباط (بعض منهم) الانجليز .. لا من خيانة من الطرفين ولكن عن سطحية فى التفكير والوطنية وما منع الاسلام تركيا ، ولا المسيحية انجلترا ، ان تظلم مصر كلها باستعمارها ، ثم باستغلالها ، وتمويقها ، وقهرها ..

الدين علاقة خاصة بين الله والانسان .

ولكن الوطن علاقة عامة أخطر أثرا ، لأن الله غنى عن صلواتنا تحت جميع الأسماء . ولكن الوطن حياته بحياتنا ، وحياتنا بحياته مقترنة ومطرده علوا وانخفاضا .

الأديان جاءت بعد الانسان .

ونحن مصريون قبل الأديان والى آخر الزمان .

ليس الأقباط بالمسيحية فلسطينيين بل مصريين اعتنقوا المسيحية .

وليس المسلمون بالاسلام عربا ، بل مصريين اعتنقوا الاسلام حتى شكوا الى عمر بن عبد العزيز من نقص الجزية .. فقال الخليفة الذى يعرف مصر جيدا لانها ربه فى ولاية أبيه عبد الرحمن بن مروان (ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جاييا) ..

ولا يسمى هذا العرب بل يشرفهم . فلتن تكون مصريين اسلمنا خير من أن تكون اعدادا من العرب فى مصر .. ما الجديد فى هذا بالنسبة اليهم ؟ وما معنى خروجهم بالاسلام من الجزيرة العربية ، وتجاوزهم به الحدود اذن ؟ هل لم يؤمن به احد ؟ . وما معنى (بعثت الى الناس كافة ؟) واين عالمية الاسلام اذن ؟ ان لم يكن اهل البلاد المفتوحة اسلموا ، فهو دين محلى خاص .

والقائلون من الأقباط بأن المسلمين المصريين ، دخلاء ، ظنا منهم

بسنداجة ان هذا يتيح لهم ان يتفردوا بمجد القدماء او بشرف الانتساب الى مصر .. لهؤلاء أقول :

هل يشرفهم ان يكون الدخلاء ، كما يقولون ، يشكلون أغلبية والأصلاء هم الأقلية ؟ أما حين يكون المسلمون مصريين مثلهم فان كل فضل للأغلبية او للأقلية فهو كسب للجميع باعتبارنا كلا واحدا يكمل بعضه بعضا ، أمنا مصر وأبونا النيل . وبينهما يتفاوت الاخوة وقد يختلفون ، ولكن عندها يلتقون ، واليها ينتسبون .

وكيف يجوز في الفهم ان يزيع الفاتحون اهل البلاد ، لا سيما اذا كان اهل البلاد أقدم تاريخا وحضارة ؟

ان جيش الفتح في قول كان أربعة آلاف ، وفي قول ثمانية آلاف ، وفي قول ثالث بعد الامدادات ١٢ ألفا ، ويمتد آخرون بالامدادات الى ٣٠ ألفا .

وأهل البلاد في قول ، ثمانية ملايين ، وفي قول عشرة ملايين ، وفي قول ١٢ مليونا .

فلو اخذنا بأكثر الاعداد بالنسبة للفاتحين .

وبأقل الاعداد بالنسبة للأصليين .

هل من المعقول او حتى من اللامعقول المخبول ان ثلاثين ألفا ، يضاف اليهم من لحق بهم من قبائلهم ولو كانوا أضعافا ان يمسحوا بلدا ، وإى بلد ، بلدا كمصر ، ويصيروا هم أصحابه او أغلبيته ؟ حتى اذا تجاوزنا أن الهجرات والقبائل كانت مقترنة بشخص الوالى تخرج بخروجه ، وان صلاح الدين الأيوبي ضيق على بقايا القبائل العربية واضطرها الى هجرة جديدة الى شمال افريقيا ؟ حتى اذا تجاوزنا هذا كله أو أسقطناه ، هل من المعقول ان الآلاف تناسلوا فصاروا ملايين ، وعقم الملايين وصاروا الآلاف أو مليونا أو بضعة ملايين وفقا لآخر احصاء ؟ أى منطق هذا ؟ ولصلحة من ؟

أيها أكرم لآخوة الوطن .. للاقباط ان تكون دخلاء أم أصلاء ؟ وإذا امتسغنا المنطق نفسه وقتلنا ان المسيحيين المصريين فلسطينيون باعتبار موطن المسيحية الأول (بيت لحم) ، أين مصر اذن بين المسيحيين والمسلمين أى بين الفلسطينيين والعرب نتيجة للمنطق العجيب .

أن كل عقيدة دانت بها مصر ، وكل رأى قالت به ، وكل عمل مارسه جزء من نسيج الشخصية المصرية ، الخطأ منه والصواب اعترفنا أم انكرنا .. اننا بهذا كله ، مصريون .

المسيحية دين كتابي دانت به مصر وجفله الاسلام شرطا للايمان به . فلن يكون المسلم مؤمنا حتى يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر . والانجيل كتاب الله .. وعيسى عليه السلام نبي الله .

والاسلام دين كتابي اعتنقته مصر بعد أن أسهر اليها وأعطت رسوله دون غيرها ، الولد ، كما أعطت الولد ، قبله ، أبا الأنبياء إبراهيم .

فاسماعيل بن إبراهيم أمه هاجر للمصرية .

وابراهيم بن محمد أمه مارية القبطية .

يجب أن يعرف هذا الكبار قبل الصغار حتى لا تكون عقدة ولا استعلاء ولا تفاضل ولا تناحر يتسبب منه اليأس مستعمر يفرق ليسود ، أو جاهل بالدين والتاريخ يخسب التعصب تدبنا فيضرب بالدرجة الأولى من يتعصب لهم بما يفتح عليهم من ردود فعل أمثاله من الجهلاء في الطرف الآخر .

هذا في الداخل ، أما في الخارج فالتاريخ الحديث يشير بأصابعه العشرة الى سلاح رهيب من أسلحة الاستعمار .. سلاح الوقعة بين شطري الأمة الواحدة فعن هذا الكاتب الانجليزى جون بورنج John Bouring في القرن التاسع عشر وشياعه ادوارد وكين Edward Wakin في الستينات من القرن العشرين في كتابه (اقلية متوحدة) A Lonely Minority أو القصة الحديثة لأقباط مصر خاصة في الفصل السادس عشر .. وان لم يستطع أحد أن ينكر التعائل بين الاقباط والمسلمين : حتى كرومر في كتابه مصر الحديثة Modern Egypt لم يستطع الفكاك من هذه الحقيقة وهي أن القبطى والمسلم انسان واحد وهو في النهاية الانسان المصرى . واني أترجم حرفيا ما قاله في الفصل السادس والثلاثين من كتابه : (القبطى من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، في السلوك واللغة والروح ، مسلم وان لم يدرك كيف .. قالقبطيات تتشبه بالمسلمات والاطفال تكيفوا عامة وعادات الرواج والجنائز تشبه ما عند المسلمين) وان كان يعزو هذا في خبث المستعمر ودهاء الخبيث الى ثائر الأقلية بالأغلبية مستمدا

الشواهد من الهند بين المسلمين والهندوس . ولا أدل على تعصبه هو من مهاجمته في أكثر من موضع ، مواطنه ادوارد وليم لين لاعتداله في كتابه عن المصريين المحدثين *The Manners and Customs of Modern Egyptians* والاقباط الذين يتعلم بهم كرومر ويتلذذ بهم استعمار دولته قال عنه أحد أعلامهم وهو الأستاذ سلامة موسى في كتابه (تربية سلامة موسى) ، (انه كان طاغية عاث وعربد في كيانه الاقتصادي والسياسي وعطل بلادنا عن التطور وانه كان جاهلا يتشدد بمعارات لاتينية او اغريقية قديمة ولا يعرف شيئا من العلوم العصرية الجديدة) .

وقد فصل هذا بالأرقام والاحصاءات الأستاذ رشدي صالح في كتابه (كرومر في مصر) .

ويبدو ان خلفه جورست لم يكن أقل سوءا منه . يرى الأستاذ سلامة موسى انه ابان الانبعاث الوطني في الأمة المصرية عند جورست الى (مناورة استعمارية هي ايجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والاقباط ، فكان الموظفون الانجليز يحرضون الاقباط من ناحية على المسلمين ثم يعودون فيحرضون المسلمين من ناحية اخرى على الاقباط) .

ولم يقصر كتشنر في هذا المضمار .

انه الاستعمار دائما وراء الفتن . . فهو في مصر يستهدف الوحدة الوطنية وهو في الهند يعمق عن عمد الصراع الديني بين المسلمين والهندوس كما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه (العالم الاسلامي المعاصر) مثلما عمق الخلاف بين سنية الشمال وشيعة الجنوب في العراق فتفتتا وتمزيقا للوحدة الوطنية في الراغبين بل حاول الاستعمار القول بشيعة ايران قبل اسلاميتها تدميرا للوحدة الدينية بمعد الوطنية .

واذا كانت المشكلة الطائفية تبدو قديمة في العالم العربي ، فانها كما يقول الدكتور حمدان (لم تنفصل في أي مرحلة من مراحلها عن الاستعمار : هو الذي غداها ان لم يكن خلقها ، وهو الذي اتخذ منها أداة سياسية يلصم بها وجوده . وهل ننسى ، ان الصليبية - حتى الصليبية - تدرعت بحماية الشيعة من السنين (كذا !) فضلا بطبيعة الحال عن زعمها حماية المسيحيين من اضطهاد السلاجقة في الاراضي المقدسة ؟)

انى اقرا الآن فى (الاستاذ) - الجزء الرابع من السنة الاولى
قول السيد عبد الله النديم (حتى فى الحروب الصليبية التى تحرك
لها عالم اوربا برمته وامتد قرنين وكان لمصر فيها الشأن الاكبر واليد
القوية ولم يسمع أن مسلما تعدى على قبطى مع اشتعال نيران
الحروب ، ولقد امتد ذلك حتى فى زمن الحركة الأخيرة - يقصد الثورة
العربية - التى كانت مظنة لحدوث فتنة بين المسلمين والإقباط فانه
لم يسمع بتعدى أحد الفريقين على الآخر وعلى الخصوص فى بلاد
الصعيد التى يسكنها معظم الإقباط . وهذا كله دليل على ان التسوية
بين الحكوميين تكون الجامعة الوطنية) .

ويقول خطيب الثورة العربية فى موضع آخر :

(ومع كون الإقباط عاشوا دهرًا طويلا وهم اصحاب مشيئة
واحدة يأمرون بأمر رئيسهم الدينى وينتهون بنيه فانهم لم يجتمعوا
يوما لتفريق عصا الجماعة ولا لشق ثوب الائتلاف ولا تنافروا مع
المسلمين بسبب من الأسباب دينيا أو دنيويا ولا مالوا للخروج من ظل
عدل الحكومة المصرية الى حرارة غيرها لعدم الموجب) .

وقول عبد الله النديم يعود بنا الى الأمس البعيد والقريب .
ففى سنة ١٨٧٤ عندما شرعت نظارة الحفائية فى التحضير للمحاكم
المختلطة ، انضم بطرس غالى باشا الى محمد قديرى باشا فى ترجمة
قوانين هذه المحاكم الى اللغة العربية وتعريب التشريع الذى مازالت
مصر تأخذ به الى اليوم . .

ان مصر بلدنا معا .

لقد أنشأ بطرس غالى باشا الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨١
فخطب الافتتاح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله
النديم .

وأقال الحديوى عباس الشيخ سليم البشرى من مشيخة الأزهر
فخف اليه بطرس غالى باشا يعرض مساندته ويقف الى جانبه .

لقد مات بطرس غالى مقتولا برصاص ناصف الوردانى ، كما مات
من بعده أحمد باهر مقتولا برصاص محمود العيسوى . والقاتل
والقتيل فى الحالين كانا يعملان لمصر من وجهتى نظر مختلفتين .

ودافع محمد حسين هيكى عن بطرس غالى فى كتابه (تراجم
مصرية وغربية) دفاعا جاوز حد الانصاف الى التعاطف . ولم يتخل

عن موقفه هذا حتى في حديثه عن (اتفاقية السودان) التي وقعها بطرس غالى سنة ١٨٩٩ والتي حاول خصومه تحريف واقعها ضدّه في شبه اجماع على تحميله وحده وزرها الذي صنعتّه بعد هذا احداث عدة وملايسات وأوضاع تلت توقيعها .

لم تعرف مصر التفرقة الدينية . . لقد خلعها الاستعمار يوما عن حقيقة قدرتها فأوهبها أنها بلد زراعى ليصرفها عن الصناعة ويستبقيها سوفا لمتجانيه ، ولكنه لم يستطع ان يخلعها عن حقيقة قيمها فانهمزم في كل مرة حاول فيها الوقيلة بين ابنائها مسيحيين ومسلمين فاتحدت ثورتهم ضدّه بعد الاحتلال وسنة ١٩١٩ وسائر الثورات الشعبية . وظل الاقباط أبدا كما يقول الدكتور جمال حمدان (كتلة رصيفة رصينة من صميم جسم الأمة) .

ان الاسلام حضارته اسلامية نسجتها وأسهمت فيها البلاد المفتوحة خاصة فارس ومصر بسابقة الحضارة فيها . . والاسلام ينكر الغصبيات ويؤيد هذا الاستاذ صبحى وحيدة ، وهو مصرى مسيحي في كتابه (أصول المسألة المصرية) .

كما يؤيد هذا اختيار الاسلام عواصمه الحضارية في دمشق وبغداد والقاهرة .

لقد ناصبت مصر ، الرومان ، العداء حين حاولوا التدخل في عقيدتها المسيحية أيام وثنيتهم فقاتلتهم . وحين دانوا بالمسيحية وحاولوا التدخل في الطقوس والعبادات قاومتهم . وتمسكت برأيها في هذا واسلوبها فيه ، بل جنحت الى العناد فخالفتهم في الرأى لمجرد المخالفة ، خالفتهم لونا من المقاومة واعلان السخط والكراهية ، لونا من التحدى واثبات الوجود . وكان لمصر كنيستها الخاصة بها وبطيركها المنتمى اليها . مصرت مصر المسيحية (واستخرجت منها نسختها الخاصة : القبطية) . كما أشرت .

هذا حين لم يصدم العرب ابان الفتح ، مصر ، في عقائدها وتقاليدها فعاد الرهبان من صوامعهم في الصحراء الى مزاولة وظائفهم الدينية السابقة ، كما لم يتدخل العرب في أسلوب الحياة اليومية بعاداتها وتقاليدها المميزة بقيت كما هي الى يومنا هذا في الميلاد والأعياد والوفاة نمارسها الى اليوم مسلمين ومسيحيين .

ان مصر تهتم - بالجوهري لا بالتفصيل .. ونحن المصريين اليوم نتبادل زيارة الاولياء والقديسين دون شعور بالتفرقة او التعصب ... كلها في نظرنا مزارات .

بل اننا كنا في القرون الاولى من الفتح نتبادل (قناديل) الكنائس وجامع عمرو عند الاحتفالات الدينية .

وهنا اعياد تجتمعنا معا امة واحدة كما كنا قبل الاديان فعيد الربيع ووفاء النيل وليلة النقطة ... كل هذه اعياد مصرية قديمة صاحبتنا مع الزمن وصاحبناها الى يومنا هذا .

ان جوهر الدين في مصر ، في كل عصورها ، واحد . فالوثنية المصرية القديمة في جوهرها الاصلى ادراك للخالد خلال العابر وقد وصل الخاصة عندهم الى التجريد والى فكرة الاله الواحد ..

وعلى الديانة المصرية القديمة قامت اليهودية والمسيحية اللتان تأثر بهما الاسلام واقرهما .. وان مصر حين دانت بالمسيحية فانما دانت بها لأنها تعبر عن ضميرها بل ان الديانة المصرية القديمة في آخر عهدها اوشكت ان تكون مسيحية قبل المسيح بما نزعته اليه من رغبة الخلاص والتماسه داخل النفس حين يثبت من العالم الخارجى وآضت الى الصحراء ، وآوت الى العزلة للتأمل والتبتل . فمصر في عهدها القديم عرفت النسك كما سنت الرهبانية في المسيحية ومنها انتقلت الى اوروبا اجل منحة اهدتها المسيحية المصرية الى المسيحية الاوربية بل يرجحون ان تكون طبيعة مصر هي التي اوحى الى اليهود بعبادة التنسك فالصحراء في مصر شديدة القرب من اى شخص يريد اعتزال العالم .

واذا تأصل في مصر هذا الطابع لعبت دورا كبيرا في التصوف الاسلامى شهد به ماسينيون وبركلمان حين أطلقا على (ذى النون) واضع الحجر الاساسى في صرح التصوف التيوزوفى الاسلامى .

التقوى الحقيقية عند مصر هي الحب .. حب الله وحب المعنى .. وحب الانسان .. وحب الحيوان .. وحب الأشياء .

ان التعاطف مع الانسان والحيوان والأشياء المبسوطة صوره ورسومه في لوحاتهم رمزا للطيبة والودادة التى تصادق كل شيء ، رمز ايمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفة والمتصوفة واصحاب النظريات لا باعتبارها عرفا واصطلاحا ، بل باعتبارها كما يقول الاستاذ

حامد سميد ، (موقفا تجاه الحياة تتحقق فيه قيم ومشاعر الرواقية والمسيحية والصوفية والبطولات النفسية دون أن تكون واحدة من هؤلاء بالذات) .

التقوى الحقيقية عند مصر تتمثل في .. الفن . حين جسمت عقائدها في الروح والبعث والخلود أهرامات ومعابد ونقوشا وهكذا كان الفن عند مصر مدخلا الى الدين حين يفهم عباد النصوص من الدين معنى الخوف من العقاب والرهبة من الحساب والفرع من النار ... وقمة التمسك بالدين في رأيهم هو التعصب له !!

وفي الفن المصري تعانق الاسلام والمسيحية لانهما معا ينبعان من الفن المصري القديم . وفي مكتبة جونا كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق في كتابه (الفن المصري الاسلامي) « في مدينة ميونيخ رق يتضمن صفحة من القران بها زخارف بسيطة واشربة تفصل بين السور بعضها وبعض تتضمن زخارف هندسية متأثرة بالفن القبطي الى حد بعيد . »

ان جلود الكتب في العصر الاسلامي انما يحدد تاريخها الكتابة القبطية الموجودة على اوراق البردي المستعملة فيها :

وليس البردي وحده او زخرفة الكتب ، بل ان التقاليد القبطية في زخرفة الخشب استمرت سائدة بعد الفتح العربي .. ويضم المتحف الاسلامي الكثير مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية .. بدا يشهد المسلمون .. وبرومة الزخرفة الاسلامية يشهد المسيحيون ، فالاستاذ بشر فارس في كتابه القيم (سر الزخرفة الاسلامية) يقول (ما احسبك تلقى ملة كبيرة تحضرت فأنست باللطيف والدقيق من العمران ، تسلم سكانها لأسرار دينها ، وتوثق اشاراتها بأحكام مفروضة ، فوق ما أسلمت الملة الاسلامية وأوثقت) .

ومضى يفسر الزخرفة الاسلامية مستلهما روح الاسلام بما يشهد بتفوقه فيه ، كبار الفنانين المسلمين .

لقد استعان العرب بقط مصر ، خارجها ايضا فاستعان بهم الوليد في بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى وقصر أمير المؤمنين ، ويضيف « البلاذري » في فتوح البلدان مسجد المدينة فيما أعانوا عليه . وكان الوليد يترسم خطا أسلافه الذين استعانوا بأقباط مصر في إعادة بناء الكعبة قبل الاسلام .. وكان مصر منذ بنى ابراهيم

واسماعيل بن «هاجر» المصرية ، الكعبة آلت على نفسها ان تكون البناء على يديها قعادت الى بناء الكعبة أيام الظاهر بيبرس ، وفي العهد العثماني ، وفي عهد محمد على .

ان اقباط مصر هم الذين بنوا اول محراب مجوف في الاسلام على مثال من حنية الكنيسة كما تآثر بفن مصر المسيحية في الزخرفة والبناء قصر المشتى في شرق الاردن الذي يلمح الدير الأبيض والدير الأحمر بسوهاج . ومن عطاء مصر للفن الاسلامي بعد المحراب : المئذنة والقباب . جاء في كتاب فن مصر خلال العصور :

(ان فنار الاسكندرية الذي بهر العرب عند فتح مصر ، هو الاصل الفني للمئذنة) .

ان السموق الذي يزهو به النخيل المصرى ، يتمثل في عمود العيد والكنيسة ومئذنة المسجد معا وكأنه شوق الى أعلى وتوق الى فوق .

لقد نهض المصريون اقباطا ومسلمين في العصر الفاطمى - وهو العصر الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول في تاريخ مصر من الناحية الدينية - بالفن الاسلامي المصري نهضة فيها من احساس مصر ووجدانها وذوقها الحضارى ما أضفى على فن مصر الاسلامية طابعا مميزا وشخصية فذة حتى ان بعض آثاره كمشهد الامام الشافعى يعد كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق متعمد النظير في مصر بل وفي العالم الاسلامى أجمع

ومن هذا المستوى مدرسة السلطان حسن التى اشاد بها الرحالة من شرقيين وغربيين وفي مقدمتهم المقرئى .

يقول الاستاذ محمد شفيق غربال في كتابه (تكوين مصر) ، (ان طرائق الفن القبطى واساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة في فنون مصر الاسلامية وصناعاتها وهذا دليل آخر على أهمية المنصر المسيحي في تكوين مصر) .

: لقد تعانق الاسلام والمسيحية حتى في علوم اللغة والدين .
فنن (ورش) المصرى القبطى الدائع الشهرة في علم القراءات اخذ علماء الغرب عن تلميذه (أبى يعقوب) الأزرق بن عمر بن يسار المصرى .

ومن رجال مصر من الأقباط الذين أسهموا في التأليف في علوم العربية وآدابها :

سعيد بن بطريق ، وبنو العسال وجرجس بن العميد المعروف بابن المكين صاحب كتاب (تاريخ المسلمين) والمفضل بن أبي الفضائل صاحب (نهج السديد والدرا الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) .

وبطرس أبو شاعر ويعرف بابن الراهب .

وابن كبر وهو شمس الرياسة أبو البركات .

وأحمد بن ممتى الشاعر الأديب صاحب الحظوة في الدولة الأيوبية .

ان مصر لم تعرف الفتن الأهلية الدموية كالتى وقعت في إنجلترا في عهد تشارلس الأول وانتهت بقتله ، والتى وقعت في فرنسا في عهد لويس السادس عشر. ولم تنته بقتله فقط بل اشتد ظلها للدماء فاستباحث الثورة عليه ، القتل ، حتى امت على أصحابها أنفسهم. وما تخلل هذا كله من مأس فصلها الأستاذ عبد الله عنان في كتابه (ديوان التحقيق والمحاکمات الكبرى) .

لم تعرف مصر الحروب التى دارت بين المدن اليونانية .. ولم تعرف مصر محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق وما وقع في إسبانيا من الأحداث الدامية بسبب التعصب الدينى من أناس يدينون بدين الرحمة والمحبة والخير .

ان من يقرأ محاكمة الليدى جان جراى ملكة إنجلترا يتبين ان الدافع القوى على اعدامها هو كونها بروتستانتية حين كانت الملكة ماري التى حاكمتها كاثوليكية !! . اما التعللات الأخرى فمارى تعلم جيدا ان جان جراى ذات السبعة عشر ربيعا لا يد لها فيها ولا مطعم لها ، كان ، فى العرش .

لقد عرفت مصر حياة الدين ، ولكنها لم تعرف التعصب فى الدين أو الضغن بسببه فسلم الدين فيها كما يقول الأستاذ العقاد - فى كتابه عن (سعد زغلول) - (من لولة العصبية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية الا أن يتسلل إليها من طائفة غريبة أو نحلة دخيلة) .

يقول الاستاذ العقاد (ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية .. فمن الحقائق الواضحة ان المسلمين والمسيحيين ، سواء ، في تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتساب الى هذه البلاد) .

ويقول الدكتور سليمان حزين في بحثه عن (سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسي) كما أشرت ، ان الطابع الجنسي العام للمصريين قد وحد واتخذ صورته المميزة قبل ان يكون هناك أقباط ومسلمون .

رحم الله الشاعر ولى الدين يكن حين قال :

ابنى المسيح واحمد انتبهوا

ودعوا رجالا منكم هجموا

ارواحكم من بعضها قطع

وجسومكم من بعضها بضع

لا تحسبن خلافكم ورعا

ان الثلاكم هو السورع

ان مصر مسلمين واقباطا مثال التجانس الشديد والفريد فكل من الاغلبية والاقلية على حدة ، كما يقول الدكتور جمال حمدان (لا يعرف أو التشيع التشرزم الطائفي ، والكل يؤلف وحدة وطنية على درجة فائدة من التماسك في الوطن العربى . وباستثناء لبنان ربما ، فان مصر هى البلد العربى الوحيد الذى لا يعرف القبائل ولا القبلية ولا مشاكلها السياسية والاجتماعية التقليدية . ولهذا فان مصر بتجانسها ووحدتها تتحرك كتلة واحدة عادة دون ان تعرف الانقسامات والشظايا التى تفكك كثيرا من الشقيقات العربية ، مما يمنحها ثقلا فعالا ووقعا يربد عن ثقل عدة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها . ولهذا فان الاستقرار السياسى - حتى فى ظل الاقطاع - سمة واضحة تتباين بسهولة مع احوال المشرق العربى مثلا . وفى النتيجة فان مصر اقوى قوة فى العرب مرتين مرة بمطلق حجمها، ومرة بتجانسها المطلق) .

تجانسنا لأننا مصريون أولا ... لأننا ننتمى الى هذا التراب
أولا وأخيرا ...

تجانسنا لأننا كما قلت مصريون قبل الأديان وبعد الأديان ...
وسنظل مصريين ومتجانسين ، بمشيئة الله ، حتى آخر
الزمان .

كَلَبِيَّات الشَّخْصِيَّة المَصْرِفِيَّة

- اختلال المفاهيم
- التقليد
- افتقاد القيم الحقيقية
- الخوف
- النفاق
- الفراغ والهدر
- الأمية
- المبالغة بين التهوين والتهويل
- ضياع الفرد

اختلال المفاهيم

لقد كتبت عن خصائص الشخصية المصرية ومزاياها من ولوى بمصر .. ولكنى اليوم اتحدث عن الجانب الآخر من الشخصية المصرية، من ولوى أيضا .. فالمحب الصادق ينفار على حبه الكبير من النقص أو ما يلحق به من عيوب ... عن الانسان المصرى اتحدث بأحاساس الولى الذى يرى العيب صيبه ، عليه كصاحبه ، محسوب .

الواطن المصرى عيبه فردية متفخمة مرفضة المسئول عنها البيت المصرى ... فردية نعانى منها فى صور مختلفة ...

ان الشخصية وعى بالقيمة أما الفردية فوعى مفرد بالذات . وان الوطنية ليست اخلا بل التزاما بالاضافة للخلافة الى رصيد الوطن من القيم ... فالقيمة تولد فى اعطاف العمل ... أما الوطنية التى تستعمل فى التعصب المجرد للمكان ، فوطنية بدائية يشترك فيها الانسان والحيوان والطير .. ولكن ان يحتوى الانسان المكان، ويهب نفسه للمكان بما يعطيه من ذاته فنا وخلقاً وعلماً وروحاً فتلك هى الوطنية بمعناها الرفيع ...

هذا المستوى من الوطنية لا يأتى بالادعاء .

أو القصر

أو القصد

وانما بالوعى بالمكان والتاريخ .

وانسان بلا وعى ، انسان بلا شخصية . فعندما يكون الوعى خلقتا للقيمة فهنا تكون الشخصية فى طريقها الى قمة .

✽ السلبية فالمواطن المصرى يلد له ان يحترف النقد والتلب كانه خلق كاملاً ...

ان الذى يرى عيوب الناس دون عيوبه انما هو فى الحقيقة يرى عيوبه مكبرة ... كبرها هو ليستريح حين يفتح نفسه أنه الأفضل ...
* من عيوبنا (شخصية الخولى) التى يتقمصها كل من وجد فى مركز السلطة .

* سوء فهم التقدم والتخلف حين يحصرهما فى الوسائل والموضوعة . ان التقدم يقاس بأن المجتمع اذا غاب فيه فرد لا يملأ مكانه أحد هذا معناه ان كل انسان فى مثل هذا المجتمع له شخصية متميزة ... له قيمة ... انسان عنده الرغبة أن يحقق أمل الحياة فيه ...

والتخلف ان يعدم الانسان المسئولية . ويسلم أو يطلب التبعية ... ان يسلم الانسان نفسه لانسان مثله يطعمه ويسقيه ثم يدفعه فى النهاية .. فرد فى قطيع وراء الرامى .

حتى التبعية الفكرية نوع من الأسر الخفى . نحن فى مصر نحتاج الى التحرر من التبعية الفكرية . والتبعية من قيود العصر بمحدوديته .

ومن أخطاء التبعية الفكرية ، افتقاد الوعى الدينى ... ان الدين يريد الحيوية والشعور بالعرة . فلا اله الا الله ينتفى معها تقديس انسان . أما الحيوية فتفسرها الآية (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) ٦٦ م الانفال ٨ ...

ومن هنا تضعف حين ننسى الله وننسى الدين (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) .

ومن عيوبنا : **التواكل أو الاتكالية** نقول (ان شاء الله) ونعنى فى قرارة نفوسنا التخلف من العمل المقصود . ان هذه المشيئة ان هى الا تأكيد للعزم فانا سوف أفعل كذا ثم هناك صمام أمن لما يطرأ مما لا قدرة لنا عليه . ولكن قائلنا يقولها حين ينوى الا يفعل متهربا .. وفى مشيئة الله عن الكذب منتدح .

والتواكل صفة يمثلها تعلق القربة بالمشيخة ... **ان الشيخ يعمل القربة ثم تصدقه** .. وبعد ان يستقر له الأمر فى مفهوم الناس ونفوسهم يأخذ وضعا ممتازا فيأكل الأحسن بمزاج الناس ، ويعيش أحسن برضا الناس . وقد ينتبه واحد فيطلق المثل (رزق الهبل على المجانين) ولكن حكمته تضعف فى الزحام .

كل هذا من أجل ان يستشعروا الراحة في (غسيمان) لحل مشاكلهم ... مع ان الشيخ يحل المشاكل بالطريقة التي تروقه هو وتنفعه هو ... وقد تنفعهم أحيانا بالمصادفة أو الإيحاء ... وكثيرا ما تضرهم وتكلفهم أقدح الثمن ...

ان حضارتنا زراعية والزراعة تحضّر الأرض للبدر وتحضّر ها في الوقت نفسه في محاولة رقى الى ذرى القيمة ..

حتى الصيد سعى ... تحرك نحو المطلوب لا بلهنية ذلك العاشق في أغانيها الذي يقول (يا مبن يجيب لى جيبى) وهو مسترخ فى كسل لليد أو بليد ... أو ذلك الشاعر الذي يقول (يا رايحين الغورية هاتوا لجيبى هدية) وهو جالس فى الشمس .

اننا نذكر أمراضنا الفسيولوجية وننسى مرضا خطيرا هو مرض الوراثة مرض الاسترخاء الفكرى ...

لقد قاد سعد زغلول ثورة ١٩ وهو شيخ .

اذن المعجز غير المعجز . (بفتح الجيم)

والجسم غير النفس .

(خليها على الله) ظلم ا « الله » ثم للوطن للنفس . هذه الاتكالية تتسمح بالدين ونفضى فى النهاية الى التخالذ والتفسخ حين يفقد الانسان تماسكه وطموحه .

ان الايمان والوطنية دعوة لا دعاية .

ومن عيوبنا أو مشاكلنا ما نتصايح به كل يوم : انفجار سكانى واعجاب المرأة المصرية بحشرة ذبابة الفاكهة ... المواصلات .. الزحام .. وأرى المصريين عددا محدودا ... قلة ضئيلة ... اقصد المصريين الذين حققوا هذا الاسم الفالى ... حققوه فى أنفسهم ... وحققوه فى أعمالهم ...

كثير من بيوتنا مفروشة ونفوس أهلها خالية خاوية مهجورة ... لم تفرش ... لم تتمرر بالقيم الحقيقية ..

لان حضارتنا زراعية ، فان النبات استأذ النفس المصرية منه تعلمت صفات العطاء والصبر وتجديد الذات والاستغلاء على الألم ..

شخصية مصر - ٢٨١

الشيء الذى لا نعيه ، كما يجب ، من الثبات هو الهدوء ... ان نفوسنا بعد سننى الخوف والالام ، مبعثرة من الداخل ... منكوشة كالهمن المنفوش ... لهذا لا توحى الصمت لانه اصلا ليس ساكنا فيها ... نسيت معانيه ومواقفه ... ونسينا ... ان تمثال رمسيس فى المحطة لحن كبير رائع لو إدرك السائرون فى ميدان المحطة كنهه لساروا على اطراف اصابعهم ... ولكن ما الذى يحدث فى ميدان المحطة اليوم ؟

ومن عيوبنا الفخر بانفسنا الى حد العنطنة او التهوين من انفسنا الى حد فقدان الثقة ... وفى الحالين تهتز الرؤية ويضطرب الحكم الصحيح على الاشياء ... ان الانحصار فى اطار الدائبة ، بدائية فى التفكير حين تكون الحضارة ، ارتفاع الى افق الموضوعية ... كما ان المهانة والاستهانة تطفى العقل والقلب خاصة اذا كانت بتركيز مكثف من الغير .

يقولون ان المصريين بالأمس القريب كانوا يسعون الى دفع البذل لينا ، ابناؤهم من الجندية ... ونسى هؤلاء ان العادات واحدة فى كل الامم ولكن الفرق فرق نوع . فما تتعالى عليه أمة من العيوب وتعتبر به غيرها انما كانت تفعله بالأمس القريب من قرن أو قرون ... ان اسطول نلسن وهو مفعرة انجلترا ، كان الانجليز يسكرون عساكرهم ليوقعوا للاسطول الانجليزى على عقد يربطهم به .. فقد كان بعض الانجليز يلجأ الى قطع أصبع من أصابعه ليفلت من بحرية الامبراطورية .

وحدث ان اكسرت براميل النبيد فى اسبانيا وسال ما بها على الأرض . فنام جنود جيش ولنجتون بطل واترلو ، الذى هزم نابليون ، ناموا على الأرض يلحقون النبيد المسكوب !!

كل أمة لها عيوب ولها حسنات ولهذا يحسن بنا الاندافع بالنقى ولكن بالمقارنة .. والمقارنة تكون على المستوى النظير ارتفاعا وانخفاضاً فلا يقارن الأوروبى علما من اعلامه بالبوذى الهندى ولكن يقارنه بغاندى مثلا ...

عندما اتهمنا الاستعمار ليوهمنا بالمعجز ويورثنا التخاذل ، تعددت ظواهر الاتهام فينا ورمينا انفسنا بالنقص فان رأينا ناجحا لا نعد نجاحه عملا عاديا او ذا اسباب معقولة بل هو عندنا طفرة ووثبة وأعجوبة وأثر محاباة ومحسوبة . واذا رأينا فاشلا لا نرد فشله

الى سبب ... والى هذا المعنى يرجع أكثر عيوبنا في الحكم كما يرجع اليه أكثر عيوبنا في الحياة والتصرف ، فنحن لا نثق في ديمقراطية الحكم لأن الديمقراطية أساسها ثقة الفرد بنفسه وبكيانه وبحقه . وقد أميتت هذه المعاني في نفس الانسان المصري . وليس من السهل أن تطلب من المطحونين ، بين يوم وليلة أن يفهموا هذه المعاني . فتطلع الكثيرون الى الآخرة تهربا من الدنيا . ولما كان الزهد أقرب طريق الى الاستعلاء فقد تعددت أسبابه وكثرت مظاهره من مخرفة وحرمان وعجز ، وكان لهذه الغيبية أصداء فظهرت مذاهب ودعوات وفرق وطرق للصوفية وأشباير . وازداد الاقبال على الأضرحة . وتسرب الخطأ في المفاهيم ، الى مفهومنا للولاية والأولياء .

حتى شكوى الزمان صورة لفهمنا الخاطئ للحياة فبيننا من يتوهمون أنه لا يدوم سرور أو حزن . ولهذا ظل وائر مالتق فينا الى اليوم . يضحك المسرور منا ثم يقول : اللهم اجعله خيرا ، كأنه يتوقع الشر ما دام سر حيننا ! وكان الشر في أهقاب الخير : لماذا ؟!

ركام من الهموم عانى منها الشعب المصري والانسان المصري .

وموقع مصر الجغرافي المادى وميزته التي تطمع فيه الطامعين في كل زمان ، عرض هذا الشعب لصدمات متتالية . فمصر بلد مفتوحة فلا جبال تحول دون العدو بل الصحراء صعبة تتميع المعارك فيها . وكان من اثر هذه البيئة أن عمد الشعب الى المصابرة والمراوغة الى جانب المهاجمة والدفاع . يقتل الرجل فيبغته في ظلال أعواد اللرة أو صيدان القصب .

ولما كان نظام الحكم في مصر فرديا في كل عصورها قبل ان تضع لها دستورا ، وحتى بعد أن وضعت لها دستورا اذا استثنينا فترات قليلة تنتفض فيها فتعلن ارادتها وتقول كلمتها وتعبير عن رأيها ، ومثل هذا الوضع لا تستقر فيه الحالة الاقتصادية لأنها لا تخضع للتداول وإنما تخضع للرفعة التحكيمية المحضة . فاذا كان الحاكم حازما جادا ضرب على أيدي العابثين واستقر الأمر له . واذا كان ذا نظر ملى بعيد يدرك شيئا من حال البلاد المحكومة من الناحية الاقتصادية عاد ذلك بالخير على الحياة . فالحكومة قوامها شخصية الحاكم اذا صلح استقامت الحياة ، واذا استبد كان وبالا على الحكوميين . وهذا يفسر شعور المصريين بأن مفاجآت الدهر لا حصد لها ، ولا عجب فهم مهددون ليس عندهم من الضمان ما يجعلهم يمشون في عملهم ليجنوا الثمرة أو

يجنيها بنوهم . ومثل هذه الحالة تؤدي الى شيء من النهم في الحياة الاقتصادية والخلقية . وتفري بالكسب باى وسيلة مشروعة ، كانت او غير مشروعة ، مادامت المسألة غالبا فلا توازن بين الفرص وانما الغرض هو الوصول من اقصر الطرق . والنتيجة الحتمية لذلك هي ايجاد فروق غير مهيبة ، ايجاد نظام الطبقات تحت اسماء مختلفة ، ايجاد طبقة غالبية وطبقة مغلوية . والأثر الطبيعي لهذا كله أن تنقطع الصلة بين طبقات المجتمع وتتلوث الحالة النفسية للشعب فلا ثقة نفسية تقرب بعضه الى بعض او تشيع فيه التعاطف النفسى فيندفع الى شيء من نواد أو تراحم يخفف من حدة غرائز التملك والاقتناء والسيطرة السائدة فيه .

وهذا الوضع المادى اثر للوضع السياسى وكلاهما اثر في الوضع الادبى . ومثل هذه الحياة التى تلقى ظللا من الشك في العدل تلقى في الروح ان الأرض ليست مجالا لحق يسود لأن الثقة في كل نظام ذاهية، وتوهم ان الحياة الدنيا شقاء ومحنة والفرار منها أمنية ، والنقص فيها محتوم . ولهذا الشك والياس اثره العقلى والعملى والنفسى والوجدانى .

اما الأثر العقلى ، فيبدو في ذلك الطابع الغيبي في التفكير والذى يتمثل في مثل قولهم عقب كل شيء .. هكذا أراد الله .

اما الأثر العملى ، فيبدو في الخفاء والاحتيال الذى كان يسود الحياة في مصر ، فالمهارة في التخفى كانت الطريق الى النجاح في الحياة العملية ، والرغبة في التخفى لها انعكاسات في الأثاث المصرى والأبنية المصرية الى عهد ليس ببعيد . ففى الأرائك والاصونة سراديب متداخلة وفى البيوت القديمة لا ترى شرفات ظاهرة بل (مشربيات) حاجبة . فالحياة المصرية كلها كانت قائمة على هذا التخفى بل ان طاقة الاخفاء التى يتردد ذكرها فى أقاصيصنا هى انعكاس لهذه الرغبة في التخفى .

والقرية المصرية تتجمع بيوتها وتتساند حتى ليسهل الوثب من سطح بيت الى آخر ، بينما القرية الغربية بيوتها متناثرة ، وتجمع بيوت القرية المصرية حتى لتبدو قطعة واحدة انما هو انعكاس للخوف اذا استنجد احدهم لى الجميع .

اما الأثر النفسى ، فيبدو في النفوس التى لوها الشك والياس والحرية ، يبدو في النفوس التى سلبت الطمأنينة والراحة فقدت بذلك كل شيء واصبحت حياتها جحيما لا يطاق ..

اما الاثر الوجداني ، فيبدو في الادب الذي اسف فكذب حين مدح الظالم وهو ينقم عليه ...



هذه الحالة العقلية والنفسية والوجدانية حدث الى اضطهاد الفلاسفة والعلماء ، لمحض التفكير . وقد قاسى جمال الدين الافغانى والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الكثير ، مع ان الفلسفة الاسلامية قوامها التوفيق بين الدين والعلم ولكن الناس ليس في نفوسهم ما يوحى الثقة بهذا ، هم لا يؤمنون بان الحياة تجرى وفق نواميس ثابتة بل كل شئ عندهم قابل للتغيير ، والكون على حد تعبيرهم بين اصبعين من اصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء . والفن قائم على هذا وفيه منه اصداء .

واصداء هذا في الفن ما نراه من شكوى الزمان ، ومدح الحاكم المذنب في الادب الكاذب ، وترديد الشعب لمثل هذه الاسئلة (تبقى نار وتصبح رماد) و (ان حلى زادك كله ، كله) فالادب العامى الذى هو ادب الشعب وظل نفسه ينم عن حيرة وقلق نفسى ينتهى الى التفويض والتسليم بقضاء الله . وما كان الله ليقتضى بهذا ... واغلبنا لا يفهم المعنى الدينى فهما قريباً . فان قرأت عليهم (ليس للانسان الا ما سعى) فهوها الى جانب غيرها من آيات التوكل فتغلب عليها . والمحافظون من اهل الاديان يميلون الى انكار السببية ، فالآلة الكريمة (ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) الباء في رأيهم للالصاق ... لا للسببية ... وهم يفسرون كل شئ يجرى تحت عيونهم بوحى هذه الغيبية التى يعتنقونها .

من عيوبنا الحزن الشديد عند الموت والاتيان بمالا يفعله شعب آخر من الشعوب ... ولكى تحكم على شخصية تعرف على موقفها من الحياة والموت . وهنا يقسو علينا الحكم من ظاهرها ما نأفيه ... مع ان مصر في عصر قوتها تجاهلت الموت بعدم الذكر او تحدته بالارتفاع فوقه ، وبسرعة

الحياة كلمة غامضة مبهمة عند الكثيرين وكذلك الموت . الحياة والموت المعنيان اللذان لاتعلمهما في مدارسنا مع انه ما من مدينة في العالم فيها اضرحة بعدد ما في القاهرة . ومصر منذ القدم تزور الاضرحة . وما « الرحمة » الا امتداد للقرايين ... ولكن الاضرحة

القديمة اى المعابد كان فيها نقش وتصوير وموسيقى اى فرحة الحياة
لا كتابة المقابر .. وبحس بعيد من هذا يقول الاستاذ العقاد .

اذا شيعونى يوم تقضى منيتى
وقالوا اراح الله ذاك المعبدا
فلا تحملونى صامتة الى الثرى
فانى اخاف اللحد أن يتهيبا
وغشوا فان الموت كاس شهية
ومازال يحلو أن يغنى ويشربا
وما النعش الا المهد مهدبى الردى
فلا تحزنوا فيه الوليد المغيبا

ولا . تذكرونى بالبكاء وانما
اعيدوا على سمنى القصيد فاطربا

ان الموت من الناحية السيكلوجية يضاهى الولادة فى الاهمية . انه
هدف للحياة الكبرى على مستوى الكون لا المستوى الفردى .

انه نقطة التمام لا النهاية ويعجبنى هنا رأى الهند فى الموت : ان
الموت لا يتقضى على الحياة ولكنه فقط يطفىء الشمعة لأن الفجر يؤذن
بالطلوع .

نقطة التمام لا النهاية .. ولهذا يجب ان يحقق الانسان ذاته وعمله
قبله . ومن هنا نفهم الآية الكريمة ، ونفهم فهم الرسول عليه السلام
لها : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم
الاسلام دينا) .

والمتصوفة يدينون بالقول (مت لتحيا) ويسسمون الموت قطع
العلاق . فالذى خرج من الحياة ، ميت فى الظاهر .. ولكنه فى الحقيقة
تجرد من الدنيا ... وتجرد فوقها ... يعرفها من عالم الروح .

حتى الجسم يتخلص من أوصابه

وما دام الموت نقطة التمام لمن عاش حياته فى ولاء وامتلاء ، ففيم
الحزن الا على فراق ؟ .

ومثل هذا او قريب منه نستطيع ان نقوله عن السن : فان من
يحيا غرائزه فى الصغر ، يستطيع أن يستغنى عنها فى الكبر .. فلا يأس

على الشباب لأنه عاشه وترشفه حتى الشمالة بل يستقبل الشيخوخة باعتبارها مرحلة من مراحل العمر ليست أرذلها ولكنها أنضجها وأذكأها ... أعداها وأرقاها ...

ان الشباب عافية البدن

والشيخوخة عافية العقل .

كان (يونج) يستعين بفكرة الخلود في علاج كبار السن من مرضاه لونا من الحزن ولكن المسألة أكبر من هذا .

ان فكرة الخلود عملة تتعامل بها لا مع كبار السن فقط ولكن يجب أن نرى عليها أطفالنا حتى نمد لهم للحياة باعتبارها باقية ، وباعتبارها تحضيرا ومرحلة لحياة أخرى .. فلا يتساءل انسان عن جدوى العمل الطيب في هذه الدنيا أو معنى الجهد المبذول ...

هنا يتضاعف الكفاح ويحلو

ويعمق المعنى ويبين .

وفي ضوء هذا نشرح لأطفالنا اهتمام وطنهم بالموت والخلود ... وكيف كان اهتمامه هذا ، منطلقا ، لكل ما أيدته حضارته .

الحياة فن ... اسلوب حياة .

والموت أيضا فن ... بمعنى ان يهب الحى نفسه لمعنى كبير أو عمل كبير .. أى لانجاز رائع ...

نظر تلاميذ سقراط اليه وهو يحاضرهم مازال ، والكأس أمامه مملوءة بالسّم الزعاف تنتظره ليشربها ... نظر التلاميذ اليه والى الكأس وقالوا له :

- ألا تحضر نفسك ؟

فابتسم وقال : لقد عشت طويلا عمري أحضر نفسى لهذه اللحظة ... أى أن يموت فيلسوفا ...

خالد بن الوليد كان يشتهي ان يموت بطلا في ساحة المعركة . فلما مات على فراشه قال : ألم يبق في جسمى موضع ليس فيه اثر سيف أو طعنة رمح .. وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير فلا نامت أمين الجبناء ..

اي ان موت القائد على فراشه ، غيره في ساحة الشرف ..
الم اقل ان الموت فن ؟

ان المسيح صلب ام لم يصلب فهو مثال للتضحية والاستشهاد
بجهاده ، واستعداده ، وفلسفة حياته ، ودعوته ..

وشهيد الحق في كربلاء ، الحسين بن علي أبو الشهداء مثال
لشجاعة الرأي والموقف والضمير ... ومن ثم مات قاتلوه وعاش هو
بل عاشت باسمه الدول والملوك ، وتجسد فكرة ، وتجسم معنى ،
يطوف به وبطيف الانسان ، والكلمات ، والتاريخ ... ثم يظل بعد كل
الذي كتب عنه ، ونظم فيه ، أعلى وأعلى واكبر ..

ومن عيوبنا أننا ليس لنا أسلوب . ان اهتمامنا بالاستيلا
والمودرن يكشف عن فقرنا في (الأسلوب) . لو أن لنا أسلوب ما بحثنا
عن طراز غريب .

قد يكون هذا لأن الأسلوب عزيز النال لا يصل اليه الانسان
الا في ذروة عمر ... لا يصل اليه الا في تكامل نموه النفسي حسب
ظروف زمانه ومكانه ...

ومن هنا نهوى التقليد .

التقليد

ان مصر فى عصور قوتها كانت القوة عندها ترتبط بالريادة والابتكار والابداع ... حققت هذا فى الدين والعلم والفن مما يشهد به جوستاف لوبون فى كتابه من تطور الامم والتحولات فى فنونها .

فى هذا الكتاب قال المنصفون بسبق الحضارة المصرية وتفوقها وتلقاها وتقليد الاغريق والفرس وغيرهم لها تقليد ظل متواصلا ومتطلعا ، بضعة قرون .

ولكن مصر فى عصور الضعف لا يرى أهلها غضاضة فى تقليد الغير ... ففى القرن التاسع عشر كان البيت المصرى يطلق على الشئ الذى يحلو فى عينه (عصملى) نسبة الى الاتراك العثمانيين ، وفى القرن العشرين ، الحلو ، الأفرلکه ثم مستورد . أما الوحش فهو (بلدى) .

ونسینا ان التقليد قتل للذات ومسوخ للآخرين ...

لست ضد التطور والنمو فان ميزة مصر الاولى اتها اول بلد بنى لنفسه شخصية ظلت تتطور وتنمو عبر العصور فى تواصل وبلا انقطاع .. ومع وجود النكسات والهزات والكوارث .

انفتحت على ما عند الغير واخذت واعطته .. وبمت به ونمته . فالبلد الواهمى كالانسان الواهمى يتقلدى بما فى الثقافات كلها توسيما للوهمى وتمميها للأصالة ومددا للخلق

فعل هذا الاسلام حين انفتح على ما كان متاحا فى وقته واخذت الشخصية الاسلامية واثرت واعطت عطاءها من خلال رؤية لها جامعة .

لقد تأثر الخط العربى الكوفى بالصين فى اختتامها دون ان يقلد
وبهذا تحولت العطايا الصينية الى هدايا اسلامية .

ان التقليد مسخرة اذا عرفنا ان هذه الكلمة جاءت من كلمة Maskarade
اى التقليد المضحك .

نستطيع فى المديح والفن والصناعة ان نطوف بالعالم كله ونرى
ونتعلم ويتسع وعينا ونهضم ونتمثل دون ان نفقد خاصيتنا الاولى
اى نطوف بالكيان المصرى فينا ...

فليست المعاصرة عزوف كامل ومتعمد عن المألوف .
وليست الجدة قلب الصورة دون عطاء حقيقى .
وليس التجديد رموزا سطشية .

وليس التقليد علامة تطور أو طلاء ... لأن الطبيعة غنية «
لا تستعمل ورق كربون بل تخلق وتجدد دائما الا فى القوائم المتطابقة .
ان التكعبية مثلا نشأت عن ذكاء الانسان الأوربى ، مع الانتاج
الصناعى الآلى ، وفى المدينة التى يمزجها الاسفلت عن التربة ، وفى جو
يشبه انبوبة الاختبار

فى هذه البيئة اطل سؤال : اين تكمن فنية الفن ؟
وكان الجواب : فى علاقة الأشياء بالاشكال ، اى التكعبية .

وهنا مضى الانسان الأوربى والباريسى خاصة يحرر الأشياء
من المعنى . وكانت النتيجة : ثورة تسمى السريالية التى طرحت
اسلوب النسب المحسوبة وحاولت الاهتمام بالمعنى الى حد تجريده
من الشكل !!

هل مررنا نحن بهذه الملابس والاعتبارات حتى نقلد التكعبية
أو السريالية ؟

لقد حاول جيته وليوناردو الازرقاء بأوروبا من العقلانية الى ما
وراء حدود الذهن ، حين حاول غيرهم الخروج من العقلانية بالوقوع فى
اللامعقول لأنهم عجزوا عن الشمول حين ربوا على التحليل وحده فلم
يعرفوا كيف يتكاملون .

ان أزمة بيكاسو افتقاد التكامل .. انه يرود آفاقا كثيرة ولكن
من باب الشئ وضده . حين تحاول لوحات ليوناردو الجمع بين :

الظاهر والباطن الانسانى والكونى العملى والفنى

أى حاول دافنشى التكامل .

ويكاد يكون طابع اوربا هو العزوف عن هذا التكامل كما لو كان
العكس هو المقصود .

ولامر ما لا تتراح الشخصية الغربية الى الاستقرار كأنها تخشاه .
... فجاءت مذاهبها الفنية ينقض بعضها بعضا . . ولهذا لا تشفى
النفس لأنها لا تعالجها من تشققها وهو داء ، دواؤه فى التكامل . . . فى
التوحد مع الكون والارتباط به فى روع المتدين وحب الصوفى .

حذار ان تقع فى خطأ « الطالب » فى « فاوست » حين نأخذ
بالمذاهب الفنية دون فهم ، ولكن مصر حين ابتكرت قديما ، تبهز العالم
الحديث اليوم .

لا نريد ان نمشى وجوهنا الى الخلف ولكن نمشى الى امام وأهين
بالخليفة التاريخية . . ان التقدم ليس مظهرا كالبه الف ليلة واليلة الذى
ألبسته زوجته وصاحبها لباسا تركيا وهو نائم غافل . . . فلما
استيقظ ظن نفسه تركيا وسافر من توه الى بلاد الأتراك !!

ان الكساء الخارجى عارية لا يصنع شخصية ، ولا يكسب
جنسية الا اذا كان نابعا منها ، منسوجا من خيوطها أى ممثلا لها .
ان العالم المتقدم أيضا ، يمانى ثقافيا ثم ندمو الى التبعية الثقافية
بدموى التقدم !

نريد ان نكون قادرين على العطاء بلا تبعية، وبلا سلغية ، وبلا انزال
... بلا نزعة عدائية لشرق أو غرب . . . قديم أو جديد . . . قادرين
على العطاء قدرة يتجدد بها نبض الحياة فى بلادنا من وعى بكرامة الانسان،
ووعى بالتراث ، ووعى ايضا بتأزم العالم المعاصر ثقافيا ومعنويا . . وعى
بان وحدة العالم لا تعنى مسح الشخصيات الاجتماعية أو نسخ
التاريخ .

فى محاولة اعادة الشخصية المصرية من جديد نقف وقفة عند
الدولة المصرية التى نئنادى بها . . . وهذا النداء يتضمن الاتجاه الى
الغرب باعتباره السابق ونحن نريد اللحاق به . . ومن الطبيعى

الاخذ بأحسن ما عند الآخرين . ولكن يجب ان نقف وقفة خاصة عند هذا الموضوع . فان الشباب يعيش في وهم كبير اسمه اوربا ، حتى اذا اتاح لهم ان يذهبوا اليها ، وان يعيشوا فيها ، شهورا واصواما ، انسليخ البعض عن قومه ، ومزق الصراع البعض الآخر . ذلك الصراع الذى صورته الأديب يحيى حقي في قصته (قنديل أم هاشم) .

وغير الشباب لا تزال المجتمعات الشرقية من رواسب الاستعمار عندها (عقدة الحاجة) يقابلها عند رجال الدين المحافظة الشديدة التى تصل عند البعض الى حد التزمت .

وفي صراع الدعوات والشعارات والآراء يعلو صوت الواقعية المادية والعلمية . ولست أرى من وراء هذا الحديث التهور من قيمة الصناعة أو العلم الذى غزا الفضاء وترك بصمته على القمر .. أبدا ولكننى أريد وسط هذه التيارات الزاخرة ، ان نتفاعل مع الحياة والحضارة الحديثة في تماسك يحفظ علينا شخصيتنا المصرية العربية الشرقية حتى لا يجرفها التيار فتضيع ... وتكون كذلك الغراب الذى تحكى القصة على سبيل الرمز أو الحقيقة ، انه استهواه مشية العصفور وفقراته الرشيقية ، فأراد ان يقلده بدون تفكير ، فانهى أمره الى مشية مضحكة ذهبت مثلا ...

كما ان المحافظة التى أمئنها لا تتعارض مع رغبتنا المخلصة في ان ننمى شخصيتنا ، وان نطورها ، وأن ننفض عنها غبار القرون والأحداث ...

لقد ظل الادب الانجليزى فترة طويلة من الزمن ، وهلى الاخص في عصر (بوب) و (دريدن) متأثرا بالادب الفرنسى ، وكان سوينبرن Swinbarnes شديد التأثر بالشعر الفرنسى كما كان كارليل Carlyle متأثرا بأدب المانيا .

ولكن تأثر هؤلاء بأداب غيرهم لم يفقد ادبهم قوميتهم وذاتيتهم ، بل زادته ثراء وعمقا .

وكان جوته شاعر المانيا العظيم يجيد اللغة الفرنسية الى حد الاتقان - هذا الى اتقانه اليونانية واللاتينية - حتى قيل انه تردد يوما هل يكتب بالالمانية أو الفرنسية ، ثم اخذ يدرس الادب العربى والفارسى . وفى السبعين من عمره طرح ثمرة عظيمة هى كتابه الفريد الذى سماه (ديوان الشرق والغرب) . وترجم القرآن الكريم ، بل لبس العمامة

وارتدى القفطان ، وفي اوربا ، تشبها بحافظ الشيرازى الذى كان يحبه
ويعجب به . ومع هذا ظل جوته شاعرا المانيا صميما يستلهم الشرق
والغرب فى آن . . . الصور شرقية والاحساس غربى . . . توغل كما يقول
احد الذين ترجموا له ، فى هذا العالم الشرقى دون ان يفقد شخصيته .
فهو يتبع القافلة وهى تسمى على مهل فى الصحراء ، ويسمع صوت
البلبل ونغماته الحزينة ، حول الغدران والينابيع ، ويصفى لهذا بانتباه ،
بل قرأ ترجمة المعلقات فى الانجليزية ثم حاول هو ترجمتها من تأثره
بها وحاول فيما حاول من معطيات الشرق ، الكتابة العربية ليتغنى
بالقلم العربى المسنون من القصب فى مقطوعته (القلم) .

كان جوته خير رد وأبلغه على رد يارد كسيلنج الذى قال (الشرق
شرق والغرب غرب وهيئات يلتقيان) .

لقد التقى الشرق والغرب بقيمهما فى جوته . . . فى فكره وفى
سلوكه فى ديوانه الذى يقول فيه :

من حماقة الانسان فى دنياه .

ان يتعصب كل منا لما يراه .

واذا الاسلام كان معناه التسليم لله .

فاننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين .

فاذا أضيف هذا كله الى ادبه وثقافته الغربية ، نشأ من ذلك
ازدواج موفق غاية التوفيق ، وكان بمثابة عهد جديد فى الأدب الالماني ، فان
الشعراء المعاصرين من الالمان لم يلبثوا ان أخذوا يقتفون أثره ، وانصرفوا
عن اناشيد الحرب والقتال ، لينشدوا أغاريد الشرق ، وكان أشدهم
تأثرا بجوته ، أو (ديوان الشرق والغرب) الشاعران : ركر وبلائين .

ومتى ظهر (ديوان الشرق والغرب) ؟ لقد كان هذا ما بين
١٨١٤ - ١٨١٩ فى وقت كانت المانيا تستمر فيه حماسة ووطنية كرد
فعل لغزو نابليون لها .

هذه المانيا . . . اما إيطاليا فان بعض الباحثين الغربيين يلمع اثر
العقيدة الاسلامية فى البعث والاخرة ، فى قصيدة دانتي : الكوميديا
الالهية .

التقى الشرق والغرب فى الحضارة الحديثة التى يعزوها (وايتهد)
الى : اليونان وفلسطين ومصر . من اليونان فلسفة ، ومن فلسطين

النفيس حتى ليرى (يونج) فيها ، اشارة ... فتحويل العناصر رمز الى تحويل النفس ، ولأمر ما سعى الغزالي كتابه (كيمياء السعادة) .
ومن هنا ، اتخذ أحد المصريين المحدثين الكيمياء فلسفة وطنيته فاهتم بها درسا وعملا ، تعبيرا عن مصرية وأصالة ...
وهكذا مصر ... العلماء والفنانون يخدمونها .. (والهتافون) يدوشونها ويزعجونها .

ان المادة مرآة الروح اذا صرف الانسان كيف يستشف المعنى من وراء المادة .. فنحن لا نهون من التقدم المادى الذى يزهو به الغرب . فالمادة فى ذاتها ليست رذيلة والشخص السئ ليس المادى ، ولكنه القاصر عن تحرير المادة من كثافتها ، والخروج بها الى شفافية المعنى . وهذا هو ما يفتقده الغرب .

ما هى دلالة المظاهر الصاخبة التى تقوم فى اشد بلاد اوربا تقدما ورقيا ؟ ان هذه المظاهرات تعنى التقاد هذه البلاد للروح .. لا اعنى ان هذه انعبارة تنسحب على كل من فيها .. ان الانصاف يقتضينا أن نقول ان طغيان المادة فى اوربا لم يطمس كل شئ فيها كما ان الايمان فى الشرق باعتباره مهبط الأديان السماوية كلها لا يسرى فى كل قلب ولا يلمس كل نفس حتى وان أدت الفرائض فى ميكانيكية آلية فكم من صائم بيننا ليس له من صيامه الا الجوع والعطش ، وكم من قائم ليس له من صلاته الا القيام والقعود .

ان الدين حسن الخلق وان الأعمال بالنيات وان انفع الناس انفعهم للناس ، وان العمل عبادة وان التفكير فريضة اسلامية لانها فريضة انسانية فضيلة اكرم المخلوقات ، وان احترام العقل الانسانى واجب دينى فهل ندرك هذه المفاهيم ونقدرها حق قدرها ؟ هل نطبقها فى حياتنا على المستوى الفردى والمستوى العام ؟

اننا نسمعل كثيرا ونحوقل ونشيع العبارات الدينية فى حديثنا حتى ليخيل الى من يرانا ان اطرافنا تقطر تقوى ولكننا فى بلاد القبلتين والمسجدين والأنبياء والرسالات نجد ان الإغم الأكثر من المستشفيات والملاجىء والمدارس من عمل الحكومات لا الأفراد الخرين .. ان اعظم عمل يقوم به الفرد الفنى منا فى نظر نفسه اذا هزته اريحة ان يبنى مسجدا والمساجد كثيرة والاسلام لم يحصر العبادة بين جدران اربعة .

ولو فتشت في التاريخ لوجدت ان عصر بناء المساجد الكثيره هو اشد عصور التاريخ الاسلامى ظلما وعسفا واستبدادا فأكثر مخلفات الممالك في مصر كانت المساجد ، والممالك هم من هم ، كما نعرف ، في الجور والنهب ، والسلب ، واستباحة الأئفس والأموال . فبناؤهم المساجد ما هو الا تغطية أو تكفير عن الذنب .

فنحن في سبيل الاحتفاظ بالنظرة الموضوعية وتوازن الشخصية الفكرية يجب ألا نعمم الآراء بغير استثناء وألا نطلقها إطلاقا مسطحا يحجب الأعماق ويحجب معها حقائق كثيرة .

نحن نشكو اليوم من أمية العقل ونفعل من أمية أخرى لا تقل عنها خطرا وهى أمية الشعور . . حين تعمز أوقافنا بالأمس القريب والبعيد بلفتات انسانية مضيئة فهناك وقف على الخدم الذين يكسرون بدون عمد آتية مخدوميهم وهناك وقف على الحيوان لأنه أعجم لا يبين وكثير غير هذا مما ينم على رهاقة الشعور وشفافية النفس .

أقول هذا حتى لا نستقيم الى القول بان الشرق روح والغرب مادة ففي ذلك الغرب أمثال اللورد نافيلد الذى أنفق الملايين حقيقة لا مجازا على اقامة المستشفيات والملاجئ ووجوه البر الإيجابية .

وفي الغرب المادى أمثال العالم الفرنسى جان روستان الذى اثبت في أبحاثه وجود عالم الروح وأعلن عن وجود قوة خفية تسيطر الكون .

وفي الغرب المادى متصوفة مثل سوينبرج يلتقون بالحلاج ورابعة العدوية . . وفي الغرب المادى زهاد كابى العتاهية يصلح شعرهم الروحى غذاء للنفس كالشاعر الانجليزى ولیم بليك .

وفي الغرب المادى أسر كبيرة وكثيرة تحافظ على أداء الفرائض الدينية محافظة دقيقة بل في الغرب أسر تنذر أحد ابنائها الله فتجد قسسا ورهبانا ينحدرون من آباء ذوى مراكز مدنية مرموقة .

واسر أخرى محافظة لا تسمح بالاختلاط المفتوح على مصراعية ولا تبيح الجلسة أو الرؤبة الا في نطاق الأسرة أو وجود أحد المحارم . وقصة اقتران لوس باستور بزوجه خير شاهد على هذا .

ان ستيفان زفيج في مذكراته يعزو رقى العلم في فرنسا الى الزوجة الفرنسية فهى بما تبدله من ذات نفسها لتوفير الراحة لزوجها انما تمنحه السلام النفسى الذى يعينه على الانتاج والعطاء .

ولكننا ننسى هذا كله أو نتناساه ولا نذكر للمجتمع الغربى الا الخلاعة المحصورة هناك فى مناطق معينة ، والا نظام التشرى الذى مكن له هناك استحالة الطلاق ، حين نفعل اخطاينا واحيانا عن عمد بدعوى الوطنية مع ان المرء مرآة اخيه .

اليسست النظافة فى ديننا مقرونة بالايمان بل هى منه حتى ليخيل الى من يقرأ النصوص والتعاليم ان الدين سدها ولحمته النظافة والحياء فهل نحن حريصون على مظاهر النظافة حتى فى انفسنا ؟ هل من الحياء فضولنا غير النافع الذى يدس انفه فى ثقب كل باب وينفق من وقته فى جمع الاخبار الصغيرة ما لو انفقته فى تحصيل علم أو جنى معرفة لائرى شخصياتنا فتغير الكثير من اساليبها فى الحياة ، وتعديل تبعاً لهذا التغيير الكثير من مفاهيم مجتمعاتنا واختفى الكثر من امراضنا الاجتماعية وتقدمنا خطوات نحو حياة أفضل ؟

ان تقديس العمل واجب ، كما أن تقدير العاملين واجب ايضا . فهل نحن وذوو المرتبات منا خاصة يلتزمون الامانة الواجبة فى تادية اعمالهم ؟ وهل عندنا نظام الحوافز الذى يكافئ الجهود المخلصة ويستحث الجهود التى على الطريق ؟

ان الذين راوا منا القرب على الطبيعة وتعمقوا الاشياء والدلالات عرفوا كيف يميزون الحدود الفاصلة بين الخير فيه والشر وعرفوا كيف يأخذون احسن ما عنده ويضيفونه الى احسن ما عند الشرق لينصلح امره ويبصر طريقه فى غير تشييط أو تضليل من دعاوى استعلاء أو غرور .

ومن هنا قامت نهضة الشرق على اكتاف رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده ثم اكتاف تلاميذهم من بعدهم .

بل ان الشيخ محمد عبده كان يقول بعد ان عايش الغرب حين كان يحرر (العروة الوثقى) فى باريس :

(ان اهل اوربا هم مسلمو هذا العصر .. اما نحن فكفرة) .

قد نكون معذورين فى نظرتنا الى الغرب بمنظار اسود فان الاستخراب ولا أقول الاستعمار قد لوث فكرتنا عنه وأورثنا البغض الشديد لكل ما هو غربى - وان كان بغضنا يقف فى الطرف الآخر متحمسا لكل ما هو غربى كرد فعل ، أو لون من الجمع بين الشئ ونقيضه ، أو لامعبارات شتى من نوعية الثقافة أو النشأة . قد نكون معذورين ولكننا فى مقام تقويم انفسنا وتمييز ذاتيتنا يجب ان نحرر

ارادتنا وعقلنا من أسر النظريات الشائعة والأقوال السائدة ونعيد النظر في كل شيء في موضوعية وتجريد علمي نزيه

ان ابن البلد عندنا فلسفته ان يتعامل مع الوجود بغير بحث مكتوب .. اسلوب حياة ... وهو يكره التعقيد والتقليد ويجمع هذا قوله لمحدثه اذا تقعر أو تشدق : بلاش فلسفة وهو يعنى بلاش بغبنة ...

ان داخل كل انسان ميلا للحياة ، قد يولد انسان ويموت دون ان يكتشفه ، ولكن هذا لا يعنى انه غير موجود ... وواجبنا ان نعين البشر على الانبعاث السلوكي على مستوى الأفراد ، ونعين الأمة على الانبعاث السلوكي على مستوى الجماعة

ومن هنا يتحدد موقفنا من حضارة الغرب ... بمعنى اننا نستطيع ان نستعين بعلوم الغرب وفلسفاته وبالوسائل الحضارية دون ان نفقد ذاتيتنا . فرجلهم (يونج) يقول (لا يمكن للانسان ان يصير غنيا بالاستجداء)

ان التعارض بين الشرق والغرب ، فات وقته كما يقول الاستاذ مريت غالي (لأن تعارضا أخطر قد برز في مقدمة المشاكل العالمية ، هو الناتج من مسافة الخلف بين البلاد الشمالية المتقدمة والثرية ، والبلاد الجنوبية المتخلفة والفقيرة ، وما التعارض بين شرقنا وغربنا في حوض المتوسط سوى جزء من ذلك التعارض العالمي بين الشمال والجنوب، الذي يتوقف على حله مستقبل الجنس البشري. واني أوافق تماما على ان ثنائية الشرق والغرب قد فات وقتها ، ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين) .

نريد ان ننظر الى الحياة نظرة مستقبلية لا تجذبنا الى الخلف والتخلف سلاسل الأوهام .. وذلك من أجل مصلحتنا نحن قبل الآخرين ...

نريد ان نتعامل مع الحياة في وعى بأن مستقبل البشرية اكبر من ماضيها ... وعى باستعادة الذات الاصيلية مجددة ومعاصرة ... وعى بأمانة الوطن وقيمة المواطن .

افتقاد القيم الحقيقية

حينما عاد النبي عليه السلام من احدى الفزوات قال :
عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر .
ولما سئل عن الجهاد الأكبر وهل بعد الحرب جهاد قال : جهاد
النفوس .

واليوم عاد الانسان المصرى من الضفة الشرقية بعد ان عبر
مانع الخوف والهزيمة والسلاح فما الذى يجب أن يأخذ نفسه به
ليحمى انتصاره ؟

الجواب فى كلمتين : العبور المعنوى العبور النفسى العبور الانسانى
اى العبور الثقافى ، فبغاه لا يجدى انفتاح اقتصادى او سياسى ،
ولا يؤمن العبور العسكرى الذى تم . ان أمية الشعور وأمية الفكر
تهدم كل بناء فى اى مجال .

والعبور الثقافى رؤية وخطة .

انتقال من نقد الغير الى نقد الذات للتخلص من عيوبها التى
تتجمع لتشكيل عيوب المجتمع .

وسؤال النفس ماذا قدمت ؟ انتقال من البكاء والاستعلاء الى
البناء الخلاق . .

ابصار بعد عشوائية ، وتركيز بعد بيفاوية .

وعزوف عن الارتجال الى المنهج

تخلص من الفردية والسلبية للخلوص الى القيم الحقيقية للحياة
وأهمها الحرية .

والحرية ترويض ورياضة وروضة .

وهي تتطلب العميق من الوعي والعمل الدموب حتى لا تتحول الى شعار او ستار .

والحرية لا تنسق ولا تتفق مع الأسر من أى لون ودرجة . وهذا يتطلب ان يكون للانسان (كرامة) أى ان تكون له ، قبل ، شخصية ان يكون داخله منظم لسلوكه واختياره ... ان يكون ناضجا والناصح له شخصية واحدة وانتماء واحد . وفيه الناصح بداخله عدة شخصيات فهو مشتق مشئت .

الحرية ليست هبة ولكنها هبة .

ان الحرية انتفاء للآلية ونفى للاضطراب يتحقق هذا المعنى في الانسان بل الجماد . فالخط المستقيم نقطة متحركة في اتجاه واحد ففيه معنى الآلية أما الخط المتوج فهو أكثر حرية ، لكن الجمال فيه ترتيب فيه بعض آلية داخل حريته .. وتزيد الحرية باختلاف الموجة بين ارتفاع وانخفاض .

وحين نسأل السؤال التقليدي هل الانسان مسير ام مخير فان معنى مسير ضد الحرية .. اما الحر هو المخير . مثل هذا الانسان اذا فعل فقد اختار ... ان التصميم هو الوضع باختيار ..

الحرية نمو على مستوى الفرد والمجموع .. ان عز الانسان الاول اعتمد على ذاكرته ، وقد بدأ مرحلة التحضر عندما بدأ يحرر وجليه الاماميتين أى يديه ... ولما تفرغت اليدان وبدأتا تعملان في حرية بدأ المخ ينمو ... والثقافة نمو النفس المتحررة من الخوف والعقد بحيث يكون لديها من الادراكات والمنجزات والطرح ما يمكن ان يتاح للنفس الانسانية الراقية .

ومن الحرية بل من الوطنية أن نحب الحرية لغيرنا ... ان وطنية المستعمرين « أنانية قومية » ... لهم الغنى والديمقراطية والحرية ... وللشعوب المغلوبة الفقر والاستعباد والذل ... ولا يستحوون بعد هذا ان يتشدقوا بحقوق الفرد وحرية الراى واحترام انسانية الانسان - وهم يعنون الانسان الابيض بالطبع - اما احترام انسانية الشعوب فموضوع آخر .

قتل امرئ في غابة جريمة لا تفتنبر
وقتل شعب آمن مسالة فيها نظر

وطنية ان نحترم اوطان الآخرين كما نحترم وطننا ... لقد دعا
حمال الدين الافغانى الى الحرية فى غير وطنه ، وثار « توم بين » على
الاستعباد فى كل مكان حتى لقد الب الأمريكيين على الاستعمار البريطانى
وهو الانجليزى مولدا وهوية لأنه كما يقول هلد جارد هورثون :

(الدنيا وطنه والحرية رايته) .

والحرية التى أريدها لا تتعارض مع الأديان بل تتبثق منها بما
كرمت الانسان ودعته الى التفكير . ان بيننا من يفهمون الحرية بمعناها
الضال والضئيل . الحرية ليست الحرية السياسية والاقتصادية
فحسب ولكنها بالدرجة الأولى الحرية الفكرية .

والمطالبون بعدم الحرية كالمبتلى المكروب الذى يرفض الحياة ،
فينتحر .

ان المسيحية ليست عقيدة وكفى بل درجة من درجات النمو
الروحى .

والاسلام ليست عقيدة فحسب ولكنه درجة رفيعة من درجات
النمو الروحى .

والحرية ليست شعارا ولكنها دوجة من درجات النمو الروحى
تحتزم معه ذات الانسان .

ان فرصة العمر هباء ان لم تستخدم فى تحقيق القيمة بأن
يكون للانسان فى وطنه عمل ومكان ورأى وإرادة ... انسان له وجود
حقيقى لا تعدادى . انسان له أسلوب حياة . انسان محسوب على
المعطاء لا على المواصلات والتموين .

والحياة بدون القيمة لا تطاق .

والحضيض حيث تهدر القيمة وتستباح .

قيل لبطل احدى المعلقات السبع :

— كر ياعتتر .

— العبد لا يحسن الكر .

— كر وانت حر .

وهنا ملأت بطولاته احدى المعلقات ...

الخوف

لقد عشنا مع الخوف حتى بننا نخاف من أنفسنا ...
وفي محاولة التصالح مع الآخرين لابد أن نصلح مع أنفسنا .
فالصلح مع النفس هو التوحد فلا انقسام ولا تشتت ولا مراك داخلية ،
ولا خوف ينعكس على الخارج فيورث صاحبه الخوف من الآخرين
لأنه قبل ، خائف في نفسه .. خائف من نفسه .. خائف من
الناس ...

الإنسان المصري مؤمن بطبعه وطبيعته لأن حضارته دينية ولكن
الخوف الذي طحنه في السنين العجاف حفر في مفهومه معنى الدين
.... أن الإيمان هو ما استقر في القلب وصدقه العمل ..

ان مصر معناها : دين + عمل .

وفي عصور الكلال والخوف كان الكلل الخائف يتسرب الى الدين
فيغدو ظاهرا ومظهرا .. والى العمل فيغدو مسخا وقيئا ...

ان الفرد فرع في شجرة المجتمع لا تقوى الشجرة الا بنمو
الأفرع .. والنمو هنا لا يتحقق الا في الطلاقة والارادة الخلاقة والحرية
المسئولة الراشدة ...

ان الإنسان البدائي هو الذي لا شخصية له لأنه يعيش في
قطيع ويتملكه الرعب أن يخرج على حرف الجماعة التي يعيش فيها ...
هنا تأتي الأديان فتتنظم نفس الإنسان وتمنحها الاستقلال النفسي
(افعل ما يطمئن اليه قلبك وان افتوك وأفتوك) ... يمنحها الطمأنينة
النفسية التي تجعل « بلالا » يعذب اقصى وأقصى العذاب فيقول : أحد
أحد ... لقد اطمأن الى عقيدة يهون معها ويهون معها بعدها كل
شيء ...

ان البطالة ليست بطالة اليد وحدها فاقسى منها بطالة العقول
بشمل التفكير ، وبطالة القلوب بقتل المشاعر ، وبطالة العيون بطمس
الرؤية .

ان اقصى وصف في القرآن الكريم الآية (لهم قلوب لا يفقهون
بها ولهم أعين لا يبصرون بها)

١٧٦ لك الأعراف ٧ .

ان البصيرة فقه ونفاذ

وان البصر رؤية لا ابصار فقد يكون المرء أعمى وله عينان . . ولكن
الخوف فشى عليهما .

سئلت هيلين كيلر بعد ان ولدت عمياء صماء عما تعتقد انه أسوأ
نكبة يمكن ان تحل بانسان ما . . . فقالت : (ان تكون له عينان ولا
يستطيع ان يرى) ، واشد سوءا ، في رأيي ، ان يرى ولكن الرؤية
محجوبة عنه حجباً .

لقد قطع الخوف ما بيننا ومزق مجتمعنا وقيمنا مع اننا بلد
الأسرة المتحابه وبلد الدين .

اذا اردنا ان نعيد بناء الشخصية المصرية علينا ان نراجع مفاهيمنا
للمبادئ التي تقوم عليها الاوطان وفي مقدمة هذه المبادئ (التحرر من
الخوف) أن J.A. Wilson يعزو ازدهار الحضارة المصرية الى تحرر
المصرى القديم من الخوف وإيمانه العميق بوجود رب يحميه مما
اكسبه ثقة في نفسه فجرت فيه قوى الابداع والخلق . يقول ويلسون
(قد تكون الحضارة المصرية حصيلة الموقع الجغرافي والأرض السماء
الخصبة المستدفئة بشمس أفريقيا . ولكن السبب الأكبر وراء هذه
الحضارة ، عقيدة المصرى القديم بأن مصر يحكمها اله هو ابن اله
الشمس الذى يمنح مصر الخلود فمم يخاف) .

انه اذن الايمان والطمأنينة والثقة .

وهنا مفتاح من مفاتيح الشخصية المصرية يجب ان نبحث عنه
فيما ضاع .

لا يمكن أن نعيد بناء الشخصية المصرية الا اذا خلقنا اولاً من
انفسنا مجتمعاً ناضجاً متحضراً يرفع الحق والجمال والخير
مجتمعاً كل شيء فيه محسوب فلا نفرق في المدح اذا رضىنا او رهبنا ،
ولا نسرف في الذم اذا عادينا أو غضبنا مجتمعاً لا يداجى ولا يصانع
بل يؤمن فيه كل فرد حاكماً أو محكوماً بأهمية كل فرد ، وحرية الرأى،
والعمل، والتسامح، واتخاذ سبيل الاقناع بدلاً من القوة ، نريد الاحكام
والحكمة في العمل والكلام معا تلك الصفات التى يعدها وابتهد
Alfred North White Head من مستلزمات الحضارة .

لماذا النفاق

نحن نتحدث كثيرا عن المرافق المثيرة ، وعن الشوارع المتحفرة .
ولا شك ان تخريب الأرض مما يحزن ولكن الذى يحزننى أكثر هو
تخريب (الإنسان) ، المصرى .

لا تزال حياتنا تكيفها (المانشات) العريضة ، والنفاق الذى
استشرى . فنحن نناقى اذا كتبنا أو خطبنا ، أو تحدثنا ، أو احتفلنا
حتى بالأعياد . وبين المداينة والمصانعة والمبالغة يضيع الصدق ،
وتفيم الرؤية ويحار الكريم ، وتهتز القيم . لأن النفاق يتبعه الوضولية
والتبعية فيهن النجاح لأن طرقه ملتوية ، والثقة فيه معدومة .

لشد ما يرومنى النفاق الشديد الذى يسود الخطاب فى كل
وزارة ، وكل ادارة ، وكل مكتب من مكاتب الحكومة .

هل نحن نحررنا من الخوف حقيقة ؟

لا اصدق طالما نخلع الألقاب جزافا ، ونرفع السلطة من أى
نوع ومستوى ، فوق حجمها الحقيقى .

ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم . لن يغيرنا انفتاح
أو غير انفتاح ، ما دمتنا لا نحترم العلم ، ولا نؤمن بالتخصص ، ولا
نقتصد فى الكلام ولا نعرف قيمة الوقت ، ولا نتورع عن الطنطنة ،
ولا نمل الهاتف ، ولا نكل من دق الطبول .

زرت مرة أكبر مصانع العطور فى « جراس » بفرنسا . ولم تر
عيناي بالمصنع الكبير الذى له فروع وراء البحار حجبا أو سعاة .
وهو على ضخامته وأهميته به عدد محدود جدا من العاملين . كل معمل
به من الباحثين اثنان أو واحد . . كل عنبر آلات به أربعة على الأكثر . .

ولو كان هذا المصنع عندنا لفص بالآلاف المتزايدة كل عام مع موسم القوى العاملة ... هناك كل انسان له عمل يكفي طاقته ويزيد ولهذا يعمل بدون رقابة ولا تزويغ وبلا افتعال اعدار لان وراءه شيئا يشده وعليه أن ينجزه .. ليست هناك بطاقة أو بطاقة ولهذا لا يضيع على الدولة أو الأمة ، وقت أو مال ...

وطاف بنا المدير وهو من المرموقين هناك ، على المعامل وأماكن الآلات المختلفة شارجا المراحل الكثيرة للتقطير ... وعندما نعر على باحثين أو موظفين أو عمال كان اشد ما لفت نظري بل ادار راسي أن احدا من هؤلاء لم يهب واقفا عندما يدخل المدير ... لم يقفز احد أو تنخلع يده في ضرب السلام . كل انسان منصرف الى عمله ، محترم ذاته . هناك المدير لا يقتل احد تحيته أو تشجيع ناديه أو تدبيج نشرة طويلة في الصحف تعزیه في بنت خالة زوجة ابيه ، أو تهنئة بشفاء كلبه من وعكة البرد التي المت به .

الذي حدث أن المدير كان هو الذي يحيي الشخص القادر على شرح العمل في مكانه فيرد التحية في اقتصاد .. ولست يدى سرا كبيرا من اسرار تقدمهم ... هناك يعمل الانسان بلا عقد أو خوف قاتل أو زيف واحترام مصطنع ونفاق رخيص وتاليه كافر بما يقول والقاب بلهاء مخبولة يخلعها كل واحد على كل واحد كان الكلام يستطيع أن يرفع خاملا ، أو يشفع للحقيقة المرة ، لهذا فقدت الكلمة الشريفة عندنا مدلولها عندما تداخلت معها الكلمة المحترفة ثم ضاعت الكلمات ... جميعها ضاعت .. وضاعت الايام ... سرقت واحترقت ولم تخلف وراءها غير رماد ولو عشناها للملأناها عملا وأملا وصناعة وفنا وحياة .

واخشى ان تتكرر الكارثة اذا كررنا الأسلوب والسلوك على الوتيرة نفسها .

ان النفاق وهو من اوضح عيوبنا وقد جاء من امعانا في المادية وخلقنا من القيمة مما يجعل اى انسان يوافق من يملك له النفع المادى لماذا لم يوافق الافغانى ، الملوك وهو فقا ؟ لانه زاهد فيما بأيديهم ... ومترفع عليه بل هو يملك شعوبهم بشخصيته ورسالته حتى اضطر الشاه وهو الذى نفاه خارج البلاد فأرقه وهو بعيد ... اضطر الشاه الى مهادنته مستشفعا عنده الباب العالى ... فقال الافغانى في عزة العالم الزاهد الكبير بنفسه : قد عفوت عن شاه العجم !!

ولا يخفى أن من يملك العفو ، يملك العقوبة .. مثل هذا الزهد .. ومثل هذا الاعتزاز بالنفس هو الغنى الحقيقي وأن جاع صاحبه .

فصار يحسدنى من كنت أحسده
وصرت مولى الورى مذ صرت مولاى

زار الخديوى اسماعيل مع السلطان عبد العزيز ، الأزهر فاذا
برجل يمد رجله ... وظل يمدّها ولم يغير جلسته .. ففزع الخديوى
وأرسل اليه أحد رجاله بصرة لكى يفعل ما يفعله المستقبلون فقال
لرسول الحاكم :
ان من يمد رجله لا يمد يده .

نفوس سكنتها السكينة فاستعرت لأن العزة لله ولرسوله
والمؤمنين .. لقد آمنت بالحق ..

عندما يضطرب الماء تتعدد فيه الصورة الواحدة .. وكذلك النفس
عندما تضطرب تتعدد فيها الآلهة ... فالدرجة اله ، والمال اله ،
والشهرة اله ، ونحن بمواضعات عصرنا ، وواقع سلوكنا بعيدون عن
التوحيد .. كل منا له هوى ، وكل منا يتخذ الهه هواه .. وهى
وثنية .. الوظيفة وثن ورئيسها وثن ، والتعصب وثن ، ونحن نعيش
فى هذه الأوثان على الرغم من الأديان حين يقول أندريه مالروا : (أن
المستقبل للدين) .

ان الطفليان وحكم الفرد يستلزم العبودية . ولكن الكرامة البشرية
تتحقق عندما يكون الانسان قادرا على الاختيار بحرية .

وفى مصر استوجب النيل حكومة لتوزيع الماء ... ورأس الحكومة
القديمة ، الملك ، كان يعتبر سيد النيل أو اله النيل . فوجبت له الطاعة
والامتثال ...

ومن الأقوال المسطورة فى الأدب العربى : (قال السلطان أنا لاحق
بالعراق قال الشقاق وأنا معك ... وقال الغنى أنا لاحق بمصر ، قال
الذل : وأنا معك .)

يفسر هذا القول نفاق من تحكمهم الروابط المادية . وقد يسأل
سائل :

فى الغرب روابط مادية .. لماذا اختفى النفاق ؟ وأقول : أن سيطرة
القانون وسيادة الديمقراطية حمت الفرد ، فهو يضمن حقوقه بدون
تزلف أورياء الحاكم أو رثاء الناس .

بى لهفة على بداية جديدة كريمة ونحن نستطيع ان نبدا من جديد.
... نبدا على مستوى امة بدلا من ان يحاول افراد منا ان يبدوا فى بلاد
أخرى وحدهم . وقد اثبتت التجربة ان معظمهم ينجحون ويتلقون وهم
انفسهم كانوا بيننا مطحونين يقهرهم الفبن والتجمد والاهدار وضيق
الحركة وفداحة الانصاف فى ضجيج الهتاف وتديج القصائد ...

اكبر كثيرا من الانفتاح ، احترام الكفاية واتاحة الفرص وتقدير
العمل الجاد والثقة بالانسان . . الانسان المصرى عنده الكثير ليعطيه . .
منده كنوز من الطيبة والدكاء والاخلاص والصبر والجلد والاجادة او
وجد بيئة مسعده . فلا تلجئوه الى ان يبحث عنها خارج مصر . .
حرام .

لقد كرم الله الانسان حين اصطفاه على الملائكة وفى هذا دعوة الى
تكريم الكيان واحترام الذات ومن هنا يكون النفاق كفرا بالمعنى الدينى
والاجتماعى ما معنى اياك نعيد واياك نستعين ان لم تكن العبادة لله
وحده ، واللياذ به وحده كيف نصلى بهذه الاية ثم نتخذ من دونه اربابا ،
ان الايمان فى الاسلام هو استقرار هذه المعانى فى القلب بحيث يصدر
عنها العمل ومن هنا يكون الاسلام كرامة واعتدادا فلله العزة ولرسوله
والمؤمنين .

لا خير فى قراءتنا لهذه الايات ان لم نلثفت الى سيال المعانى التى
توحىها وتهديها فان الانسان حين يتجوف من المعنى ويتخوى . من
مخلوق مثله ، ويتخوى من القيمة يفدو خاويا خابيا . « ومن ام يجعل
الله له نورا فما له من نور » .

الفراغ والهدر

نحن نعيش .. ولكي نحيا لابد لنا من قيم نرعاها . فان الصورة الحاضرة حتى عند غيرنا شهادة يأس العالم المعاصر المجذب من القيم .
نريد عالمية المعرفة المتاحة في عصرنا فان قمة الومي ان يكون الاستاذ الكبير هو التلميذ الكبير .

نريد ان نعشق الاعجاز في الأداء حتى تصل الرفاهة والرهافة في العمل الى عتبة الصمت .

نريد ان تكف عن الثرثرة اذا تكلمنا ، او كتبنا ، او وضعنا لحننا ،
او رسمنا .. ان الفراغ هو شحن الرؤية بشيء غير مرئي فتصل الى تركيز .

الفراغ في الموسيقى هو الصمت او هدوء ذخيرة النغم .
والفراغ خلوة لا خلاء .. خلوة مع الذات او مع الآخرين في اعمالهم
هي انس وصفاء ونماء .

وفي الادب الكلام الكثير يقلل المعنى .. يسخطه .. يحوله الى كلام فارغ .

اما فراغ قرقرة اللب فهو مهانة .. كل هذا الجهاز الانساني بخلاياه
واعصابه ولحمه ودمه يستخدم في القرقرة !!
ثم ان القرقرة قتل اللبة .. قتل جنتين نبات .
القرقرة مقصلة .

نريد فراغ التركيز . ليست المسألة كبر الجرن ولا شحانة الاعداء
كما يقول المثل الشعبي حين كان الشعب مطحونا يعوض نفسه عن القيمة

الحقيقية وان دقت ، بالمظهرية .. كما كانت القرون الوسطى تفيض في الشرح والزيادة حتى غدا هذا طابعها .. هي الاخرى تحب (تكبر الكوم) ومن هنا كثر الوضع من ناحية والشروح من ناحية اخرى .

هذا بينما الحضارة القديمة كان طابعها :

التجربة ممثلة في مصر .

التنظيم ممثلا في اليونان .

حين أعطت مصر للدنيا الورق والقلم .. حين ابتدعت الكلمة ورسمت الصورة ... كانت الصورة في مصر كلمة ، والكلمة صورة .. في تركيز حكيم وعليم .

اليوم الصورة في مصر امية ، والكلمة فارغة اى الاثنان خلو من المعنى .

وخلال المعنى امتد الى الافلام والمباني .

ان مصر حين صمرت في العصر القديم ، كل مكان وكل شيء بالمعنى تعددت منابع ثقافة الانسان المصرى القديم لانه كان بهذا يشقف حين يذهب الى المدرسة ، والى المكتبة .. وحين يذهب الى الملعب والى المنتزه بل ياكل ويشرب وينام

كانت ادوات الاكل مشحونة بالقيمة لان الصانع شكلها على صورة فنية رقيقة وجميلة

كان السرير قطعة فنية .

والعين بين هذا وذاك تنتقل وتلتقط وترتوى ...

وبهذا الانسان .

ويشبع وجوده .

ومن هنا كان البيت اما .

والمدينة اما اكبر .

حين يحتضن كل منهما الانسان ويرببه ويشحنه بالقيمة ومن هنا اقول :

حين يحيى العرب قيمة الكتاب العربى .. ويخيولها

حين يستعيدون فقه الصورة .
يومئذ يتأصل الكتاب بينهم وترشد القراءة .
يومئذ يستردون مكانهم ومكانتهم .
لأن ذاتهم عندئذ تحققت فحققت .
ان خسوف الرؤية ، وكسوف الهدف ، ضياع .
وان وضوح الرؤية + ذكاء الهدف ، قيمة في ذاتها تضاف على
صاحبها جمالا خاصا بينما التائه في طريق الحياة لا يعرف كيف ينتمى ،
هلفوت ، مهما كان جميلا أو غنيا
والانسان قيمته من نوع وحجم غايته التى يسعى اليها فمن غايته
الفنى ، قيمته بما عنده . . ومن كان غايته الفن فقيمه لا تقدر بمال ،
لقد بعث النبى رحمة . وكل انسان يجب أن يكون رحمة لا بالوعة . .
منحسة لا محنة .

الأمية

هناك أميتان لا واحدة .

لأننا اعتدنا (ثقافة) الصحف والإذاعة والتلفزيون ، نسينا أن هناك ثقافة تحت السطح ... أعمق .

نسينا أن أجهزة الإعلام « دعاة » لشيء معين . والدعاة مهمتهم التبسيط والتيسير فهم لا يريدون من جمهورهم أجهد تفكير بل تقبلا سهلا أو سهلا متقبلا ...

فرق بين الدعاية والدعوة أى القضية .

نريد الفكر الحر الذى يستعرض المسلمات ولا يسلم بها بل يناقشها ويمحصها ، الحضارة والانسان كليلى والمجنون .. والانسان فى سعى دائم الى الدنو منها . ومن كرامة الانسان ان يظل باب الاجتهاد مفتوحا لتتواصل الحضارة .

الفكر الحر الذى يرتفع على التبعية يصل بنفسه ولنفسه ، الى النتائج

ان التربية الحقيقية هى اكساب الاولاد عادات فكرية .. ان النفس البشرية مجموعة قدرات تنتظر صياغة ... وهذه الصياغة تقوم بها الثقافة ... ان القراءة نماء وللاء وتائق .. والتبعية اطلاق بلا هضم ...

ان المثقف هو الانسان الحر التفكير .

ان حامل المؤهلات متعلم ولكن الثقافة شيء آخر بعيد .. الثقافة خبرة مقطره . قد توصل المؤهلات الى وظيفة كبيرة ولكن الثقافة الحقيقية تعطى (انسانا كبيرا) . وكم بين الموظف الكبير والانسان الكبير .

ومن الثقافة التحديد . . . الادراك الدقيق للمهام والاعمال . .
الثقافة هى الكيفية . . الكرائيه عراك مثقف نابع من ثقافة اليابان .

عندنا تجار شغلة فى الثقافة وهم مستوردو الافكار والصور مع
ان الثقافة كالصحة لا تستورد ولا يغنى فيها صحة الغير مهما كان قريبا
او عزيزا .

اننا نطالب بمنع اللب فى السينما ولكننا ثقافتنا قشور وحديثنا
قرقرة . . فلم نعد نكلف انفسنا النفاذ الى الأعماق التى انشغلنا عنها
بالثروة والاستطردا يشيع فى كلامنا بل وفى تخطيط مدننا خاصة فى
العصر الوسيط . فانت لا تكاد تأخذ فى السير حتى ينعطف بك الشارع
فى ممرات جانبية وأزقة تفضى بعد حين الى الطريق الرئيسى ثم يتفرع
مرة أخرى وهكذا . . ويتمثل هذا فى طراز العمارة الخاصة بالمساكن
التي يضمونها اصحابها دهاليز (مسروقة) الخ ،

ان الانجليز يسمون ظاهرة الاستطردا عندنا :

The Story of the Merchant

فانا لا نكاد نشرع ، فى رايهم ، فى حكاية التاجر حتى نستطرد الى
موضوعات وموضوعات ثم نعود الى حكاية التاجر من جديد . وهكذا
فلا الحكاية تنتهى ولا استطردانا يكف . .

ونحن نتكلم كثيرا لاننا لا نعرف على وجه التحديد ماذا نريد ان
نقول كما يقول امرسون :

He did not know what to say, so, he cursed

ما أحوجنا الى القصد فى القول والعمق فى التفكير والانفتاح فى
الإيمان لنحب فى صدق : الدين والفن والحب . . فننتعاطف ونتواد
فلا يعد باسنا بيننا شديدا يحسبنا الناس جميعا وقلوبنا شتى .

والناس أمية وعندنا أميتان :

أمية روحية انتهت الى مشيخة وما يتبعها .

وأمية تشكيلية مع ان مصر كتبت تاريخها بالتشكيل .

مصر ليس عندها فلسفة بالمعنى الحرفى لكلمة فلسفة . . ان
فلسفة المصرى يغلب عليها الطابع الدينى . . الرؤية الدينية الشاملة . .

ليست فلسفة الحادية كماركس

وليست فلسفة مادية .

ولكنها أسلوب تفكير . . أسلوب حياة .

المبالغة بين التهوين والتهويل

اننا كثيرا نتردد في كلامنا لكلمة الصحة ..
رسائلنا تستهل بالسؤال عنها ، ولقاءاتنا العابرة تفتتح بها ،
وسمرنا التليفوني أو الهاتفى يبدأ بها ، ومع هذا نحن لا نقصد
الا الاهتمام بصحة الجسم .
من الناس من ينزعج اذا أصيب بزكام ، وما درى ان داخله داء
مضالا بافتقاده الحرية والارادة ..
ليس صحيحا ان انتفاء الحاجة الى الطبيب معناها السلامة من
المرض ... هذه صحة سلبية .
أما الصحة الايجابية فهي الشوق والحماسة والاستشراق .
لو أحيينا في النفس لهيب الشوق الذى يستحيل مع القلب الى
جدوة ، ويستحيل عليه أن يصير رمادا ، لحيينا .
ما هو التصوف الحقيقى ؟
انه سفر من الدنيا الى العليا فى محاولة تفوق على الذات المحدودة .
وقد تكون هذه المحاولة فى العلم ... فى الادب ... فى الفن .
تصوف كل مكوف على هدف عظيم .
ان الصحة النفسية ليست الا اعادة السلام الى نفس تفرقت
اشتاتا .
ومن الصحة الايجابية ، الدين . ورجاله الكبار كالسيح ومحمد
اطباء نفسيون يطبون حتى للاصحاء ... ومن هنا نفهم قوله تعالى
(والله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

• الصلحة عزة ومعمة •

ان قصة ابن طفيل الفيلسوف الاندلسى (حى بن يقظان) اهم من روينسن كروزو . انه كتاب فى التربية بما يتكلم عن رؤية الله وما يعلم من مصادقة الطبيعة والاهتداء بالفطرة التى يقضى فى النهاية الى الدين .

ولامر ما سى ابن طفيل قصته (حى بن يقظان) فى دعوة الى الحيوية البيقطة .

وعندما رست السفينة فى القصة على جزيرة ، التقى حى بن يقظان بانسان القوانين والشرائع فامكن الالتقاء .

.. ما جاءت به الاديان قار فى القلب البشرى لو عرف الانسان كيف يعثه .

على ان الدين يزيد الحيوية ومن هنا الاية :

(فان يكن منكم مائة صابره يغلبوا مائتين) ٦٦ م الانفال ٨ .

ومن هنا يأتى ضعفنا حين ننسى الله وننسى الدين (نسوا الله فانساهم انفسهم) .

نريد توازنا فى شخصيتنا لا يندب المشكلة ولكن يحاول حلها فى هدوء وموضوعية ... ان الحياة هى الانتصار على مجموعة مشاكل . فوجود المشكلة ظاهرة طبيعية . وانسان بلا مشاكل ، ميت . وحتى الميت له مشكلة هى حساب الله له .

كالرياضة مطلوب السباحة فى الأحداث اى مهارة التوازن فيها لا الطفو على السطح بلا مهارة ، او الغوص فى القاع ، اى الفرق من الجهل بالسياسة ... وهنا يصير الحدث حادثة .

ان مثلنا الشعبى يقول : الشجاعة صبر ساعة . ويمضى الادب الشعبى يقص قصة الاصبع ... اى المتصارعين اللذين جعل كل منهما اصبعه تحت ضرس زميله . وكان التحدى من يصرخ أولا ، وصرخ أحدهما فقال له الآخر :

— لو لم تصرخ انت لصرخت انا ... فهو يحس ولكنه تجلد .

لقد اعطى كارليل كتابه الكبير عن الثورة الفرنسية الى صديقة لتقرأ قبل ان يدفع به الى المطبعة .. واخذته السيدة . وجلست أمام

المدفأة في بيتها لتقراه ... وغلبها النعاس فسقط الكتاب في النار . .
واحترق !!

وعرف كارليل بالطبع ... فكتب الكتاب مرة ثانية .
هذه هي السباحة في الاحداث . ولو ندب حظه لامتصته اللحظة
بدلا من أن يمتصها .

ان المعلم حين يخترع الوسائل انما يرتفع فوق الاحداث .
السكينة ارتفاع فوق الاحداث من ثقة الانسان بربه ، وبنفسه ،
والسكينة لا تعنى السكون .

المقل يرى السكينة ضد الاضطراب .

والفن الصينى والهندي يعبر عن السكينة تعبيرا بوديستيا اقرب
الى العزلة . اما المصرى الحقيقى فيرى السكينة قيمة ايجابية وعطاء
ضهير ... نفحة فيض من سلام .

السكينة طرح القلب الانسانى عندما يصل في نضجه الى قمة
الشرف والترف .

ان الانسان المصرى يذكر التأمل ، بالفيلسوف الراقى باحتماله
وتجلده ... والرواقية من مقومات الفكر المصرى المسيحى والاسلامى .

ومع هذا فان السكينة المصرية اى المفهوم المصرى لها ، شئ غير
الجلد الرواقى ... انها شئ اكبر بفضل مدد علوى هو اطمئنان وتواصل
وتقبل لفيض هناءات تهون امامها الخطوب ، وتتجدد الرؤى ، وتشرف
النفس من علياء عزها الجديد امام احتدام الامور .

انها ميلاد للنفس يعود به الانسان من غربته ... يخرج من عذابه
أو يملو عليه

ولعل هذا يفسر الاية (يا نار كونى بردا وسلاما) .

ان الاية الكريمة دعاء لابراهيم بالسكينة تصير معها النار نفحة
نور لا لفحة سحر .

نحن سريعو الغضب ، سريعو الغيء الى الرضا كالمأزنى
ليتنا نستمع الى قول حكيم الصين « لاوذا » : عندما يولد الانسان
يكون رقيقا ناعما ... وعندما يموت يتصلب .
الاشجار الحية مملوءة ماء ... اذا ماتت جفت ..
اذن كل رقيق ناعم الى اعلى ... للحياة .
وكل صلب جاف الى اسفل للكسر .
نريد ان نصطليح مع الحياة ومع انفسنا .
وليس من الصلح مع الحياة ، وليس من طبيعة مصر ، صراع
المذاهب .

ضياع الفرد

تتردد كثيرا على السكتنا وأقلامنا الفاظ الديكتاتورية والشيوعية والراسمالية ولست أومن بها أو بإحداها .. فالديكتاتورية والشيوعية كلاهما غبي أحق .

غباء أن تقبرك العقول والأفكار .. وغباء أن تسوى بين العقول وقد خلقها الله متفاوتة متباينة الحظوظ من الذكاء ...

إن الديكتاتورية كفر .. كفر بالإنسان وعقله وإرادته .. كفر بالدين الذي كرم الإنسان ودعاه إلى التفكير واعترف بإرادته يوم هداه (النجدين) وهما طريق الخير وطريق الشر .

الديكتاتورية كفر بكل القيم . والماركسية لم تستطع أن تحرر الفرد من الاستبداد . أن هربرت ريد في كتابه (فلسفة الفوضوية) لم يكن ماركسيا بالمعنى المتعارف عليه عندهم . لم يفكر ماركس يوما أن تكون نظرياته شاملة بل قصد بها أشياء معينة .

إن الاشتراكية ليست تبطيط المستويات ودكها إلى أسفل ، ولكنها ، المفروض ، تحرير من هموم الضرورة ، ولقمة العيش في عملية صعود إنساني إلى أرقى .

وإزاء فشل الماركسية والراسمالية قام مذهب جديد يمتص سخط الجماهير هو « الفاشية » فإذا بها كما يقول هربرت ريد ، تنظيم إناني للقوة .

إن الوجودية تبالغ في تأكيد الفردية .

حين تبالغ النازية والفاشية في مسح الفردية لتأكيد القطيع .

ان المناهج الموحدة ، والاذاعة ، والوسائل الاعلامية من شأنها ان تخلق انسانا جماهيريا .. انسانا نمطيا كالليونفورم .. انسانا مقيدا بالحشدية .. مسلوب الحرية .. انسانا صفرا .. ومليون صفر لا تصنع واحدا صحيحا .

مثل هذا الانسان من السهل ان ينقلب الى النقيض لانه اصلا لم يحقق ذاته ولم يحقق لها استقلالا خاصا فسرعان ما يتعرض لتشتيق شخصي وثقافي .. وهذه ازمة الانسان المعاصر حتى في أوروبا المتقدمة . انها في قحطها الروحي تجرى وراء اشباع الروح في اليوجا .

وليس هناك اخطر على الانسان الاوربي من اخذه باليوجا الصينية لان المسألة عنده مسألة ارادة ووعي . والامر اكبر من هذا فتحدث النتيجة نفسها التي اريد تجنبها . اى تنمية الوعي ضد اللاوعي فيصاب الانسان الاوربي بالعصاب اى بالاضطراب .

حين كانت أوروبا تتسابق في الفتك من سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ كانت الهند تشغل الدنيا ببساطة وسماحة غاندى وشامرية تاجور .

ان الهند تعرف الثقافة بلفظة « سنسكريت » اى التطهير والتغيير وايقاد الحماسة والتهذيب وتحقيق الكمال .

ان كلمة « اليوجا » معناها : النظام .

سئل يونج عن سر ازمة أوروبا فقال في كتاب (The Undiscovered Self) « هي ضياع قيمة الفرد » .. الانسان في العصر الحديث والانسان الغربى خاصة انسان احصائي .. انسان متوسطات . فذكاؤه من خلال متوسط الذكاء لمجموعته .. ومثل هذا يمكن ان يقال عن سائر قدراته .

ان ازمة الانسان المعاصر انه انسان مذاهب .. والمذهب دهماء منظمة تسوق الى الخراب اذا قادها مجنون .

ان الفرد في حشد كبير ينحط خلقيا واجتماعيا كما يفعل الامريكان عندما يجتمعون لتعذيب الزنوج فياتون من ضروب الوحشية مالا يتردى اليه ، وفيه ، انسان وحده .

ان مأساة الانسان المعاصر مأساة بروميثيوس الذى حاول تحدى الالهة فارتطم بالجبل (جبال القوقاز في الاسطورة) .

لقد اعتمدت الحضارة الحديثة على الذهن وحده .. والنمو فى جانب واحد حتى الاخلاق يؤدى الى الانهيار المحتوم .

ان العمل على تنافس الارادة والقدرة شئ أكثر من الفضيلة .

انها الحكمة .. ومن هنا نفهم قوله تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا) .

ان الانسان المتكامل نفسيا هو الذى اصطلح فى داخله الوعى واللاوعى . والتكامل شوق الانسان ولو لم يدرك ، الى هذا اللقاء الداخلى . لهذا وجدت الديانات لتغذى حنين الروح الى ذلك التكامل .

لهذا وجدت الديانات .

ولهذا عاشت .

ان التقوى هى اتقاء نزعات الشر ونزعات الطغيان .

والشيطان هو الجزء الثائر المحروم المبعوذ فى النفس .

الانسان البدائى يعيش بروح القطيع ويتملكه الرعب ان خرج على عرف الجماعة التى يعيش فيها .. هنا تأتى الأديان لتنظم نفس الانسان وتمنحها الاستقلال النفسى ..

الدين ذلك الفيتامين الذى لا يباع فى الصيدليات .

ان كل المذاهب والطبقات وكل صور التجمعات تستمد من عالم الماضى ، ولكن وحدة المستقبل هى الفرد .

الفرد الذى يخلق نفسه اى يعطى بحرية ويتلقى بحرية .

الانسان الطفل هو الذى يعتمد على الحزب او الزعيم او الحكومة .. ومن هنا يكره المتأزون التبعية من اى لون ..

اما رجل الحشد فيتوهم او يوهم او يشبه له ان القمة ممثلة فى الحزب او الحكومة تحقق له كل شئ .. حالة وهمية او الحلم الطفلى . انه الارتداد الى جنة الرعاية الوالدية .. وعندما يسود الوهم بأن الحكومة على كل شئ . قديرة ، يكون الطريق الى الاستبداد ممهدا ، وهنا يكون الاستعباد الفردى لاحقا بالضرورة والمنطق ..

لقد كان الناس في العصور الوسطى يرون الانسان عالما صغيرا (ميكروكوزم microcosm) وهى نظرية سليمة تربط الانسان ببيئته ، ودينه .. ولا يمكن لأحد أن يسلب انسانا ، الهه ، ومن حاولوا هذا في العصر الحديث أعطوه الها آخر .

وحين يبتعد الانسان عن الدين يحدث له اضطراب عصابى .

وحين تتوقف المحبة ويحل الشك توجد القوة والعنف والرعب وزوار الفجر .

ان السعادة والرضا وتوازن النفس وثناء الحياة ، معان لا يمكن ان تخبرها الدولة بل يخبرها الفرد ..

دولة مراكز القوى جهاز يجمع الفرد فان احسنت اليه فغالبا ، تعمل على تعضيد أوهام الفرد لأنها لا تبني نظرياتها على فهم وتفهم نفس الفرد فهى أصلا لم تقترب منه ولم تدرس احتياجاته الحقيقية .

انها تعرف احتياجاتها هى لاستيقاء السلطة .

والمجتمع الذى يضع فيه الفرد مجتمع متخلف ولو ملك المال والنفوذ وأحدث الوسائل . ومن هنا أدان « برنارد شو » المضارة الغربية فى كتابه (دليل المرأة الذكية) ، وأدان « ديوى » ، أمريكا ، فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة .

Individualism Old and New

لقد حاولت أوروبا وأمريكا اللتان نقلدهما سحب السجادة من تحت قدمى الفرد بالآلة ، والنمطية ، والحركات الحشدية اجتماعية وسياسية . الانسان الغربى انسان احصائى .. انسان متوسطات فذاؤه من خلال متوسط الذكاء لمجموعته . ومثل هذا يمكن ان يقال عن سائر قدرانه . وهل يميز انسانا عن انسان الا صفة فريدة فيه ؟

حتى الاخلاق حين ضعف سلطان الدين غدت امورا تواضعية مادام الفرد لا يحس بمسئوليته أمام الله . ذلك الشعور الذى يرتفع على القانون . فقد يستطيع الخاطيء أن يهرب أو يتهرب من القانون أو يفلت من العقاب ، ولكن صاحب الحس الدينى ، السلطة الرادعة فى داخله .

والدين ليس المبادئ الأخلاقية مهما كانت رفيعة ، وليس العقائد مهما كانت مستقيمة .

ليس هذه أو تلك فكلاهما لا يشكل الأساس لحرية الفرد من أسر (الحشدية) التي هي المجتمع أو الكتلة ..

والدين الذي اعنيه غير العقيدة . فالعقيدة كما يقول يونج اعتراف بالايان ، ولكن الدين علاقة الفرد بالله أو علاقة الفرد بالتححرر .

ان الولاء لعقيدة معينة ليس مسألة دينية ولكنها في الغالب مسألة اجتماعية فلا مفعول له ولا قدرة على منح الفرد أساسا يستند اليه ..

هذا حين يتفيا الدين المحافظة على التوازن النفسى .. ان النفس الشعورية في الانسان يمكن في اى وقت أن تموق وظائفها بوساطة احداث من الداخل والخارج لا يمكن التحكم فيها .. لهذا يلجأ الانسان في القرارات الخطيرة الى القوة العليا تبركا بها .. المؤمن عنده (ارتكاز) .

ان النقد الذى يسمى نفسه مستنيرا حين يخضع الدين لنظريات عقلانية ، وتصوير ، محتواه ، بأنه مستحيل ، يخطئ مثل هذا النقد الهدف والمرمى فلا يصيب الدين ولكن قصاره ان ينتهى الى دين آخر هو تاليه الدولة او الديكتاتور .

ان الدين وظيفة طبيعية وجدت منذ البداية لا يمكن القضاء عليها بالنقد العقلى الذى يعرض المعتقدات الدينية على المنطق الذى يفضى الى السخرية منها .

سحق الفرد أو تضييعه لا يفتقر تحت اى اسم من الأسماء . فالكنيسة نفسها حين ربطت الفرد بها في الغرب لم تفلح . ولهذا خرجت الحروب الدموية من القسرة التى تدين بالمسيحية التى تقول ان الله محبة .

الكنيسة في الغرب حين ربطت الفرد بها أفقدته الشعور بالمسؤولية .. وكان الأخلق بها أن تشعره بقيمته .. بقيمة الإنسان الذى كرمه الله وأكرمه بالعقل وقدرة التفكير التى يمتاز بها الانسان ، ولو أخطأ ، على (الملاك) اى الملك . فالقدرة على الخطأ ميزة لا عيب حين تعنى هذه القدرة ، التجريب .. المحاولة والاجتهاد .. السعى . ولهذا يقول رسول الاسلام :

(من أخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران) .

أما الذى يعيش في القبة السماوية بعيدا مع النجوم بعيدا عن الاغراء والاشواء فان من العفة الاتجد .

ان الرعب الذى اوقعت فيه الديكتاتورية ، الانسان ، هو قمة
الفظائع التى اقترفها الغرب . فحماسات الدم التى اغرقت الدول
المسيحية فيها بعضها ، بعضها ، والجرائم التى ارتكبها المواطن الأوربي
ضد الشعوب السمرء اثناء استعمارها لها ، حلقة متصلة ...

ومثل هذا الرعب شكل فى بلدنا احيانا سحابة قاتمة فوق رؤوسنا .
وقد حق للرعب والخوف والقهر الذى كان ، ان يحل محله رابطة من
النوع الوجدانى تعود معها بيننا الصلات الانسانية التى وهت وكاد
يديرها الشك والتوجس فبننا فى حالة تقاعس اخلاقى شامت معه
الوجوه والنفوس ونامت المعالم والصفات .. مع ان الانسان لا يكون
انسانا الا اذا كان له موقف تجاه النفس وتجاه الآخر .

انسان ثراؤه ليس خارجيا واردا من ثقافة مكتسبة او مذهب
ولكن ثراؤه داخلى من صفاء الذات ورهافتها وكرامتها بالحرية ..
انسان هو نفسه موضوع وشخصية .

اننا اذا اعتبرنا الثقافة نمو النفس فان هذا النمو لا يتحقق الا فى
جو من الحرية يتيح للنفس الانسانية الراقية ان تعطى ما لديها من
الادراكات والمنجزات والطرح فلا يهيج ولا (يهيج) مثقفونا الى الخارج
فارين او يائسين لان المحيطين بهم عندهم نزوع (نطوحى) ضد المثقفين .

لقد اعتبر كارليل بثقافته (نابليون) انسانا متوسطا ولكن الفترة
التي تحدث عنها فترة نابليونية . كم من واحد فيها عامل «نابليون» .
ومن الأسف ان كثيرين منا ، صدقوا كثيرين منهم . فعباداة الاسم فى
الشرق رسم من رسومه كذلك التركى الذى امضى الليل كله وهو
يستمع الى صاحب الربابة وفى نهاية الليل قال له :

— اسمع قول حظركم شوية ابو زيد الهلالي علشان حظرتنا يكون
مبسوط .

فرد عازف الربابة :

— كل ما سمعته كان عن (ابو زيد الهلالي) .

فتهلل وجه التركى وقال :

— لازم انا كنت مبسوط .

وبعد هذا كله طار صوابنا عندما وقع المدوان . ان المدوان
الحقيقى وقع قبله على العقول .. على القيم . فالتحرير الثقافى .
تحرير الكيان المصرى البشرى هو أساس كل تحرير ...

اننا ، باللاوعى الذى نعيش فيه فى حالة اغماء قومى ، ولا صحة لنا
الا أن نبحث عن المفتاح الذى أضعنناه .. أعيدوا تقييم وتقويم حياتنا
وسلوكننا وتعليمنا ... لنعرف :

أى قيمة تعنى كلمة (مصرى)

أى قيمة يعنى الاسم : (مصر)

من مؤلفات الكاتبة

- | | |
|--|---|
| <ul style="list-style-type: none"> * أزمة الشباب . وهموم مصرية * مصر تدخل عصر النفايات * الإسلام وإنسان العصر « العودة إلى المنبع » * رسائل إلى ابنتى * رسائل إلى ولدى * القاهرة فى حياتى * رحلة الشرق والغرب * « سافرت فى الإنسان والمكان والزمان » * فى بلادى الجميلة * صناعة الجهل . * قبة الأمام الحسين قضية حكم . * اللص والكلاب (محنة من عالم الهنوك المصرية) * كتبت يوما : فى الأدب / النقد ، الفكر ، الفن | <ul style="list-style-type: none"> * من عبقرية الإسلام . * أعيذوا كتابة التاريخ . * شخصية مصر . * النيل فى الأدب المصرى . * خصائص الشعر الحديث . * الجمال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب العقاد . * أدب المازنى . * فى أدب الرافعى * أحمد رامى (قصة شاعر وأغنية) . * أم كلثوم وعصر من الفن . * الأدب والحضارة . * التراث والحضارة * قمم أدبية . * ناجى الشاعر * شعراء ثلاثة : ناجى . * الشاوى . والأخطل الصغير * مشروع هضبة الأهرام أخطر إعتداء على مصر . |
|--|---|

فهرس

٥	• • • • •	اهداء
٧	• • • • •	مقدمة
١٥	• • • • •	● تكوين مصر
١٧	• • • • •	— النيل
٢٥	• • • • •	— الانسان والمكان • مصر والزراعة •
٣٨	• • • • •	— علمت الزراعة المصرى كيف يصنع •
٤٣	• • • • •	● مصر اسلوب حضارى
٤٥	• • • • •	— مجتمع متحضر متسام •
٥٧	• • • • •	— العمل •
٦٥	• • • • •	— أحببت مصر الحياة •
٧١	• • • • •	— احساس مصر بالكون الشامل •
٧٥	• • • • •	● مصر والدين
٧٧	• • • • •	— مصر قبل الاديان •
١٠٣	• • • • •	— مصر بعد الاديان •
١٣٧	• • • • •	● فنون مصر وآدابها
١٣٩	• • • • •	— الفنون التشكيلية •
١٥٩	• • • • •	— أدب مصر الفرعونية والمسيحية •
١٧٥	• • • • •	— مصر فى العريسة •
١٩١	• • • • •	— مصر فى الأدب الشعبى •
٢٠٥	• • • • •	— شخصية مصر فى العصر الحديث •
٢١١	• • • • •	● حقائق نحرص عليها
٢١٣	• • • • •	— الأهرام والسخرة •
٢٢١	• • • • •	— مصر والغزاة •

٢٤٩	• • • • •	• أصل الشعب المصرى
٢٥٥	• • • • •	• اسم مصر
٢٥٧	• • • • •	• مصر فى القرآن الكريم
٢٦١	• • • • •	• فرعون •• وفراعنة
٢٦٥	• • • • •	• الأقباط والمسلمون
٢٧٧	• • • • •	• سلبات الشخصية المصرية •
٢٧٩	• • • • •	• اختلال المفاهيم
٢٨٩	• • • • •	• التقليد
٣٠١	• • • • •	• افتقاد القيم الحقيقية
٣٠٥	• • • • •	• الخوف
٣٠٩	• • • • •	• لماذا التفاف
٣١٣	• • • • •	• الفراغ والهدر
٣١٧	• • • • •	• الأمية
٣١٩	• • • • •	• المبالغة بين التهوين والتهويل
٣٢٣	• • • • •	• ضياع الفرد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٩/٣٦٤٦

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢١٣٤ - ٧

فهرس

٥	اصداء
٧	مقدمة
١٥	● تكوين مصر
١٧	- النيل
٢٥	- الانسان والمكان « مصر والزراعة »
٣٨	- علمت الزراعة المصرى كيف يصنع
٤٣	● مصر اسلوب حضارى
٤٥	- مجتمع متحضر متسام
٥٧	- العمل
٦٥	- أحببت مصر الحياة
٧١	- احساس مصر بالكون الشامل
٧٥	● مصر والدين
٧٧	- مصر قبل الأديان
١٠٣	- مصر بعد الأديان
١٣٧	● فنون مصر وآدابها
١٣٩	- الفنون التشكيلية
١٥٩	- أدب مصر الفرعونية والمسيحية
١٧٥	- مصر فى المربية
١٩١	- مصر فى الأدب الشعبى
٢٠٥	- شخصية مصر فى العصر الحديث
٢١١	● حقائق نحرص عليها
٢١٣	- الأهرام والسخرة
٢٢١	- مصر والفراة

٢٤٩	• • • • •	أصل الشعب المصرى
٢٥٥	• • • • •	اسم مصر
٢٥٧	• • • • •	مصر فى القرآن الكريم
٢٦١	• • • • •	فرعون •• وفراعنة •
٢٦٥	• • • • •	الأقباط والمسلمون
٢٧٧	• • • • •	● سلبات الشخصية المصرية •
٢٧٩	• • • • •	اختلال المفاهيم
٢٨٩	• • • • •	التقليد
٣٠١	• • • • •	افتقاد القيم الحقيقية
٣٠٥	• • • • •	الحروف •
٣٠٩	• • • • •	لماذا النفاق
٣١٣	• • • • •	الفراغ والهدر
٣١٧	• • • • •	الأمية
٣١٩	• • • • •	المبالغة في التهويل
٣٢٣	• • • • •	ضباب ال الرؤية

مطابع نخبة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٩/٣٦٤٦

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢١٣٤ - ٧

تتمنى الهيئة أن يقرأ هذا الكتاب كل مصري وأن يناقشه كل مثقف وأن تجعله دور التعليم نهجاً ومنهجاً . فالكتاب عن مصر على مسار عصورها كلها . . . كتبته المؤلفه في إحاطة شاملة واستقراء محيط ووعى متفتح وصدرت فيه عن عاطفة عميقة حميمه وعبرت عن هذا كله بأسلوب قوى آسر ، وأثارت فيه قضايا بالغة الأهمية ، فصحت مفاهيم شائعة ، وحددت اتجاهاً جديداً في معنى « المصرية » بعد أن بلورت من الحقائق الثابتة شخصية مصر وركزت الأضواء على قسماتها .

تناول الكتاب فيما تناوله ، عطاء مصر الحضارى : عطاءها للأديان . . للإنسان . . للفنون . . للعلوم .

وصور الكتاب ، الشعب المصرى وفلسفته في الحياة ورأيه في الحكم ، وأسلوبه في المقاومة .

ناقش الكتاب عيوبنا الحاضرة مناقشة جذرية . . وفي الكتاب قضايا كثيرة ومثيرة ناقشتها المؤلفه في جرأة مناقشة علمية أمينة منصفة .

سوف يعتز كل مصري بهذا الكتاب .